المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

ندوة الإمام مالك
إمام دار الهجرة

دورة القاضي عياض

الجزء الثاني

مراكش

13-14-15 جمادى الأولى 1401
20-21-22 مــــارس 1981

القاضــي عيــاض

للأستاذ : عبد الله كنون

بسم الله الرحمن الرحيم

القاضـي عيـاض

أوليته. نشأته العلمية ورحلته. ولا يته للشورى والقضاء. ثناء الناس عليه. مكانته الإجتماعية. ولا يته للقضاء بغرناطة. ترجمته في قلائد العقيان. الآخذون عنه. خاتمة حياته. تآليفه وتحليلها. مثال من شعره ونثره.

بجنب الأصيلي وأبي عمران الفاسي يذكر القاضي عياض فيكون ثالث ثلاثة رفعوا رأس المغرب في ميدان الدراسات الإسلامية العليا، ولاسيما علم الحديث رواية ودراسة. والفقه والخلاف على مستوى المذاهب والأئمة ولئن كان أكثر ما بقي من آثار سلفيه العظيمين هو أقوالهما والنقول المعزوة إليهما في أمهات الكتب ومراجع هذه الدراسات من شروح السنة ودواوين الفقه، والأصول. فإن القاضي بخلاف ذلك قد كان محظوظا أكثر منهما، إذ احتفظت لنا الخزائن العلمية بأهم مؤلفاته. فشارك زميليه في انتشار الذكر والشهرة بالعلم واعتماده في الحفظ والفهم. وانفرد عنهما ببقاء كتبه شاهدة بعلو كعبه وطول باعه في المعارف والفنون.

ثم هو بعد ذلك يمتاز ببراعته في الأدب وصناعتي النظم والنثر والخطابة ومعرفته الواسعة بالأخبار والتواريخ إلى غير ذلك، مما جعل منه معلمة محيطة مفتوحة لكل طالب وراغب.

أما صفاته وأخلاقه ودياناته المتينة ومكانته الإجتماعية فهو مما نتحدث عنه في تفاصيل ترجمته وناهيك بالقداسة التي يتمتع بها لدى عامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وهو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن عياض اليحصبي بفتح الياء وتثليت الصاد بعدها باء موحدة نسبة إلى يحصب بن مالك قبيلة من حمير السبتي الدار والميلاد كان سلفه في القديم بالأندلس ثم انتقلوا إلى مدينة فاس. وكان لهم استقرار بالقيروان وانتقل جده عمرون إلى سبتة بعد سكنى فاس.

وكانت ولادة عياض في منتصف شعبان عام 476 هـ ونشأ في صيانة وعفاف طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه فحفظ القرآن ثم جود قراءته بالسبع على مشيخة بلده وغيرهم وأخذ العلم بها من القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي والخطيب أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري والفقيه أبي إسحاق ابراهيم بن جعفر اللواتي وجماعة.

وامتلأ وطابه من العلم فقها وحديثا وتفسيرا وعربية وأدبا ولكنه تاق إلى المزيد من التحصيل وسعة الرواية فرحل إلى الأندلس سنة 507 هـ وعمره إحدى وثلاثون سنة فأخذ بقرطبة عن أبي الحسين بن سراج وأبي عبد الله بن حمدين وأبي القاسم بن النخاس بالخاء المعجمة وأبي الوليد بن رشد وابن عتاب وأبي بحر الأسدي وابن العواد وأبي القاسم بن بقي وابن الحاج وابن مغيث وغيرهم ثم شخص إلى مرسية وقصده أبو علي الصدفي فوجده قد استخفى قبل ذلك بأيام لنبذه خطة القضاء من غير أن يعفى ووجد الرحالين إليه قد نفدت تفقات بعضهم ومنهم من ابتدأ اسماع كتاب عليه فلم يتمه. وأخذ أكثرهم في الرجوع إلى مواطنهم وتربص بعضهم فمكث هو لا يقع له على خبر سوى الظن بأنه هنالك وقابل أثناء ذلك بأصوله وكتب منها ما أمكن على يد خاصة من أهله. ولا يشك أن تصرفه في ذلك لم يكن إلا بأمره. هكذا يقول ابن الآبار في معجم أصحاب أبي علي الصدفي.

ثم يزيد قائلا : ولقد شافهه بعد خروجه بما معناه:أنه لو طال تغيبه لأشعر بالرحيل إلى موضع لا يؤبه لكونه به فيخرج مختفيا إليه بأصوله ويسمع منه ما يرغب فيه لما كان في نفسه من إخفاق رغبته وتعطيل رحلته.

وهذا يدل على مزيد التقدير وعظيم الإحتفال من الصدفي بعياض. وأنه ما قصده إلا وهو من أهل العلم المعروفين ورجال هذا الشأن الذين لا يخفى أمرهم على ذويه.

ومما سمعه عليه كما في فهرسته الغنية ولخصه ابن الأبار في معجمه المذكور الصحيحان للبخاري ومسلم والمؤتلف والمختلف ومشتبه النسبة لعبد الغني والشهاب للقضاعي والإشارة للباجي وأدب الصحبة للسلمي وشيوخ البخاري لابن عدي وعوالي أبي الفوار الزينبي وقرأ جامع الترمذي ورياضة المتعلمين لأبي نعيم وللشيباني والناسخ والمنسوخ لهبة الله والإستدراكات على البخاري ومسلم والتتبع والإلزامات لهما ثلاثتهما للدارقطني والأربعين حديثا لأبي نعيم وللشيباني وأوهام الحاكم لعبد الغني. وغير ذلك.

قال ابن الأبار. وعندي أصل أبي علي من كتاب المؤتلف والمختلف للدارقطني وفيه خط عياض بالمعارضة خاصة.

وأجاز له أبو علي جميع رواياته وكتب عنه فوائد كثيرة.

وأجاز له أبو علي الغساني وخليص بن عبد الله وأبو زيد بن قتال وابن السيد البطليوسي وأبو زيد بن الرواق وخلق غيرهم. على أن شيوخ عياض قد اربوا على المائة ومنهم أبوا بكر ابن عطية وابن العربي لقيهما بسبتة وكتب له من المشرق أبو نصر النهاوندي والطرطوشي وأبو طاهر السلفي وأبو عبد اللـه المازري من المهدية وسواهم.

وعاد من الأندلس في سنة 508 هـ فلم تطل رحلته إليهما أكثر من سنة ومع ذلك فقد قام فيها بنشاط علمي عظيم. لأن الرجل كان قد اكتمل تكوينه وانتهى تحصيله فلم يكن وطره من لقاء الشيوخ إلا توسيع الرواية وربط الصلة بأعـلام عصره. ولا سيما مثل الصدفي الذي رحل إلى المشرق وأخذ به عن بقية من

الأكابر علا بهم سنده وتميزت طريقه.. وإلا فإن ما أخذه بسبتة عن شيخه وعمدته أبي عبد الله التميمي فضلا عن غيره كاف ليجعل منه رجل علم ورواية من أعلى طبقة فقد ذكروه في كتابه الغنية أنه لازمه كثيرا للمناظرة في المدونة والموطأ وسماع المصنفات فقرأ عليه وسمع بقراءة غيره كثيرا وأجازه جميع رواياته فما سمع عليه وقرأه وأجازه به موطا الإمام مالك وصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داوود وشرح غريب الحديث للقاسم بن سلام وكتاب اصلاح الغلط لابن قتيبة وغريب الحديث للخطابي وكتاب علوم الحديث لأبي عبد الله الحاكم وكتاب الطبقات لمسلم بن الحجاج وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي والمدونة لابن القاسم والملخص لمسند الموطأ للقابسي والتقصي لمسند الموطأ لابن عبد البر ومسند الموطأ لأبي القاسم الجوهرى والرسالة لابن أبي زيد القيرواني... وكل ذلك مناظرة ورواية وضبطا واجازة فيما فاته وبعضه قرأه عليه مرارا.

فإذا كان هذا أخذه عن واحد من مشيخة بلده فما الظن وقد تضلع من معين معارفهم جميعا واستوعب ما عندهم درسا وتحصيلا.

ولذلك فإنه عندما رجع من رحلته أجلسه أهل سبتة للمناظرة عليه في المدونة. وهو ابن 32 عاما كما يقول ابنه في الجزء الذي عرف به فيه وبعد ذلك بيسير أجلس للشورى - يعني شورى الأحكام - ثم ولي القضاء عام 515هـ فسار فيه أحسن سيرة. محمود الطريقة مشكور الحالة أقام جميع الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها جماله وبنى في جبل المنيا الرابطة المشهورة إلى غير ذلك من الآثار المحمودة. والمساعي المرضية فعظم جاهه وبعد صيته.

وكلام ابنه هذا يؤيد كل من ترجم له وهو يدل على ما صار له من مكانة اجتماعية مرموقة إلى مكانته العلمية التي لا ينازع فيها أحد.

---

1) تخضع الأوقاف وتسييرها في الفقه الإسلامي لنظر القضاة فمن هنا كان تصرف القاضي عياض - فيما يظهر - ببناء هذه الزيادة في المسجد.

وقد كثر ثناء الناس عليه وتقريض أهل العلم له بحيث قال فيه أبو محمد ابن أبي جعفر (ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض..) وقال له أبو الحسين ابن سراج. وقد أزمع الرحلة إلى أحد مشايخ الأندلس : (لهو أحوج إليك منك إليه)

وقال ابن الأبار عنه في معجم أصحاب أبي علي الصدفي : (كان لا يدرك شأوه ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد الاثار وخدمة العلم مع حسن التفنن فيه والتصرف الكامل في فهم معانيه إلى اضطلاعه بالآداب وتحققه بالنظم والنثر ومهارته في الفقه ومشاركته في اللغة العربية وبالجملة فكان جمال العصر ومفخرة الأفق)

ويقول ابن فرحون في الديباج منوها بمشاركته في شتى العلوم : (كان القاضي أبو الفضل إمام وقته في الحديث وعلومه. عالما بالتفسير وجميع علومه فقيها أصوليا. عالما بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. بصيرا بالأحكام عاقدا للشروط حافظا لمذهب مالك شاعرا مجيدا ريان من الأدب خطيبا بليغا)

وهو كلام أصله لابنه في التعريف بأبيه ولكنه مما تناقله أكثر الذين كتبوا عن عياض تسليما له وإقرارا بالحق فيه. وقد سقطت منه بعض الكلمات مما يتعلق بعمله وخلقه. ونحن ننقله بتمامه بعد أن رأينا اتفاق مترجميه عليه. فالولد كان أعرف بأبيه من غيره. وهو كان أيضا من أهل العلم وتولى القضاء كأبيه. فشهادته لها وزنها وتقديرها.

يقول رحمه الله : (نشأ أبي على عفة وصيانة مرضي الحال. محمود الأقوال والأفعال موصوفا بالنبل والفهم والحذق. طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه معظما عند الأشياخ من أهل العلم كثير المجالسة لهم والإختلاف إليهم إلى أن برع أهل زمانه. وساد جملة أقرانه فكان من حفاظ كتاب الله تعالى مع القراءة الحسنة. والنغمة العذبة والصوت الجهير والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه وكان من أئمة الحديث في وقته أصوليا متكلما. فقيها حافظا للمسائل عاقدا للشروط بصيرا بالأحكام. نحويا. ريان من الأدب. شاعرا مجيدا كاتبا بليغا. خطيبا. حافظا للغة والأخبار والتواريخ حسن المجلس نبيل النادرة حلو الدعابة صبورا حليما جميل

العشرة جوادا سمحا. كثير الصدقة دؤوبا على العمل صليبا في الحق وبلغ في التفنن في العلوم ما هو مشهور وفي العالم معلوم».

ولما ترجمه ابن بشكوال في كتاب الصلة قال : «قدم الأندلس طالبا للعلم. ثم قال: وقدم علينا قرطبة في ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة وأخذنا عنه بعض ما عنده...» وكلمته الثانية تصحح كلمته الاولى فإنه كما قدمنا لم يرحل إلى الأندلس حتى امتلأ من العلم وأشبع نهمته منه ولم يكن قصده إلا لقاء الشيوخ والاتساع في الرواية والا لما أخذ ابن بشكوال عنه في رحلته هذه وهي رحلته الوحيدة ليس له غيرها إلى أن قدم إليها قاضيا فيما بعد ذلك على ما يأتي :

وعلى كل فإن مكانته العلمية التي توطدت بدراسته الجامعة على مشيخة بلده ومن مر بها من غيرهم، قد زادت تمكنا برحلته الأندلسية ومن لقي بها من الأعلام. كما تدل عليه شهادات من ذكرنا وغيرهم مما يطول تتبعه.

أما مكانته الإجتماعية فقد كانت متوطدة بأبوته الكريمة أن جده عمرون الذي استقر بسبتة كان من أهل الفضل والدين حج مرارا وغزا كثيرا وبنى مسجدا وأوقف عليه بعض الدور كما أوقف أرضا لدفن الموتى. ولاشك أن هذه الأعمال قد أكسبت ولده نباهة وذكرا حسنا. ثم زاد ذلك بظهور حفيده وارتفاع درجته في العلم وولايته للقضاء وسيرته الحميدة فيه والمشاريع العمرانية التي قام بها من الزيادة في المسجد وبناء الرابطة وغير ذلك على ما ألمع اليه ابنه في النبذة التي نقلناها عنه. وهي مما أكده غيره من المترجمين له. الشيء الذي جعله الشخصية المرموقة إن لم نقل الشخصية الأولى في البلد.

وعظم شأن عياض فدعي إلى تولي القضاء بغرناطة فكسر العادة التي كانت تجعل القضاة يأتون من الأندلس إلى المغرب ولنستمع إلى أحد علماء غرناطة وهو أبو زيد عبد الرحمن ابن القصير يصف دخول عياض إلى هذه المدينة فيقول : «لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه وبرزوا تبريزا ما رأيت لأمير مؤمر مثله. وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا نيفا على مئتي راكب ومن سواد العامة مالا يحصى كثرة. وخرجت مع أبي - رحمه الله تعالى -

في جملة من خرج فلقينا شخصا بادي السيادة منبئا عن اكتساب المعالي والإفادة».

وكانت ولايته لقضاء غرناطة في أيام تاشفين بن علي اللمتوني المرابطي أول يوم من صفر سنة 531 هـ قال ولده في كتاب التعريف : «فنهض إليها وتقلد خطة قضائها، على المعتاد من شيمه السنية وأخلاقه المرضية، مشكورا عند جميع الناس، لكن تاشفين ضاق به ذرعه وغص بمراقبته، وصد أصحابه عن الباطل، وخدمته عن الظلم، فصرفه عنها في رمضان سنة 532 هـ يعني أن ولايته لم تدم إلا سنة وبضعة أشهر، وذلك لما أخذ نفسه به من الجد والإستقامة والضرب على أيدي أهل العبث والفساد وتقدم عن ولده في ولايته لقضاء سبتة أنه أحسن السيرة وأقام الحدود، وهنا يحضرنا ما روي عنه أنه أقام حد الشرب على الكاتب الشهير الفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح فإنه دخل عليه وهو سكران، فأمر باستنكاهه فوجدت منه رائحة الخمر فنفذ فيه الحد، ولما خرج أتبعه بصلة، وذلك منتهى التشرع والمجاملة للأديب الأندلسي اللامع، في آن واحد.

ويقال : إن هذا عزم على حذفه من كتابه القلائد، فقيل له : إن ذلك أدعى لاشتهار هذه القضية، وتساؤل الناس عن عدم ذكره للقاضي عياض وهو من هو علما وأدبا وجاها، فعدل عن ذلك.

والقصة لعمري مما يذكر في مغربات الأخبار، وهي تدل على أن ما وصفه به ولده في كتاب التعريف، دون ما كان عليه من الصرامة في الحق والقيـــام بواجب الخطة، لأن من فعل هذا مع شخصية معروفة لها وزنها وقيمتها في الأوساط الأدبية والفكرية، أحرى أن يكون مع غيرها بالوصف الذي ذكره به، ولذلك فإن تأخيره عن قضاء غرناطة من قبل تاشفين بن علي هو كما قال ولده لشدته على أهل الظلم والباطل من رجاله وأتباعه بدون شك ولا ريب.

وهنا يحسن أن نورد ما كتبه عنه الفتح ابن خاقان في القلائد، وهي فذلكة جمعت ما وصف به من أصالة ورسوخ وتفنن في عبارات معجبة، وفقر مطربة، هذا نصها : الفقيه الحافظ القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض - رحمه الله

تعالى - جاء على قدر، وسبق إلى نيل المعالى وابتدر، واستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم صيام، وتلافي المعارف ما شكل وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل، فتحلت به للعلوم نحور، وتجلت له منها حور، كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن إنس قبله (2) ولا جان، قد ألحفته الأصالة رداءها وسقته أنداءها وألقت إليه الرياسة أقاليدها، وملكته طريفها وتليدها، فبذ على فتائه الكهول سكونا وحلما وسبقهم معرفة وعلما، وأزرت محاسنه بالبدر اللياح، وسرت فضائله سرى الرياح، فتشوفت لعلاه الأقطار، ووكفت تحكي نداه الأمطار، وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يعنى بإقامة أود الأدب، وينسل إلى أربابه من كل حدب، إلى سكون ووقار كما رسا الطود، وجمال مجلس كما جليت (3) الخود، وعفاف وصون ما علمنا (4) فسادا بعد الكون، وبهاء لو رأته الشمس ما باهت بأضواء وخفر، ولو بان للصبح ما لاح ولا أسفر..) واستقر عياض بعد ذلك ببلده معززا مكرما، يخدم العلم بالدرس والتأليف وكان حسن الإلقاء للمسائل كثير التحرير للنقول، وقد انتفع به من العلماء من لا يحصى كأبي زيد ابن القصير المتقدم الذكر، وأبي جعفر بن مضا وابن بشكوال على ما سبق عنه وابن غازى السبتى وأبي جعفر بن حكم، ومن طريقهما نروي كتبه وغيرهم، وكان كثير الاعتناء بالتقييد، بارع الخط، يقول ابن خاتمة في كتاب المزية على ما أزهار الرياض :

وقفت على خطه - رحمه الله - فرأيته خطا رائقا، وكان سريع الوضع (5) ويدل على ذلك كثرة أوضاعه وكتب من ذلك كتبا كثيرة بيده.

وكانت هذه حاله إلى أن ولي قضاء سبتة ثانية في عام 539هـ، قدمه ابراهيم بن تاشفين بن علي، فابتهج أهل بلده بذلك، ثم بادر بالدخول في أمر

2) في الأصل : قبلهم على لفظ الآية والمناسب هنا افراد الضمير.
3) في الأصل : حليت بالحاء ونظن صوابها جليت بالجيم.
4) في الأصل : علمنا والصواب ما أثبتناه.
5) دام الوضع أي التأليف، والأوضاع : التأليف.

الموحدين إثر ظهورهم فأقره عبد المومن على ما كان عليه، وصرف أمور بلده إليه، وخاطبه بالتنويه وحظي عنده، واجتمع به بمدينة سلا عند توجهه إلى محاصرة مراكش، فلقي منه برا وإقبالا تامين، إلى أن اضطربت أمور الموحدين عام 543هـ فالتاثت حاله معهم بثورة أهل بلده عليهم، فنقلوه إلى مراكش حيث توفي في جمادى الاخيرة وقيل في رمضان سنة 544هـ.

وقيل : إنهم ولوه قضاء بلدة (داي) بتادلا وهي بلد الصومعة، ويروى له شعر مما قاله فيها يشكو الغربة ويتشوق إلى بلده سبتة.

وكثرت الشائعات حول موته، فقيل:إن المهدي ابن تومرت أمر بقتله، وقيل : إنه مات فجأة في الحمام بدعاء الغزالي عليه لأنه ممن أفتى بحرق كتاب (الإحياء)، وقيل : إنه مات مسموما سمه يهودي ولا صحة لذلك كله.

والثابت أنه مات ميتة طبيعية بعد مرض قصير مغربا عن بلده بسبب تورطه في الثورة على الموحدين، وأن هؤلاء عاملوه معاملة خاصة نظرا لعلمه وفضله، وأنه دفن بمراكش بباب (ايلان) داخل المدينة حيث يوجد قبره الآن رحمه الله ورضي عنه :

ه ه ه

ألف القاضي عياض عدة كتب كلها جليلة ومفيدة، وبعضها لا نظير لها ولم يسبق بمثله، ومنها كتاب الشفا، في التعريف بحقوق المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وهو الذى طار به صيته في العالم الإسلامي وتلقته الأمة بالقبول، وأصبح أحد الكتب التي تحظى بالتقديس من لدن أهل المعرفة وعوام المومنين، يقول ابن فرحون في حقه، : (أبدع فيه كل الإبداع وسلم له أكفاؤه كفاءته فيه ولم ينازعه أحد في الإنفراد به ولا أنكروا مزيته في السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه وأنصفوا في الإستفادة منه وحمله الناس وطارت نسخه شرقا وغربا.

وقد مدح بشعر ونثر كثير. وطعن الحافظ الذهبي فيه بكونه محشوا بالأحاديث الموضوعة والتأويلات الواهية لم يسلم له. فما فيه من الموضوع قليل جدا وكذلك ما فيه من الضعيف.

ومن المقرر أن الحديث الضعيف يعمل به في الفضائل. والحق أن بناء كتاب الشفا على آيات الذكر الحكيم وصحيح الأخبار وأقوال العلماء، والنقول الثابتة عن أئمة التفسير، ورواة السيرة. وما تخلله من الضعيف وما قيل فيه أنه موضوع إنما يأتى به بعد ذلك للاستيناس والإعتبار. وقد خرج أحاديثه الحافظ السيوطي في كتابه مناهل الصفا. وبين ما فيها فلينظر. وما أحسن ما قيل في هذا المعنى من قصيدة للشيخ أبي محمد عبد النور العمراني. مدح بها الشفا ومؤلفها.

شفا بالشفا ما في النفوس فلم يدع ... مقالا لذي قول بجهر ولا سر
فقسم اقساما وبوبها معا ... وفصلها مقبولة العلم والذكر
وقدم آيات الكتاب التي بها ... سما قدره فوق السماكين والنسر
وثنى بأخبار صحاح شهيرة ... كما أتبعت شمس السموات بالبدر
وكم غاص في بحر المعارف ينتقي ... من الدر ما قد غاب في غامض البحر
فجود منها كل قاص وشارد ... وماضله الحفاظ في سالف الدهر
وكل غريب النقل صحت طريقه ... وكل طريق المتن عار عن النكر
وألحق منها كل نوع بجنسه ... ورتبها مثل الجمان على النحر
وأجرى علوما بين ذلك جليلة ... فياحسن ما يروي ويا حسن ما يجري

وقد كتبت على الشفا شروح كثيرة يطول تتبعها. وذلك مما يزيد دلالة على أهميته والاشتغال به من علماء جميع العصور التي تلت عصر مؤلفه.

ومن كتبه الحفيلة القيمة كتاب (مشارق الأنوار على صحاح الآثار) فسر فيه غريب حديث الموطأ والبخارى ومسلم وضبط الألفاظ وأسماء الرجال ونبه على مواقع الأوهام والتصحيفات. قال فيه ابن فرحون : (وهو كتاب لو كتب بالذهب أو وزن بالجوهر لكان قليلا في حقه). وفيه أنشد بعضهم :

مشارق أنوار تبدت بسبتـــة ومن عجب كون المشارق بالمغـــرب

وهذا البيت مما كان ينشده أبو عمرو بن الصلاح. قال ابن الأبار: أخبرني بذلك من أصحابنا من سمعه. وكان بعض العلماء يقول عنه :

(لا أحتاج في كتب الحديث الا للمشارق فإذا كان عندي فلا أبالي بما فقدت منها) وهو يعني ولا شك شروح الحديث فإن المشارق يقوم مقام الكثير منها بما فسر من ألفاظ الحديث الواقع في الأصول الثلاثة المذكورة وبين من معانيها وما ضبط من أسماء الرواة ونبه على مشتبهها وما أصلح من الأوهام والأغلاط التي وقعت في أسانيد تلك الكتب أو متونها إلى غير ذلك مما إذا حققه القارىء المعني بكتب الحديث وروايته والنظر فيه، وهو من أهل العلم والفقه فإنه يستغني بالمشارق عن الرجوع إلى الشروح والتعاليق التي كتبت على أمهات كتب السنة وأصولها مما هو موضوع المشارق وغيره، لأن غالب أحاديث الصحاح الثلاثة مذكورة في غيرها برواياتها فعليها المدار. ولذلك كثر النقل عن عياض في كتابات أئمة الحديث وشيوخ السنن كما قال الشيخ محمد الأمين الصحراوى في كتابه المجد الطارف والتالد : (وانظر إلى عياض فلا ترى تأليفا معتبرا من تواليف أهل الحديث ولا أصحاب السيرة والفقهاء إلا وجدته مشحونا بكلامه مع أنه لم يرتحل إلى المشرق) يعني والنقل عنه والإعتماد عليه مما يتساوى فيه أهل المغرب والمشرق بل في المشرق أكثر. وبالجملة فإن قيمة كتاب المشارق لا تعرف إلا بالوقوف عليه وممارسته وقراءة مقدمته.

ومن كتبه الحديثية المهمة كتابه (إكمال المعلم)، أكمل به شرح شيخه المازري المسمى بالمعلم بفوائد صحيح مسلم. ذكر في أوله أن طلبته رغبوا إليه في كتابة شرح عليه يبين مشكله ويقيد مهمله لأنه لم يؤلف في شرحه الا ما ذكره شيخه أبو علي الجياني في تقييد المهمل من الكلام على مشكل أسانيده مع مشكل أسانيد البخاري والا كتاب المازري... قال: لكن الإحاطة على البشر ممتنعة ومسارح الأذهان والألباب للبحث متسعة، وكثيرا ما وقفنا في الكتاب المذكور

على أحاديث مشكلة لم يقع لها هناك تفسير وفصول محتملة تحتاج معانيها إلى تحقيق وتقدير.. ثم قال؛ إنه رأى أن تأليف كتاب جامع لشرحه لا معنى له، مع ما تقرر في (المعلم) من فوائد جمة لا تضاهى فيأتي الكلام في ذلك ثانية كالحديث المعاد، ولذلك قر رأيه أن يكون شرحه ذيلا لشرح شيخه، يبدأ بما قاله ثم يضيف إليه ما زاده عليه، ومن ثم سماه (إكمال المعلم) اعترافا فضل السبق للإمام المازري وهذا الكتاب هو أيضا مما أفضل به على علماء الحديث ونشر له ذكرا عاطرا بينهم، وقد أتم به ما برأه في الكتاب قبله بخصوص صحيح مسلم كما ألمع لذلك في مقدمة المشارق.

ومنها كتاب (الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع)، وهو في علوم الحديث فريد في بابه، جمع ما في كتب الفن قبله، وأضاف إليه نكتا غريبة من مقدمات علم الأثر وأصوله وفصولا هامة في أقسام الرواية والتحمل، مع مزيد من الضبط والإتقان، والتحري في السماع والأداء وفيه يقول الدكتور أسد رستم: «على الرغم من مرور سبعة قرون عليه، فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوربا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منه، وأن ما جاء فيه من مظاهر الدقة في التفكير والإستنتاج في باب تحري الرواية والمجيء باللفظ، يضاهي أدق ما ورد في الموضوع نفسه في أهم كتب الافرنج في ألمانيا وفرنسا وأمريكا وانكلترا».

ومن كتبه في الفقه على مذهب الإمام مالك كتاب (التنبيهات المستنبطة على المدونة والمختلطة)، حلل فيه ألفاظ المدونة وضبط مشكلاتها وحرر رواياتها وسمى رواتها، فصار عليه المعول في شرحها لأنه جمع بين طريقة أهل العراق الذين يجعلون مسائل المدونة كالأساس ويبنون عليها تفريعات المذهب من غير نظر في تصحيح الروايات ومناقشة الألفاظ، وطريقة أهل القيروان الذين يبحثون الألفاظ، ويحققون الروايات وذلك لقوة عارضته وسعة إطلاعه، فوضع بذلك منهجا جديدا للفقهاء والباحثين في أصول المذهب ممن أتى بعده.

ومن كتبه العظيمة الفائدة في الطبقات، والتراجم كتاب (ترتيب المدارك، وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك)، المشهور باسم (المدارك)، وهو كتاب

سد به فراغا عظيما في هذا الباب ولم يقم قبله ولا بعده من فرى فريه فيه، وإنما حسب كتاب التراجم والطبقات أن ينقلوا عنه ويلخصوه ويذيلوا عليه، ومع ذلك فإنهم لم يحاكوه أو يقاربوه، فأحرى أن يأتوا بمثل نفسه، العالي، وقد كان قدوة لغيره من أتباع المذاهب الأخرى فألفوا في طبقات علماء مذهبهم كتبا تختلف باختلاف مداركهم ومشاربهم.

وقد استهله بمقدمة ضافية في ترجيح مذهب مالك وبيان القواعد التي بني عليها والمقارنة بينه وبين المذاهب الأخرى، ثم أتبع ذلك بترجمة واسعة للإمام مالك لم يترك فيها شاذة ولا فادة مما يتعلق بحياته الشخصية والعلمية إلا أتى بها، وبعدها شرع في ذكر تراجم علماء المذهب مرتبا لهم على الطبقات، فأتى بالعجب العجاب في ذلك لاسيما في تراجم الكبار منهم والمشهورين سالكا في ذلك المنهج العلمي النقدى مطبقا قواعد النظر المتبعة عند أئمة الحديث في الرواية والرواة، مما بينه في كتابه (الإعلام) السابق الذكر، توثيقا وتوهينا، وبيان وهم وتصحيح خطأ وما إلى ذلك.

يقول في ترجمة ابراهيم بن حماد : «وزعم ابن كامل أنه كان يتهم بالنصب وأن القاضي أبا الحسين كان يحقق عليه ذلك وأنه خرج حديث مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم، لعلي من كتاب عمه اسماعيل وابن كامل كثير الحمل على آل حماد بن زيد متتبع لعثراتهم إلخ..

ويقول في الإمام الأشعري : وقد روي في أمره حديث لا أعلم له أصلا ولا رويته فلا أذكره ومن رأى أنه كان ابتداء أمره معتزليا ثم رجع إلى هذا المذهب فهذا لا ينقصه فقد كان من هو أفضل منه أولا كافرا ثم أسلم، بل هذا أدل على ثبات قدمه وصحة يقينه في التزام السنة، إذ لم يلتزمها لأنه نشأ عليها ولا اعتقدها تقليدا إلا بما نور الله قلبه وأيده بروحه.

ويقول في محمد بن يحي بن لبابة ابن أخي ابن لبابة الكبير، قال بعضهم : ولم يكن له علم بالحديث وكان ينحرف عنه، قال عياض : أما قلة علمه بالحديث فظاهرة وأما انحرافه عنه فلا، بل يميل إليه في تواليفه، وإذا اعتمد على

نظره في مسألة أو ضعف فيها قول المدنيين، كثيرا ما يقول : إلا أن يأتي بذلك أثر صحيح.

ويقول في ترجمة البرادعي وذكر كتابه التهذيب : على أن أبا محمد عبد الحق ألف عليه جزءا فيما وهم فيه على المدونة. وأنا أقول: إن البرادعي بنجوة عن انتقاد عبد الحق. فإن جميع ما انتقد عليه لفظ أبي محمد رحمه الله (يعني ابن أبي زيد).

ويقول في ترجمة عبد الله بن مسرور : أشهد أنه رجع في إجازته لقوم ساءت حالهم. قال عياض : مثل هذا لا يضر الرواية. وقد فعله بعض من لقيناه ببعض من سخطه من أصحابه. ولعله لم يخف عليهم أن الرجوع فيها لا يصح لكنه كالردع.

ويقول في ترجمة ابن غافق. وزعم الشيرازي أنه تفقه بعلي بن زياد وهذا وهم. لأن ابن غافق ولد بعد موت علي بن زياد بأزيد من عشرين سنة.

هذه أمثلة قليلة من طريقة عياض في كتابة التراجم وتحريره لها ونقده لما تتضمنه من خطأ أو وهم بسبب تساهل الرواة أو غفلتهم أو غير ذلك من الأسباب ومنها يعلم أن الكتاب عظيم القيمة والنفع جليل الفائدة والقدر.

ومن كتبه في التراجم أيضا كتاب (الغنية)، وهو فهرسة أشياخه وما أخذ عنهم بقراءة أو إجازة مع ذكر أسانيدهم إن كانت لهم رواية وقد بلغ بهم عدد المئة وقال : إنه ترك جماعة ممن لقيهم وذاكرهم وحضر مجالسهم من الفقهاء والرواة ولكنه لم يحمل عنهم من الكتب والحديث شيئا.

وباقي كتبه هي : (بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد)، و(معجم شيوخ أبى علي الصدفي)، و(الإعلام بحدود قواعد الإسلام) و(سر السراة في أدب القضاة) و(نظم البرهان في جزم الأذان)، و(الفنون الستة في تاريخ سبتة)، لم يكمل و(غنية الكاتب) و(بغية الطالب في الصدور والترسيل) و(مجموعة خطب وأجوبة) عن المسائل التي رفعت اليه. وتاريخ يشير إليه كثيرا في كتاب المدارك وذكره بعض مترجميه بجامع التاريخ وغير ذلك. من مشروعات كتب لم تكمل.

وقد طبع من هذه الكتب كتاب (الشفا) طبعات لا تعد وكتاب (المشارق) وكتاب (المدارك) وكتاب (الإلماع) وكتاب (قواعد الإسلام) وباقيها بعضه يوجد مخطوطا وبعضه الآخر يعد في حكم المفقود وله - رحمه الله - قلم سيال في النثر الفني والمرسل، وشعر بديع، وبهذه الصفة الأدبية ترجم له الفتح في القلائد وقال : وقد أثبت من كلامه البديع الألفاظ والأغراض، وما هو أسحر من العيون النجل والجفون المراض. فمن ذلك رقعة حملنيها للرئيس أبي عبد الرحمن بن طاهر رحمه الله وهي :

(عمادي أبا نصر مثنى الوزارة ووحيد العصر هل له في منة تفوت الحصر تخف محملا وتبلغ أملا وتشكر قولا وعملا تترنم بها الحداة حميلا ورملا إذا بلغت الحضرة العلمية مستلما ولقيت الطاهر ابن طاهر فخر الوزارة مسلما وحللت من فنائه الأرحب حرما ولمست بمصافحته ركن المجد يندى كرما فقف شوقي بعرفات تلك المعارف وأنسك شكري بمشاعر تلك العوارف وأطلق إكباري بكتبة ذلك الجلال سبعا وبوى لودي في عز ذلك الكمال ربعا وأبلغ عني تلك الفضائل سلاما يلتثم بصريح الحب التثاما وبحسن عنى بظهر الغيب مقاما ويسير عني بارج الحمد انجادا أو اتهاما.

وهي كما ترى قطعة بليغة لا تقل عن نثر أبلغ الكتاب من أرباب الصناعة والملتزمين بهذا الفن الرفيع، أما نثره المرسل ففي كتبه نماذج منه ولا سيما في كتاب الشفا تشهد بتصرفه وطول نفسه.

وأما شعره فمن أرقه نسجا وأشفه عن نفسه تعبيرا قوله يودع قرطبة :

أقول وقد جد ارتحالي وغـــردت	حداتي وزمت للفراق ركائبـــي
وقد غصت من كثرة الدمع مقلتـــي	وصارت هواء من فؤادي ترائبـــي
ولم تبق إلا وقفة يستحثهـــــا	وداعي للأحباب لا للحبائـــب
رعى الله جيرانا بقرطبة العـــلا	وسقى رباها بالعهاد السواكـــب
وحيا زمانا بينهم قد ألفتـــه	طليق المحيا مستلان الجوانـــب

أإخواننا بالله فيها تذكـــروا معاهد جار أو مودة صاحـــب
غدوت بهم من برهم واحتفائهـم كأني في أهلي وبين أقاربـــي

ومنه يتشوق إلى بلده ويشكو الغربة وهو قاض بداى.

أقمرية الأدواح بالله طارحـــي أخـا شجـن بالنـوح أو بغنـــاء
فقد أرقتني من هديلك رنـــة تهيج من برحي ومن برحـــاء
لعلك مثلي يا حمام فإنـــي غريب بداى قد بليت بـــداء
فكم من فلاة بين داي وسبتـــة وخـــرق بعيـــد الخافقيـن قـــواء
لعل الذى كان التفرق حكمـــه سيجمع منا الشمل بعد تنـــاء

وله في خامات زرع بينها شقائق النعمان هبت عليها رياح :

انظر إلى الزرع وخاماتـــه تحكـى وقد ماست أمـام الريـــاح
كتيبة خضراء مهزومـــة شقائق النعمان فيها جـــراح

وله وقد جنسه جناسا كاملا لطيفا :

يـا من تحمـل عنـي غيـر مكتـرث لكنه للضنا والسقم أوصى بـــي
تركتني مستهام القلب ذا حـــرق أخا جوى وتباريح وأوصـــاب
أراقب النجم في جنح الدجـــى سهرا كأنني راصد للنجم أوصابـــي

القاضي عياض المصلح الاجتماعي

للدكتور : عبد الكبير المدغري

بسم الله الرحمن الرحيم

القاضي عياض المصلح الاجتماعي

الإصلاح الإجتماعي أمانة ومسؤولية عامة تتوزع على كافة المسلمين فيأخذ كل واحد حظا منها بحسب موقعه «ألا كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته فالأمير على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم». ثم يتحمل مسؤولية الإصلاح في المجتمع كله لأن إصلاحه لخليته وموقعه لا ينفع إذا بقي الفساد محيطا به فيكون بمثابة من يعالج مشلولا ويترك من معه في الغرفة من أمثاله. «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون.

«لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبيس ماكانوا يفعلون».

وتعظم هذه المسؤولية بقدر ما يعظم مركز الإنسان في مجتمعه.

ولذلك كان أعظم الناس مسؤولية في هذا الباب الأمراء والعلماء.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت وإذا فسدا فسدت، السلطان، والعلماء.

وعن الإمام مالك رضي الله عنه بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء والعالم مؤهل للقيام بمسؤولية الإصلاح الإجتماعي لأن له

الوسيلة وهي العلم. «وأن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم. إن ربك هو أعلم بالمعتدين».

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله. له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق».

والإصلاح إذا وكل للجهال آل إلى فساد عظيم.

وللعالم الطريقة إلى جانب الوسيلة «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن». وطريقته ومناهجه سنة الرسول عليه السلام في نشر الدعوة.

والعالم متمتع بثقة الأمة. مؤتمن على مصالحها تسمع نداءه فتدرك إخلاصه وصدقه.

وهو قدوة في سلوكه الخاص والعام يرسم لنفسه في عين الأمة وقلبها مثلا أعلى للإنسان الصالح المصلح وهو بعد هذا وذاك يعيش وسط الأمة غير منعزل في خلوة ولا حبيس في صومعة ولا مطل من برج يصابح أمته ويماسيها فيكون أقرب الناس إليها وأكثرهم شعورا بأحوالها. والإصلاح الذي يقوم به هذا العالم ليس وظيفة رسمية يتقاضى عليها راتبا ويكون له من أجلها مكتب وموظفون وانما هو عمل تلقائي يؤدي به العالم أمانة دينية ويقوم بواجب لا يبتغي به في الدنيا جزاء ولا شكورا بل يتجرد من كل الأغراض الدنيوية حتى السمعة والشهرة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين).

وعن الإمام علي كرم الله وجهه / إنما العالم من عمل بما علم فوافق عمله علمه وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم. يخالف عملهم وتخالف أقوالهم علانيتهم. يجلسون حلقا فيباهي بعضهم بعضا حتى أن الرجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره. أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل.

والعالم الحق هو الوارث الشرعي للرسل والأنبياء وهو في أمته كالنجم وواحد منه في الأمة أشد على الشيطان من ألف عابد.

فإذا انحرف أو خان أمته وتخلى عن مسؤوليته فأصبح ينافق ويتملق ويداري ويتسامح في الدين رغبة في المنصب أو الراتب أو كل ما هو من باب بيع الدين بالدنيا كان خطره في الأمة أفدح من سم الأساود والداء العياء لأنها تفسد بفساده كما جاء في الحديث الشريف.

وأن المكانة الاجتماعية التي يتمتع بها العالم في أمته تضاعف مسؤوليته لأنه في موضع القدوة وأي انحراف مهما كان بسيطا لا يجوز في حقه وكل ما يتساهل فيه لغيره لا يتساهل فيه في حقه لذلك تضاعفت مسؤوليته ثوابا وعقابا ابتداء من النبي صلى الله عليه وسلم «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا».

وفي تاريخ الطبري أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال / «إني نهيت الناس عن كذا وكذا وأن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم فأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة» وهذا الدور الإجتماعي الكبير الذي أنيط العالم.

وهذه المكانة الإجتماعية التي يتمتع بها.

وهذه المسؤولية المضاعفة التي تقع على كاهله.

كل ذلك يدعونا إلى البحث في سير العلماء لاستجلاء هذه الجوانب وبيان سنتهم وطريقتهم في الإصلاح الإجتماعي عسى أن تكون ذكرى وعبرة لمن يتذكر أو يخشى.

وفي هذه الندوة المباركة التي نعقدها اليوم بثاني حرمي العلم مراكش لدراسة سيرة القاضي عياض وشخصيته أحاول التذكير بهذا الجانب المهم من جوانب شخصيته فأتحدث عنه مصلحا اجتماعيا قدوة.

ذلك ما أرجو أن يكون فيه قليل من إضافة تضيء هذا الجانب غير الملتفت إليه من حياة عياض وشخصيته.

ولا أعني بالإضافة اني آت بما لم يقله أحد من قبل فمثل هذه البحوث التاريخية لا يضيف فيها الباحث شيئا غير مسبوق وإنما أرجو أن أجمع شتاتا مبعثرا من مواقفه الإصلاحية.

فأتحدث أولا عن عياض الذي كان العلم همه الأكبر.

وهذا في حد ذاته إصلاح عن طريق ضرب المثل ورسم القدوة الصالحة. لأن أفراد المجتمع لو نشأوا على حب العلم وطلبه والإخلاص له وجعلوه أكبر همهم ومنتهى آمالهم لصلحت أحوالهم.

قال ولده في التعريف به «نشأ... طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه. معظما عند الأشياخ من أهل العلم كثير المجالسة لهم والاختلاف إلى مجالسهم إلى أن برع في زمانه وساد جملة أقرانه. وبلغ من التفنن في فنون العلم ما هو معلوم.

«محبا في طلبة العلم محرضا لهم على طلبه. مسهلا لهم الطرائق مبادرا لقضاء الحوائج». كثير المطالعة. لا يفارق كتبه. كثير البحث على العلم. توفي وهو طالب له «توفي أبوه وترك نعمة نحو السبعة عشر ألف دينار فلم يلتفت إلى شيء من ذلك. حرصا على العلم. واشتغالا بطلبه وأبقى جميع ذلك بيد أخيه. وصار في عياله يمونه كما كان يفعل به والده إلى أن مات.

وأقف عند قوله محرضا لهم على طلبه. مسهلا لهم الطرائف مبادرا لقضاء الحوائج لأرى فيها مزية من أعظم المزايا التي ينبغي توفرها في العالم المصلح لأنه لا يكتفي بتحريض الناس على طلب العلم بل يساعدهم عمليا وبجميع الوسائل المادية والمعنوية المتوفرة لديه للتغلب على الصعوبات التي تواجههم في ذلك السبيل.

واقف أيضا عند قوله (توفي وهو طالب له) لأرى فيها مثلا وقدوة يرسمها القاضي عياض لمعاصريه ومن بعدهم حتى لا ينشأ فيهم ذلك النوع من العلماء الذين يأخدون من العلم نتفا في أيام الطلب حتى إذا تبوأوا المناصب وتقلدوا من الوظائف ما يدر عليهم الرواتب طرحوا الكتب جانبا وانقطعت صلتهم بها كما هو الشأن بالنسبة لكثير من علمائنا.

فالقاضي عياض توفي وهو طالب للعلم.

ونظرة واسعة على أنواع العلوم التي حصلها وأصناف الفنون التي جمعها وعدد الشيوخ الذين لقيهم أو رحل إليهم وعدد ما كتب وصنف تعطي الدليل على أن العلم كان شغله الشاغل منذ نشأته الأولى إلى مماته رحمه الله وأنه أدى رسالة المصلح الإجتماعي الكبير والمربي المعلم أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال إنما بعثت معلما. وأنقل طرفي لأرى عياضا إنسانا في المجتمع فأجده «نشأ على عفة وصيانة مرضي الخلال محمود الأقوال والأفعال... لين الجانب، صبورا حليما موطا الأكناف جميل العشرة حسن الأخلاق منصفا من نفسه كثير الصدقة والمواساة أنفق في ذلك أكثر ما ورثه عن أبيه وباع فيه رباعه بسبتة وأملاكه ومات مدينا بخمسمائة دينار».

«بنى الزيادة الغربية في جامع سبتة» وبنى رابطة بجبل المينا والعالم كثيرا ما يكتفي بالإنفاق من علمه ويشعر بأنه قد قام بكل ما يجب عليه إذا هو حرض الناس على الإنفاق من أموالهم وبين لهم ثواب ذلك وأثره في المجتمع أما أن ينفق هو من ماله ليعطي المثل ويحمل الناس على الاقتداء به في ذلك فهذا لا نراه إلا عند قلة قليلة من العلماء المصلحين.

إن بوسعنا أن نعلم مبلغ تشبع الإنسان بالخير وإيمانه بالصالح العام عندما نعلم موقفه من المال فإذا كان شديد الحرص عليه وعلى جمعه ومنعه عمن هو في حاجة إليه كان من الخير أبعد وفي الصالح العام أزهد ولا نصدقه إذا رأيناه يدعونا للبذل والسخاء لأنه لا يؤمن بما يدعو إليه ولذلك قال تعالى «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» وأكثر سبحانه من ذكر الإنفاق وأوعد من يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وبين ما في المال من حق للسائل والمحروم وضرب الأمثلة وأورد القصص كقصة أصحاب الجنة ليبين للناس مغبة البخل.

وعياض عالم بلدته سبتة ومعلمها كيف يعلمها ذلك ولا يعمل به.

لذلك وجدناه ينفق كل أمواله في وجوه البر ويموت رحمه الله وهو مدين بخمسمائة دينار. وأعود إلى عياض القاضي وهو لقبه الذي عرف به. والقضاء مسؤولية عن أعراض الناس وأموالهم وحقوقهم ومن العلماء من امتنع من تولي خطته كشيخه أبي علي الصدفي إشفاقا من التبعة. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول إنما أنا بشر وأنكم لتختصمون إلي وأن أحدكم ليكون ألحن بحجته من الآخر فأقضي له فمن قضيت له بشيء من مال أخيه فإنما اقتطع له قطعة من النار «أو كما قال (ص) بذلك كانت المسؤولية عظيمة وهذا التكليف يؤول إلى أن يكون فرض عين حين لا يوجد من يصلح له مثله لدرجة أنه أبيح سجن القاضي إذا امتنع. وتاريخنا عامر بمن هربوا واختفوا إشفاقا من هذه المسؤلية.

وتحملها عياض فكان موقعا عن الله تعالى في غرناطة وفي سبتة.

والمسألة لا تقتصر على الشجاعة والحكم بالحق والعدل فهذه كلها يشاركه فيها قضاة الإسلام ولكن تبدو مزية عياض في المساواة بين الناس فيستوي عنده الصديق بغيره ويستطيع أن يفصل بين العدل والصداقة.

جاء في التعريف به لولده « ومن نوادر أخباره التي اضطره الشرع إليها إقامته حد الخمر على الفتح بن خاقان وذلك أنه قصد إلى مجلس قضائه مخمرا فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر فأعلم القاضي بذلك. فأمر به. فاستثبت في استنكاهه وحده حدا تاما. وأخبرني بعض أصحابنا قال لي : بعث أبوك إلى الفتح بن خاقان بعد أن أقام عليه الحد صحبتي ثمانية دنانير. وعمامة».

فعلاقته بالناس لا تدخل في القضاء مصداقا لقوله تعالى «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين».

وتأسيا يقول عمر بن الخطاب في رسالته إلى عبد الله بن قيس «اس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك»وهذا باب من أبواب الإصلاح لأن العدل أساس كيان الأمة وإذا نشبت فيه المحسوبية والمحاباة والميز دب الفساد في الخلق فلا يستقيم أمرهم بحال.

ثم أن القاضي عياض طالت مدته في القضاء ومع ذلك مات وهو مدين بخمسمائة دينار وصدق فيه قول الشافعي رحمه الله «من ولي القضاء فلم يفتقر فهو سارق».

يضاف إلى ذلك ما تردد على لسان كل من ترجم له أنه أقام الحدود وكان صلبا في الحق لاتأخذه في الله لومة لائم.

فهذه الصلابة في الحق والأمانة في تحمل المسؤولية والإستقامة في ممارسة المهنة وعدم الخضوع للمغريات المادية والضغوط المختلفة وعدم الاستسلام للمجاملات وحيثيات الأفراد أسلوب من أساليب الإصلاح الإجتماعي في إطار مهنة من ألصق المهن بالمجتمع.

ونتابع خطوات عياض في درب الإصلاح الاجتماعي. وينعطف بنا الدرب الطويل إلى مزالق السياسة وشراكها فنشفق على عياض كل الإشفاق ونخشى أن تخونه شجاعته فيداري ويماري ويؤثر السلامة على المواجهة والجهر بالحق والثبات على المبدأ لا سيما وأنه عاش فترة الإنتقال من دولة المرابطين إلى دولة الموحدين وهي فترة صعبة وحرجة جدا بالنسبة إليه فالقاضي عياض كانت له مكانته المرموقة بسبتة وهذه المكانة لم يكتسبها بجاه أو مركز أو منصب وإنما هيأتها له شخصيته الفذة. وحين يأخذ العالم مكانته في نفوس الناس وتقديرهم فالمجال رحب أمامه للعمل والناس ينقادون إليه بيسر وهذا من شأنه بطبيعة الحال أن يحمل الحكم على مراقبة نشاطه ورصد حركاته وسكناته تحسبا لكل ما يمكن أن يصدر عنه.

وفي ذلك الظرف الانتقالي الدقيق لا شك أن الموحدين كان يعنيهم أمر القاضي عياض تماما كما يعنيهم أمر مدينته سبتة.

وتقوم سبتة بثورتها وفيها عياض قاضيها ومعلمها وعالمها الأكبر. وتخيم غيوم المحنة على بيت عياض وتشير إليه أصابع الاتهام أول ما تشير. كانت محنة قاسية حاول ابنه في التعريف تعميم صورتها وتخفيف حدتها اتقاء لنقمة الموحدين لا

سيما وأنه ألف كتابه في عهدهم ولكن الحقيقة كانت تنطق من بين سطور كتابه أو لعله وهذا ظني به تعتمد الكتابة عنها بذلك الأسلوب لأنه لا يسعه غير ذلك.

وفيما يلي نص ما كتبه «واشتد الحصار بالبلد. فسعى في استعطاف الموحدين أدام الله أمرهم وتلطف في استلطافهم. والإعتذار عن الكائنة إلى أن عفوا عما كان وأخذوا بالصفح والغفران فملكوا البلد. ولقي رحمة الله عليه من زعيمهم في ذلك الحين يصلاتن بن المغز البر العام والتأنيس التام. ثم نهض إلى الحضرة العلية أدام الله حراستها في يوم الخامس والعشرين من جمادي الآخرة عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة صحبة الشيخ أبي يحيى ابن الجبر وتحت بره الى أن وصل ظاهر مكناسة وبه الشيخ المعظم أبو حفص عمر بن يحيى الهنتي. فلقي منه من البر ما استغربه كل من شاهده. واستبعده كل من سمعه. وأصحبه كتبا إلى الحضرة فوصلها والحال متغيرة عليه. فأقام بها تحت لقية. إلى أن اجتمع بسيدنا أمير المومنين دام نصره. وكان منه رحمة الله عليه من الكلام المنظوم والمنثور ما استعطفته حتى رق له وعفى عنه على أبر وجه وأجمله وأمره بلزوم مجلسه وأظهر تقريبه ومحبته. وكان يسأله فيستحسن جوابه. فأقام على تلك الحال. ومنزلته تزداد عنده كل يوم سموا ورفعة. إلى أن خرج أدام الله تأييده إلى غزوة دكالة وخرج صحبته فمرض بعد مسير مرحلة فإذن له في الرجوع. فرجع إلى الحضرة فأقام بها مريضا نحوا من ثمانية أيام. ثم مات عفا الله عنه ليلة الجمعة نصف الليل التاسعة من جمادي الآخرة من عام أربعة وأربعين وخمسمائة ودفن بها في باب إيلان.

والحقائق الثابتة في هذا النص هي وجود كائنة يعتذر عنها القاضي عياض وإزعاجه من سبتة إلى مراكش واضطراره الى السفر تحت بر الشيخ أبي يحيى بن الجبر ووصوله إلى مراكش والحال متغيرة عليه واستعطافه أمير الموحدين ثم إلزامه بالخروج معه إلى غزوة دكالة وحتى عندما مرض القاضي عياض لم يسمح له أمير المؤمنين بالرجوع إلى بلده سبتة وإنما أذن له فقط بالرجوع إلى مراكش مما يدل على أنه كان يخضع لنظام الإقامة الإجبارية.

فهل بعد هذه المحنة من محنة.

أما ما ورد في النص من بر عام وتأنيس تام واقامته عند أمير الموحدين على أبر وجه وأجمله وازدياد منزلته عنده وتقريبه إياه ومحبته فهي عملية تغطية كان الولد مضطرا إليها لا أقل ولا أكثر.

ولعلها خدعت بعض من كتبوا في هذا الموضوع فكان منهم من سارع إلى القول بأن كل ما نال القاضي بعد تلك المخاذلات أن يطلب إليه أمير الموحدين الرحيل لإفادة الناس بعلمه وفقهه في الجنوب بعد أن استمتع الناس به في الشمال).

الدكتور عبد الهادي التازي المناهل

فما هي أسباب هذه المحنة ؟

الكلام هنا موصول بموقف القاضي عياض في الحياة العامة كرجل علم يحمل الأمانة الكبرى وهي العلم والدين واكتفى في سرد الأحداث بتلخيص ما ذكر الشيخ محمد بن تاويت الطنجي في مقدمته للجزء الأول من ترتيب المدارك.

«كانت هناك مقررات سنية عقدية لا سبيل إلى التخلي عنها آمن بها أهل هذا المغرب وهي تقرر فيما تقرر أن لا عصمة لأحد من الناس غير الأنبياء.

أضف إلى قضية العصمة ما كانت تستلزمه من مظاهر التشيح. وهناك الموقف الحذر أو العدائي الذي اتفق عليه أعلام المغرب أو كادوا تجاه مباحث واتجاهات في كتاب أحياء العلوم للغزالي...

وحكى ابن العماد الحنبلي والشعراني أن عياضا كان يرى أن كتاب الأحياء يجب أن يحرق. وكان لعياض كذلك اعتقاده في العصمة التي وصف المهدي بها نفسه.

وجاء مهدي الموحدين فصدم أهل المغرب في أقدس ما لديهم وهي عقيدتهم السنية وسماهم مجسمين كافرين وقاتلهم قتال كفر وحصر التوحيد في أصحابه وأتباعه وأقام حركته على دعامتين.

عصمة الإمام. وهو كان الإمام.

وعلمه بالمغيبات...

إن عياضا لم يتنازل قط عن عقيدته السنية وما كان الظن به أن يفعل. وأن الموحدين لم يسامحوه قط ولذلك غربوه عن بلده. وهكذا اتضح أن موقف القاضي عياض لم يكن موقفا سياسيا بحال وإنما هو موقف ديني. فما جاء به الموحدون من العصمة وعلم الغيب لم يطمئن إليه قلب القاضي عياض ولا أرى أنه في صالح الأمة فلم يكتم هذا وإذا بسبتة كلها تلتفت حوله. ثم بعد أن صار الأمر للموحدين صار لهم حق الطاعة فسلم لهم ودخل في نظامهم لأنه لا يسعه غير ذلك وفي النفس ما فيها.

ومع ذلك نقرأ أن سبتة بعدما قامت على الموحدين وقيل فيما قيل أن قيامها كان بتحريض من القاضي. وأنا مع من قال أنه ليس تحريضا بالمعنى المفهوم وليس الأمر يتعلق بالوفاء للمرابطين ولكن المسألة تتعلق بالدين.

ولو أن المرابطين أخذوا بمثل تلك المبادىء لكان أول من خرج عليه. ولعل سبتة إذ عادت وثارت قد أحست بشيخها أنه وأن سلم للموحدين فليس ذلك هو الموقف الذي يرضيه.

ولعله لم يكتم في مجالسه ودروسه إنكاره لمقالتهم فلم يكف على هذا النهي فكانت الثورة الثانية. هذا هو التفسير الذي نطمئن إليه ومن قال بأن الأمر كان يتعلق بطموح القاضي الى أخذ نصيبه من الحكم في السلطة وأنه لم يتردد لتحقيق ذلك في الإلتفات ذات اليمين وذات الشمال أي في التمسك أحيانا ببيعة لسابقين والعودة أحيانا لبيعة اللاحقين بيد أن تقديرات القاضي ظلت تقديرات لفقهاء وليست تقديرات رجال السياسة. أقول من قال ذلك لا حجة له إلا الظن (ذكره الدكتور عبد الهادي التازي في مقاله المنشور بمجلة المناهل العدد الخاص بعياض تحت عنوان القاضي عياض بين العلم والسياسة وأظن أنه أورده على سبيل حكاية أقوال الآخرين لا على أنه رايه وفيه سخرية بالقاضي لا تخفى).

وعلى كل حال فحسبنا بخصوص هذه المسألة أن نصل إلى نتيجتين :

- أولهما أن موقف القاضي ليس موقفاً سياسيا وإنما هو موقف ديني.

- وثانيهما أن ثورة سبتة كانت أثرا لنفوذ وسلطان عالمها.

وبعد فهذه نبذة من سيرة القاضي عياض المصلح الاجتماعي تشهد بما كان له رحمه الله من فضل في هذا الباب.

واعتقد أن خلود عياض في ضمير الامة وتألقه في سماء تاريخها لا يرجع الى ما كتب وألف بقدر ما يرجع إلى شخصيته كعالم مصلح وقاض نزيه ومعلم مرب وانسان متمثل لا سمى معاني الإنسانية في حياته الخاصة والعامة.

ولا أنزه عياضا ولا أضعه فوق ضعف بشريته فهو بشر على كل حال يصيب ويخطىء ويرد عليه كل ما يرد على البشر من نقص وضعف ولكن حسبه أنه جاهد نفسه وقاوم ضعفه وأدرك رسالته وتمثل دوره ومهنته في المجتمع فحاول ما استطاع أن يؤدي الدور بأمانة وإخلاص ونجح في أكثر ما كان يريد من ذلك واستحق أن يكون إماما وقدوة. وصدق الله العظيم.

«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا».

القاضي عياض المجتهد والمقلد

الأستاذ : الجيلاني العبدة

بسم الله الرحمن الرحيم

القاضي عياض المجتهد والمقلد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

نحمده تعالى على أن جعل لنا من سلالة نبيه وحبيبه محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلم ما أرأب شأن السنة وجبر كسر الملة وآخى بين الأمة في المغرب الكبير الذي كان ولم يزل مركز الحضارة الفتية والدين القويم والمروءة الراسخة.

ذلك هو مولانا أمير المومنين الحسن الثاني الذي ركز لهذه الأمة في طليعة القرن الخامس عشر الهجري تجديد دينها وتمسكها بالمذهب المالكي الذي كان هو منشأ الحضارة الإسلامية بالمغرب المنطلقة من جامع القرويين بفاس.

لا غرابة إن كان سلالة الرسول ابن حفيده مصداق حديث أن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها.

وكما أمرت جلالته بعقد ندوة للإمام مالك بتاريخ 9 جمادى الثانية سنة 1400هـ موافق 25 أبريل سنة 1980 م بمدينة فاس والتعرض فيها لمشاهير علماء مذهبه والتمسك به واحياء تراثه تحت إشراف وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السابق السيد أحمد رمزي فكذلك أمر ثانية بدورة لأحد مشاهير المذهب المالكي ألا وهو القاضي عياض.

ذلك لأن القاضي عياض لما نهض وعوده غض نضير شعشعت بين عينيه وحضرت بين يديه سنة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم ومدها الى أقصى موصول سقاه الله كأس العرفان وأنزله في حضرة الأعلام الأعيان فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء.

فتاقت نفسه الى العلماء ومحاضراتهم وفتاويهم ومساجلاتهم حتى وقف موقفا دينيا عبقريا أديبا اجتماعيا خلقيا فصار مفخرة للسنة ولا أقول في المغرب فقط بل أقول مفخرة للسنة في كل جهة وفي كل مكان.

ثم إني وإن كان الموضوع : القاضي عياض المجتهد والمقلد لابد أن أذكر قليلا من ولادته ونشأته ونسبه حتى يعرف في بحثي هذا من القاضي عياض الذي كان مجتهدا ومقلدا.

ثم ما هي سبتة التي ولد فيها هذا العالم الجليل الذي جاد الله تعالى بـــه للإسلام والمسلمين.

ثم من هم الأساتذة الذين أخذ عنهم وكيفية أخذه عنهم وكيفية تنقله اليهم.

حتى يعرف السامعون العالم الجليل الذي بلغ مرتبة الاجتهاد فأبى أن يجتهد ولم يزل طول حياته متشبثا بالمذهب المالكي لم يخالفه الا في مسائل معدودة تنحصر في واحدة وثلاثين مسألة درج فيها القاضي عياض الى خلاف مالك ومنها من وافقه عليه كثيرون ومنها من ماانفرد فيه ولم يخالفه إلا بحجة دامغة بعد أن يستجلب الدليل ويقول في اجتهاده الذي يعنى والله تعالى أعلم ولم يخالفه في غير هذه المسائل التي جنح لها القاضي عياض برأيه مع الاستنـــاد لمفاهيم معتبرة عنده من الأصول يستخرجها بذهنه الفياض وفكره الساطع حتى يقيم الأدلة بالبراهين القاطعة العقلية والنقلية والفكرية.

وربما كانت بموافقة العلماء غير المالكية من الشافعية وغيرها ومع ذلك كانت تصريحاته دائما لمحاوريه في الإمام مالك. مالك حجة لنا ثم يقول : إن لمالك مسائل من يكن له مثلهن فليات والا فليدخل عشه وليدرج (الأولى) ان

أكثر التابعين فسر قوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم (يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل شرقا وغربا في طلب الحديث فلا يجدون عالما كعالم المدينة) بمالك (الثانية) أنه مكتوب على فخذه بقلم القدرة بالشعر (مالك حجة الله في أرضه) (الثالثة) أنه مكث في المدينة نيفا وستين سنة يتصفح أقوال النبي صلى الله عليه تعالى وعلى آله وصحبه وسلم وأفعاله وصح أنه لم يخالف حديثا إلا بحديث أو اجتهاد مصيبا لاجماع الأمة زمنه على عدله واستقامته وورعه وربما عمل بعمل أهل المدينة ان تنزل عنده منزلة المتواتر حيث شهد له العدول المتكررون بالنقل عن العدول المشاهدين له الى أن ضمه قبره الطيب الطاهر.

وكان القاضي عياض رضي الله عنه يقول : المعترض على مالك لا يخلو من احدى خصلتين. إحداهما إما ان يتهمه على دينه ولا يجد على هذه موافقا (والثانية) أن يقول ما عدل مالك عن العمل بهذا الحديث الى العمل بخلافه الا بمقتضى ذلك اطلع عليه وخفي على غيره وحينئذ فيجب تقليده إن كان على مذهبه وإن كان مجتهدا سلم أمره وترك الاعتراض عليه؛ ولقد سأله تلميذه أبو محمد فقال له ان رأينا أن اختيارك مخالفا لمالك فأيهما أعدل لنا فقال له : أن الطريق المالكية أعدل لكل من بالمغرب لأن مذهبه هو الموجود في بلادنا نقيا من درن.

ثم فلنرجع الى الموضوع الذي هو القاضي عياض المجتهد والمقلد. ذكرنا آنفا أن القاضي خالف مالكا في واحد وثلاثين مسألة 6 منها في الطهارة 4 في الصلاة 8 في الجنائز 3 في النكاح 7 في البيع 3 في الأوقاف.

هذا هو الذي خالف فيه القاضي عياض مالكا وأخذ برأيه واجتهاده فيه ولم يخالفه الا ببرهان قيم مقتبس من النصوص القرآنية أو الخبرية ووفاق من علماء مقتبسين من نور مشكاة الإسلام عما خفي على غيرهم ممن لم يفقهه الله تعالى في الدين إلا أنه لم يعمل برأي إلا ببينة انظر للمسائل (لوامع الدرر في هتك عويص المختصر) للعالم العلامة الجليل (محمد بن محمد سالم) المجلسي أو شرح ابنه (عبد القادر) المسمى (ثمان الدرر في هتك أستار المختصر).

وقد تعرضت أنا لنظم هذه المسائل وأردت جمعها وتبيينها ان شاء الله تعالى لدورة قادمة وعلى الله تعالى التوفيق.

ثم فلنتبدئ في اجتهادات واستظهارات الشيخ الجليل القاضي عياض في المسائل التي خالف فيها مالكا مرتين على حسب الترتيب في الرمز الأعلى.

مولده ونشأته ونسبه ومحل مسقط رأسه

ولد القاضي عياض بسبتة بالنصف من شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة هجرية هكذا وجد بخطه رحمه الله تعالى ولا يعول على كونه ولد بمدينة بسطة.

نشأته : قال ابنه أبو عبد الله نشأ أبي بمحل مسقط رأسه على عفة وصيانة مرضي الحال محمود الأقوال والأفعال موصوفا بالنبل والفهم والحذاقة طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه معظما عند أهله كثير المساجلة لهم والاختلاف اليهم الى أن برع أهل زمانه وساد جملة أقرانه فكان أصوليا متكلما فقيها نحويا ريان من الأدب شاعرا مجيدا كاتبا بليغا حافظا للغة والتواريخ حسن المجلس حلو الدعابة جوادا سمحا كثير الصدقة دؤوبا على العمل صبورا في الحق.

نشأ بمحل مولده حين طلوع فجره وحل إزاره وعقده في عنفوان شبابه ونعيب غرابه وعوده غض نضير وهمته الى العلياء تشير.

نسبه : هو القاضي عياض بن موسى بن عمرون. **وفي** معجم الصدفي لمحمد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبار أنه عمر بدون نون لكن ذكر الملاحي أنه بنون ابن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي هكذا ذكر أبو القاسم الملاحي قال الشيخ أبو القاسم بن الملجوم : مر بنا عياض مسيره من سبتة ونحن بفاس وهو ذاهب نحو مراكش الحضرة الصالحة يوم الاثنين ثامن رجب سنة 534 هـ فسألته عن نسبه فقال إنما أحفظ من آبائي سبعة وذكر من ذكرنا آنفا.

واليحصبي نسبة لقبيلة من حمير يجتمع فيها هو والإمام مالك ابن أنس رضي الله تعالى عنهما يقول :

اذا حل دين اليحصبي فقل له　　تزود بزاد واستعن بدليل
سيصبح فوقي اقتم الريش واقعا　　بقالي قلى أو من وراء دليل

ويحصب هذا هو ابن مبروك حسبما ذكرت كتب الأنساب في تصحيحاتهم.

محل مسقط رأسه : هو سبتة المدينة الفياضة التي قامت زمنا هي محط رحال العلم ومنبعه العريق وشجرته المثمرة واختلفوا في سبب تسميتها بسبتة فقيل لأنها منقطعة في البحر من باب سبت النعل اذا قطعتها ومن ذلك قول أبو الحكم مالك بن المرحل حيث يقول :

اخطر على سبتة وانظر الى　　جمالها تصبو الى حسنه
كأنها عود غناء وقد　　القى في البحر على بطنه

وقيل لأن أول من سكن بر العدوة القصوى بالمغرب هو سبت بن يافث ابن نوح نزل في آخر المعمورة من بر العدوة فاختط بها منزلا فدعيت باسمه وتناسلت منه قبائل البربر الى آخر ما كان من أمرهم وفي ذلك المعنى يقول أبو عبد الله بن الخطيب السلماني :

حييت يا مختط سبت بن نوح　　بكل مزن يغتدي أو يروح
مغنى ابي الفضل عياض الذي　　أضحت برياه رياض تفوح

ويقال أن سبت بن يافث لما بناها دعا لها بالبركة واليمن ولكن لم اعثر على لفظ دعائه وقد ورد في ذلك حديث عن مالك عن نافع عن ابن عمر وخرجه عياض في الغنية ولكن قال أبرء من عهدته الا أنّ سبتة مشاهد فيها أن الظلوم اذا جاءها لا بد وأن يصاب وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

فكل جبار إذا ما طغى　　وكان في طغيانه يسرف
ارسله الله الى سبتة　　فكل جبار بها يقصف

فلقد بلغت سبتة مابلغت فلقد تبرجت تبرج العقيلة ونظرت وجهها في البحر بمرآة صقيلة ترغب النفوس في جوارها وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها

بالميناء الفلكية والمراقي الملكية والركية الزكية ويكفيها أن كانت للقاضي عياض مولدا ومنشئا وموطنا ومبدئا.

وسبب سكناه بسبتة هو أن أجداده كانوا ببسطة من أعمال جيان من بلاد الأندلس فانتقلوا الى فاس ثم الى القيروان وفي ذلك يقول عبد الله بن حكيم :

وكانت لهم بالقيروان مآثر عليها لمحض الحق أوضح برهان
عليها عياض وابن موسى وحده من ابنوا الدين الله أحسن بنيان

وكان جده عمرون رحمه الله تعالى رجلا خيرا صالحا من أهل القرآن حج احدى عشر حجة وغزا مع محمد بن أبي عامر في زمن دولة هشام ابن الحكم الأموي وأبلى في محاربة الاسبان أحسن بلاء وكان بفاس وانتقل الى سبتة بعد دخول بني عبيد الفاطميين للمغرب .

وسبب مسيره الى سبتة ذلك لأنه لما أراد محمد بن أبي عامر رهنا من اعيان فاس أخذ عيسى والقاسم ابني عياض أخوي عمرون فخرج عمرون الى سبتة للقرب من أخويه اللذين بالعاصمة قرطبة وكان ذا مال فاشترى بها أرضا بنى بها مسجدا ودارا حبسا عليه وحبس باقي الأرض للدفن.

ولم يزل منقطعا في ذلك المسجد الى أن مات رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين وثلاث مائة هجرية ؛ وولد له قبل وفاته بها هذا الذي وجد بخط القاضي عياض.

أساتذته وكيفية أخذه العلم

أساتذته : أخذ القاضي عياض عما يناهز المائة من الأجلاء العلماء ولنذكر البعض منهم ولقد وضع لهم ابنه تأليفا مرتبا لهم على الحروف.

أخذ عن أبي عبد الله بن عيسى وأبي القاسم الخطيب وأبي إسحاق ابن الفاسي من شيوخ سبتة.

ثم ارتحل الى الأندلس في طلب العلم خرج منها يوم الثلاثاء مهل جمادى الأولى سنة 507 هـ ودخل قرطبة يوم الثلاثاء مهل جمادى الثانية فأخذ العلم بها

عن الفقيه ابن عتاب والفقيه بن حمدين وابن الحاج وابن رشد وابن الحسين بن سراج وابن الحسن بن مغيث وأبي القاسم بن النحاس وابن بحر الأسدي وابن القاسم بن بقي وأبي الوليد هشام بن أحمد بن العواد.

ثم خرج من قرطبة يوم الإثنين متوجها الى مرسية لخمس ليال بقت من المحرم سنة 508 هـ ودخلها يوم الثلاثاء ثالث صفر وهو مشتاق الى أبي علي الصدفي وكان أبو علي اختفى قبل دخول القاضي عياض بأيام فرارا من القضاء فمكث بمرسية بقية صفر وربيع الأول لم يطلع على أي خبر لأبي علي مع ظنه أنه في المدينة ولم يزل يبحث عنه الى أن وصل كتاب قاضي الجماعة ابن محمد بن منصور بعدم جعل أبي علي الصدفي في القضاء فخرج أبو علي من اختفائه وجلس للتسميع وجلس اليه القاضي فحصل له سماع كثير في زمن يسير ومما سمع عليه الصحيحين والمؤتلف والمختلف ومشتبه النسبة لعبد الغني الأزدي المتوفى سنة 409 هـ والشهاب كتاب القضاعي المصري المتوفى سنة 404 هـ وكتب عنه فوائد كثيرة وعرض عليه رواياته وأجازها.

ولقي في رحلته هذه جماعة من أعيان علماء الأندلس وأجازه أبو علي الجياني الحسين بن محمد المتوفى سنة 408 هـ وأجازه كذلك أبو جعفر بن يشتغير وابن الأدفر وأبو زيد بن منشال وهؤلاء ممن لقي في طريقه.

وفي رحلته هذه أيضا لقي القاضي أبو جعفر بن مضاء بالمرية وأخذ عنه مااحتاجه من علمه.

فلما حصل على مطلوبه من أصول العلم وفروعه وكان مولعا بعلم الفروع ومعتن به وبالأخص مذهب مالك بن أنس ويكفي تصنيفه للمدارك في خبر مالك والذب عن مذهبه وسأذكر البعض من ذلك في ذكر تقليده لمالك إن شاء الله تعالى.

فأخذ من العلم رياه واستطابه واستحلاه حتى اشتاقت لرؤيته النواظر وامتلأت من مدائحه الدفاتر وصار بحرا فياضا تعجز الطروس والأقلام عن محامده

ومفاخره وفواضله ومكارمه ويكفيه مدحا ما قاله الملاحي رحمه الله تعالى.

يقول : كان الشيخ القاضي عياض بحر علم وهضبة دين أحكم كتاب الله تعالى بالسبع وبلغ من معرفته الطول والعرض وبرز في علم الحديث وحمل راية الرأي وراس في الأصول وحفظ أسماء الرجال وثقب في علم النحو وقيد اللغة وأشرف على مذاهب الفقهاء وأنحاء العلماء وأغراض الأدباء.

ومن كلام القاضي أبي يحيى بن عاصم عندما عرف بابيه في مدح القاضي عياض رحمهما الله تعالى ان بسطت القول وأعددت الطول وأحكمت الأوصاف وتوخيت الاتصاف وانفدت الطروس وكنت كما يقول الناس في المثل (من مدح العروس) وان اضربت عن ذلك صفحا وآثرت غضا من البنوة أو سفحا الى أن قال : ولو أني أجهدت ألسنة البلاغة فجهدت وأيقظت عيون الإجادة فسهدت واستعرت أسواق عكاظ على ما عهدت لما قررت من الفضل الا ما به الأعداء قد شهدت فقد كان رحمه الله تعالى علم الكمال ورجل الحنيفة وقور لا يخف راسيه ولا يعري كاسيه وسكوتا لا يطرف جانبه ولا يرهب طالبه وحلما لا تزال حصاته ولا تهمل وصاته الى آخر كلامه ويكفي ماالستعرنا.

وإنما جئنا بهذا القدر اليسير من خبر ولادته ونشأته ونسبه ومحل مسقط رأسه وأساتذته وكيفية أخذه العلم ليعرف من هو القاضي عياض الجامع بين الاجتهاد والتقليد اختصرت هذا ولم أتعرض لدخوله القضاء وتنقلاته فيه الى غير ذلك اذ قد تعرض لذلك كثير من المشاركين ولم يتعرض أحد له كفقيه مجتهد.

(الشيخ القاضي عياض المجتهد)
(اجتهاده واستظهاره في الطهارة)

1) **اجتهاده :** ان الجنب يباح له قراءة القليل والكثير من القرآن ولا يستوعبه لأن الطهارة إنما ذكرها الله تعالى شرطا في مسه لا في تلاوته ولأن تلاوته نوع من العبادة هو أفضلها والله تعالى أمر بطاعته بغير قيد ولا شرط في

كتابه العزيز لن تحصى ويكفى منها (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) الآية.

قال ولأن القراءة عمل باطني تحصل الفكرة والاعتبار وإن كان الحدث الأكبر نجاسة معنوية محكوم به على الشخص إنما هي مانعة شرعا من العمل الظاهر لا الباطن كمس المصحف والصلاة والحج وليس الصوم كذلك لا يكون من المحدث الأكبر ولا يحرم عليه ؟.

2) **استظهاره :** في اللحى عند البحث في غسله في حلقها وعدمه واستدل بحديث أنهكوا الشوارب واحفوا اللحي فقد قال القاضي عياض يحتمل أن إحفاءها إزالة جميعها لأنها من الأضداد فيقال حفى الروض اذا امتد وطال وحفى المكان خلا من أهله.

3) **استظهاره :** ان من وجد ما يكفي بعض أعضاء وضوءه ولم يكفها الأربعة وكانت أعضاؤه نقية يجب عليه جمع ما تقاطر من أعضائه ويتم به وضوءه ولا يجوز له الترك والتيمم لا يجزئه

قال وذلك لدخوله في عموم مفهوم قوله تعالى : فإن لم تجدوا ماء فمفهوم تجدو وان وجدتموه ولم يقيد بشيء من جمع ولامر غيره والماء المتقاطر من العضو ان كان طهورا يكون ماء موجودا يجب حفظه وجمعه واتمام الطهارة به لأن الوجود لم يقيد بقلة ولا بكثرة ولا بيسر جمع ولا بعسره ولكن قيده الوجود فقط وبمفهوم الآية يجب الجمع وتكملة الوضوء ولا يجوز ولا يجزء التيمم ؟

4) **استظهاره** أن الدلك في الغسل انما هو واجب لتحقق ايصال الماء للبشرة وعليه عنده فمن دخل اضاة أو بحرا أو تلقى المطر عاريا وكان في الكل ينوي الغسل الواجب عليه وتيقن إيصال الماء لجميع جسده فلا يحتاج عنده الى توكيل ولا خرقة مما يباشر الجسد الذي لم تبلغه يده قال : لأن العلة تدور مع معلولها حيث دارت وجودا وعدما والعلة الآن مفقودة ورجحت علماء عصره قوله على قول مالك الذي قال لا بد من خرقة أو استنابة ولو تحققت ايصال الماء الى

البشرة ورجح القرافي وجماعة من العلماء قول القاضي عياض وأنه الراجح ولعبد الله بن محمد بن محمد سالم ناظما الجميع :

الدلك واجب بنفسه على مشهور قولي مالك ونقلا
ان وجوبه لكما يحصلا تحقيق ان الما لجلد وصلا
والراجح الثاني كما قال انجلا وللقرافي مثل ذلك يعملا
فيه بغير راجح والغير لا وفي الثمان كل ذلك انجلا

5) **استظهاره** فيمن ولدت اعلاها شخصين واسفلها شخص واحد والمسألة واقعة فيما قبله) بيسير واختلف العلماء فيها ولما رفعت اليه سال عن احساس الجميع هل احساسه واحد أو لكل احساس يخصه فوجد لكل حساسية يتمتع بها دون الآخر في النصف الأعلى المتكرر أما النصف الأسفل المنفرد فكل واحد من النصفين الأعليين يجد حساسيته الا ان الأرجل أربع.

فأفتى بوجوب طهارة الأعلى كشخصين وبوجوب طهارة الأسفل كشخص واحد وكان من أمر المرأة المذكورة أن ماتت احداهما بعد أن كبرت بسبب من صاحبتهما وسلمت كشخص غير معتدل وفيها يقول محمد بن عبد القادر بن محمد بن محمد سالم :

وذات وجهين ورأسين معا وأرجل والأيد كن أربعا
توضئ الجميع والوطء يحل وللوامع عن الحكم فسل

6) استظهار جواز وطء الحائض إذا طهرت من حيضها بالتيمم قال : لأن الله تعالى جعل التراب عوضا عن التيمم عند عدمه فقال جل من قائل : فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) قال : وهذه الآية لما نزلت في غزوة بني المصطلق خصت الصلاة بالذكر لذلك السبب ولكن هي في جميع العبادات التي تتعلق بالماء فكان الحيض من تلك المسائل التي يجب لها الماء فان لم يوجد الماء لفظا كإن كان معدوما أو معنى كان وقع العجز عنه بواحدة من المسائل التي تبيح التيمم الاربعة او التي توجبه الاربعة وهي التي نظم عبد الله بن محمد بن محمد سالم بقوله ان يخلف المعصوم موتا أو شديد مضرة عليه أو جب الصعيد الخ

هلاكا او شديد أذى أو زيادة مرض أو تأخر برء أو عطش محرم معه فتنزل التراب الطيبة منزلته ويجوز بها ما يجوز به من صلاة ووطىء وحج الى غير ذلك قياسا عنده على الصلاة فكما أنها إذا طهرت من الحيض ولم يكن الماء فتتيمم وتصلي قال : فكذلك تتيمم وتوطأ ؟

(اجتهاده واستظهاره في الصلاة

1) استظهر القاضي عياض باجتهاده ورأيه صلاة الظهر والعصر تشتركان في وقت الظهر فيما زاد على الوقت الذي تؤدى فيه الظهر وذلك يخصها كما يشتركان في وقت العصر الا قدر ما تؤدى فيه العصر فيخص العصر قال وذلك ماخوذ من الحديث والتسمية أما الحديث فحديث جابرا أمني جبريل في البيت مرتين فصلى بي الظهر حين زالت الشمس عن كبد السماء وكان الظل قدر الشراك ثم صلى بي العصر حين صار ظله مثله ثم صلى بي المغرب حين غربت الشمس وأفطر الصائم ثم صلى بي العشاء حين غاب الشفق ثم صلى بي الصبح حين حرم الطعام والشراب على الصائم ثم جاء في الغد فصلى بي الظهر حين صار ظله مثله وصلى بي العصر حين صار ظله مثليه وصلى بي المغرب حين غربت الشمس وأفطر الصائم وصلى بي العشاء لثلث الليل وصلى بي الصبح حين اسفر الضياء ثم التفت الي وقال هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك عياض أخذ من هذا الحديث أن العصر يدخل وقته بعدما يخص صلاة الظهر واستدل على واجبه أيضا بندب جمعهما عند حضور أمر شاق كوقوف عرفة والسفر والمطر وبتسميتهما بالظهرين مشتركتي الوقت.

2) استظهاره في ان وقت المغرب يمتد للشفق خالف مالكا فيها حيث استدل بحديث وقت المغرب مالم يغب الشفق وان كان معارضا لحديث أمني جبريل في البيت مرتين المتواتر ولكن حديث وقت المغرب يعضده عمل أهل الحجة من العلماء واجماعهم ان من أطال في صلاته الى مغيب الشفق لا يأثم ولعبد القادر بن محمد ناظما لهذا

قول المصنف غروب الشمس وقت افتتاحها بدون لبس
ووقت الامتداد ما دام الشفق سند بالاجماع في هذا نطق
لذا على إباحة التطويل فيها اتى الاجماع ياخليـــــل

واستدل أيضا بكون الطوالع ثلاث والغوارب ثلاث والمعتبر الوسط في الجميع.

3) كون الأعمى في الصلاة أولى لأن له جارحة لم يعص الله تعالى بها ولأن الله تعالى وعد العميان بالأجر الكثير والخير العميم فكانوا من أمثل من يستشفع به يوم القيامة وفي الحديث (ايمتكم شفعاءكم فاختاروا من تستشفعون به) ويكفي المكفوف فضلا وأجرا أنه وعده الله تعالى بالجنة ان صبر وكل جارحة ذهابها ينقص العقل الا البصر فكل ما نقص من نوره يرجع لنور البصيرة.

وربما كان صاحبه يتذكر في الصلاة ويتفكر مالا يتذكر ولا يتفكر فيه غيره

4) ان النفخ في الصلاة عمدا يبطلها خلافا لمن قال انها لاتبطل الا اذا اشتمل النفخ على الالف والفاء والا فلا بطلان وهو الذي عليه مالك عياض كل فعل في الصلاة لغير اَصلاح ان كثر يبطل اتفاقا عمدا أو سهوا وعمد يبطل قليله المخالف لحركة الصلاة وقد وافقه اللخمى في بطلانها حيث كان النفخ بالأنف عبثا اشتهاده واستظهاره في حكم الجنائز. (1) استظهاره في أن المصلي على الجنازة يطلب منه الدعاء بعد التكبيرة الرابعة فيقول اللهم أغفر لأسلافنا وافراطنا ومن سبقنا بالإيمان اللهم من أحييته منا فأحيه على الإيمان ومن توفيته منا فتوفه على الإسلام واغفر للمسلمين والمسلمات.

قال وعلى هذا رأيت أسلافنا الذين يستحيل تواطؤهم على غير أمر شرعي وقد نورت في قوله تعالى **(وتعاونوا على البر والتقوى)** فإذا التعاون من

أجله وأتمه دعاء الله تعالى في مواطن الإجابة واعانني على استظهاري أيضا حديث (الدعاء مخ العبادة) وحديث (ان الله تعالى لا يمل الإجابة حتى تملوا الدعاء) وهما معنى قوله تعالى : **(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني)** مع.

2) إخراج جنازة دفنت دون صلاة ان امن تغير هاثم يصلى عليها وتدفن لا ان شك في تغيرها فيحرم قال : لأن نقل الجنازة بعد الدفن ان دعت اليه المصلحة الشرعية أو الضرورية لنا ولو بليت.

أما الصلاة عليها عند الموت فمن حقها علينا ولا أرى مخالفا فيما يعتمد من ظواهر النصوص في جواز حفر القبر واخراجها حتى يصلى عليها ثم قال ومن ادعى التقييد فعليه بالبينة.

3) استظهاره أن الصبي لا يحتاج للتلقين عند الموت للإجماع الوارد أن ابن المسلم في الجنة وإنما الخلاف في ولد الكافر والأكثر أيضا على أنه في الجنة معتزا بحديث (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه هما اللذان يهودانه أو يمجسانه).

4) استظهاره أن السدد الذي ورد عندي جعله في غسالة الميت الثالثة ينوب عنه فيها الصابون أو الأشنان لأنها إنما كانت لواحد من أمرين إحداهما تفاؤلا

بخروج روحه إلى السماء من باب (والعمل الصالح يرفعه) والصابون والأشنان فيهما كذلك تفاؤل بقوله تعالى : (يوم تبيض وجوه) الوجه الثاني أن السدد لإزالة الأوساخ والروائح الكريهة فكذلك الصابون والأشنان يزيلانهما ووافقه الكثيرون من العلماء في هذا.

5) الدفن بالأرض الحية لعدم أمر بدوه قال لأنها تتنقل فبذلك لم يجر الدفن بها ابتداء لعدم دوامها وأما حديث (لا تعمقوا قبري فإن خير الأرض أعلاها

وشرها أسفلها) فمعناه المعنى الأرض التي أربضت أي ذللت حتى سكنت وتقارت لا الأرض التي تتطاول وتمحى لأنها لم ترض ولم تذلل فكانت كالناء الهارب مع إجماعهم أن أقل القبر ما منع الرائحة وحرس الميت.

6) ان محرم الرضاع تقدم في الغسل على محرم الطهارة لأن محرم الرضاعة تتوارث كتوارث محرم النسب بخلاف الصهارة فتنقطع بغير ذلك ولأن الزوجة المقدمة شرعا ليس لها أن تقدم من اختارت ولكن حين لم تتقدم يدفع الغسل للإبن ثم للدرجات التابعة له.

7) حيث صليت على جنازة تعتقدها ذكرا فوجدت أنثى أو العكس فتجزئ عنده الصلاة ولا تلزمك إعادة قال ؛ لأن المطلوب إنما هو الدعاء، وقد حصل على طريق شرعية والحق فيها بين العبد وربه ويعلم منك المطلوب وأنه هو المغفرة لهذه الجنازة الحاضرة وإنزالها درجة الأعلين مع الذين أنعم عليهم.

8) قال لا يضر عدم استحضار كون الصلاة على الميت فرض كفاية قال وهذا عام في الفعل الذي يتعلق بإرادة لأن كل إرادة فعل تقوم مقام النية فكيف يتصور أن من توضأ وأحسن وضوءه وأتى الجامع وجلس ينتظر الصلاة حتى أقيمت فصلى وجاء بفرائضها وسننها ومناديبها خل ببعض صلاته لا يتصور أن من فعل هذا صلاته باطلة. فكذلك من جاء لجنازة حاضرة وأتى بوجه الصلاة الأكمل لا يتصور بطلانها.

(اجتهاده واستظهاره في النكاح)

1) استظهاره في النكاح هو أن الرجل يستحب له أن يعرض محرمه من بنت أو أخت إلى أهل الدين أو الصلاح واستظهاره هذا جعله أكثر العلماء سنة متبعة.

وكذا عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح وقال ان هذا مأخوذ من قوله تعالى ؛ (اني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي) هاتين الذي هو عرض من شعيب على موسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه.

وليست الاجرة والتأجير الذين ذكر حجة على أن عرضه لابنته إنما كان لأجل المواجرة لأن المواجرة لم تقتصر على عرض نكاح البنت وليس عرض البنات عادة يكون في الاجرة وإنما هي عادة بنصيب دنيوي عن المؤاجر عليه أو غيره الريان.

2) استظهر منها ثانيا ندب ذكر الزوج قبل الزوجة في عقد النكاح كما في قوله جل (انكحك) فقد قدمت على (إحدى إبنتي) قال لأن الألفاظ أوعية للمعاني وهذا اللفظ الكريم من القرآن العظيم كاف وعاء لهذين المعنيين.
وقال الأكثرون انه زوجه الصغرى منهما واسمها صافور وهي التي ذهبت في طلب موسى وروى أنه قال له شعيب أيتهما تريد فقال الصغرى.

3) استظهر منها أيضا أن التلويح في أذن النكاح يكفي عن التصريح لقولها حين جاءت به (يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين) ان في قولها هذا تلويح بطلب تزويجه بها ويدل على ذلك قوله بعد قولها مقرونا به (اني أريد أن أنكحك إحدى إبنتي هاتين).

اجتهاده واستظهاره في البيع

1) قال إن جار السوء عيب يرد به البيع قال لأن الجار له حق المجاورة ومن لا تمكن تأدية حقه لا يسقطها ذلك إلا بالعجز سواء بأي أنواعه وأن الرسول عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما زال يوصي على الجار حتى ظن أنه سيورثه.
فبهذا كان من اشترى دارا مثلا ولها جار سوء ولم يعلم به إلا بعد البيع له الرد إن لم يرض من وجهين (أحدهما) أن هذا البيع داخل في بيع الغرر وبيع الغرر والخديعة مفسوخ (الثاني) أن الجار يسفر عنه طبع مجاوره ولا محالة أن يتشرب الطيب من العفن رائحة كريهة أو منطقا قزعا أو فعلا فاحشا.
فبهذا يقع الرد ويكون البيع مفسوخا إلا إن رضي المشتري بالعيب.

2) ان من حمل صبيا على جمل مثلا أو بغلا أو ما أشبه ذلك وأتلف المحمول عليه شيئا يكون ضمانه على الصبي وعاقلته لا على الحامل لأن الأسباب إن تعددت المسببات أخذت بالأقرب إلا إن كان عن جموح دابة أو ما أشبه ذلك.

3) التفرقة بين ما أتلف المجنون فقد استظهر أن ما أتلف من مال يكون في ماله وما أتلف من نفس يكون على من يدين عنه قال لأن المال مردعة والنفس حيث لم تكن كالنفس فاللازم الدية وهي إذا على وليه.

4) من زنى بأمة أعطاها في مهر زوجة وطلق الزوجة قبل البناء لاحد عليه لرجوع نصف الأمة إليه لمجرد الطلاق على المشهور.

5) قال إن بيع الحامل ساعة ولادتها مردود لما فيه من بيع الغرر، ولكن هذا مقيد بحيث كانت تظهر عليها شواهد الموت وهذا أيضا إن كانت جرت العادة بكثرة موت هذا الوصف مثلا لا ان قلت أو لم تجر بها عادة أو جرت بحياته فليس من بيع الغرر.

6) صحة بيع دين الغائب لمن يعرفه ويعرف ربه وإلغاء شروطه الستة التي تتضمن الحضور والإقرار وعدم الشحناء والحلول إلى غير ذلك من الشروط المذكورة التي نظم عبد القادر بن محمد بن محمد سالم بقوله :

شروط بيع الدين ستة ترى حضور مديان وإقرار يرى

إلى آخره...

ولكن الشيخ القاضي عياض أخذ بالظاهر فيها وقال حين علم المشتري يجوز بلا شرط إذ لا غرر فيه ولا خديعة يمنعان من شرائه.

7) قال إن الشاهد إذا لم يعلم ملكية البائع شهادته ملغاة قال لأن الشهادة إذا بطل بعضها بطل كلها وحيث جهل الشاهد شيئا من حال المشهود عليه من قدر أو صفة أو زمن أو ملكية فقد بطلت الشهادة ومن نظم العالم الجليل (محمد بن أحمد يور) اليعقوبي في استظهارات عياض :

وشاهد الهبة إن لم يشهد بصحة الملك ففيه فازهد

وحامل في الطلق لا تباع وبيعها تمجه الأسماع

والمال إن أتلفه المجنــون   فإنه في ماله يكــون
والنفس إن اتلفها من يعقل   عنه يرى لكونه لا يعقل

وهو نظم طويل اقتصرنا على هذا منه خوفا من التطويل الممل.

(اجتهاده واستظهاره في الوقف)

1) استظهاره في أن صاحب الوقف المحبس عليه لا تلزمه عين الاستحقاق قال لأن اليمين لا تلزم في باب الأموال إلا لليد المالكة والموقوف عليه غير مالك ويدل على ذلك ءايات البيع والشراء التي لم تذكر إلا المالك الأصلي أو المنتقل له الملك وهذا الاستظهار وافقه عليه كثيرون من أهل المذهب المالكي وجمعها القاضي عياض اثنتي عشرة مسألة قال الذي يظهر من مفاهيم ءاياتها الواردة فيها أن لا تلزم فيها كلا يمين الاستحقاق وجمعها الشيخ عبد القادر بن محمد بن محمد سالم بقوله :

يمين الاستحقاق في الأحباس   لا تتوجه بلا التباس
وميت أوصى بأن يؤدى   من تلثه الدين فلن تؤدى

إلى ءاخره...

2) استظهاره في أن للموقوف عليه أن يفعل في الوقف ما يفعله المحبس ان لو كان حيا قال لأنه تنزل منزلة الوكيل فصار له الأصلح أو يتعين عليه خلافا لما ذهب الأكثرون من أن الحبس كمال الغير لا يجوز فيه أي صرف إلا ما كبرت فله تعويضها بأصغر. قال القاضي عياض : الوقف على نوعين : عمر وماجد أما العمري فلا أراهم يختلفون في أنها كالعرية لا يجوز فيها إلا ما يجوز في العرية من أخذ غلتها وتنمية أصولها وفروعها عقارا كانت أو ماشية أما الحبس المؤبد فالذي يظهر لي وتدرج عليه النصوص أن للمحبس عليه القيام بمصالحه ولو أدت إلى بيعه وجعله في شيء غير ذلك الشيء لأن أدنى ما يكون أن يكون مودعا والمودع مؤتمن إلى آخر ما جلب في ذلك من النقول المعقولة الوافية بالحكمة.

3) استظهاره أن حبس الحيوان ليس من المنصوص عليه في حكم النسل ولكن إن وقع مضى وإن أراد المحبس عليه تغييره إلى ما هو أفضل للمعينين وأحب إلى الله تعالى جاز له. ذلك من المتيقن بلفظه ونظمه محمد عبد الله بن عبد القادر العالم ببلاه الشهير رحمه الله تعالى :

وإن ترد تغيير حبسك إلى ما كان للمعينين أفضلا
وكان لله أحب ذا يحـــل لك وذا استظهار عياض الأجـــل
للمتقي إن شئت فانظره تجد وطالب العلم يجد سيجد

(عياض المقلد)
(إفتاؤه بوجوب التقليد)

أخذ القاضي عياض رضي الله تعالى عنه عما يناهز مائة من العلماء منهم من درس عليه ومنهم من عرض عليه وقد رتب ابنه أساتذته على الحروف حسب مشاهيرهم؛ وكانت له اليد الطولى في الخط المغربي سريع الوضع حاد الذهـن متوقد الذكاء جامع للفنون ومحدثا منها بالحظ الأوفر وبالأخص من مذهب مالك بن أنس وكان عليه المعول زمنه في حل ألفاظ المدونة ومشكلاتها وتحرير روا ياتها وتسمية رواتها.

وتحقيق ذلك أنه جمع بين شرح المعاني وإيضاحها وضبط الألفاظ وذكر من رواها من الحفاظ ولقد ذكر عنه بعض تلامذته في المرشد الهادي كثيرا من الثناء على مالك بن أنس والإفتاء بوجوب تقليده على أهل المغرب بل وأهل افريقية السوداء جميعا قال لأنه هو المحفوظ بهذا القطر وأحرى بالأندلس وفاس وتونس وجميع أجزاء المغرب الكبير.

ولقد ورد في المرشد الهادي عنه أن من تمذهب في المغرب بغير مذهب مالك فقد تزندق وذلك من باب عدم حفظ غير مذهبه بالمغرب وقال أيضا عازيا له كتب يوما في ناد من تلامذته وهو يحدثنا عمن يجوز له الاجتهاد ومن حكمه

التقليد فقال التقليد في زمننا هذا للأئمة العارفين واجب مثل مالك والشافعي وأحمد بن حنبل والنعمان وإن مالكا لحجة لنا واضحة الدليل منيرة السبيل فكيف لنا باجتهاد وقد أوضح لنا مالك طريق الحق والرشاد.

قال : وإن الاجتهاد في زمننا هذا طارت به للجو عنقاء مغرب فهو أصعب من لمس الثريا وخرط القتاد : قال وإن مالكا بنى مذهبه على أربع قواعد **الأولى** : آية محكمة **الثانية** : حديث صحيح سالم من معارضة ما هو أقوى منه **الثالثة** : الإجماع **الرابعة** : عمل أهل المدينة لأنه كالمتواتر عنده والمتواتر يفيد العلم ودلالته قطعية.

وفي المرشد الهادي عازيا له أجمعت علماء عصرنا قاطبة بقرطبة وسبتة وفاس ومراكش على أنه لا يجوز لأحد أن يكون اماما في الدين مجتهدا حتى يكون جامعا لهذه الخصال وهي أن يكون حافظا للغات العرب واختلافها ومعاني أشعارها وأصنافها واختلاف العلماء والفقهاء فيها ويكون هو في نفسه عالما تقيا حافظا للإعراب وأنواعه وحافظا لكتاب الله تعالى واختلاف قراءاته حافظا لتفسيره ومحكمه ومتشابهه ومنسوخه وناسخه وقصصه وأسباب نزوله مرتبا وعالما بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى ءاله وصحبه وسلم مميزا بين صحيحها وسقيمها ومتصلها ومنقطعها ومراسيلها ومسانيدها ومشاهيرها وأحاديث الصحابة كل باسمه عارفا بموقوفها ومسندها إلى غير ذلك من مراتب الحديث.

ثم يكون أيضا ورعا دينا صائنا لنفسه صدوقا ثقة ببني مذهبه على الكتاب والسنة قال : فإذا جمع هذه الخصال يكون إماما مقلدا ويجتهد في فتاويه وإلا فلا يجوز اجتهاده ولا تقليده **ثم قال له** تلميذه الشيخ الفاضل القاضي أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الإدريسي : هلا تكون مجتهدا فإنا نروك تكاملت فيك هذه الشروط **قال** : فنظرني القاضي عياض بوجه لم ينظر به من قبلي ولا أراه ينظر به من بعدي **وقال** : هيهات هيهات ما لعياض والاجتهاد والله لقد صدق حديث الدليمي في مسند الفرد وبين عن ابن عباس حيث يقول : (ءافة الدين ثلاثة فقيه فاجر وإمام جائر ومجتهد جاهل) **قال** : ولقد عجبت لمن يرى أنه في هذا الزمن

له حق اجتهاد ولو في مسألة واحدة بعد ما رأيت من حديث الأربعيات المروى عن البخاري الدال على صعوبة الأخذ من ظاهر الأصول.

وهو، قال ابن المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخارى لما عزل أبو العباس الوليد بن ابراهيم بن زيد الهمداني عن قضاء الذي ورد بخارى سنة ثمان عشرة وثلاث مائة لتجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل البلعمي فنزل في جوارنا فحملني معلمي أبو ابراهيم إسحاق بن إبراهيم الختلي **فقال له** أسألك أن تحدث هذا الصبي عن مشايخك فقال : مالي سماع فقال له : كيف وأنت فقيه فما هذا **قال** : لأني لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسي الى معرفة الحديث ورواية الأخبار وسماعها فقصدت محمد بن اسماعيل البخاري ببخارى المنظور إليه في علم الحديث وأعلمته مرادي وسألته الإقبال على ذلك **فقال** لي : يابني لا تدخل في أمر إلا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره **فقلت** : عرفني يرحمك الله حدودها تك له ومقاديره **فقلت : ما سألتك عنه فقال لي : اعلم أن الرجل لا يكون محدثا كاملا في حديثه إلا بعد أن يكتب أربعا مع أربع كأربع مثل أربع في أربع** عند **أربع بأربع** على **أربع** عن **أربع** لا **ربع** وكل هذه الرباعيات لا تتم إلا **بأربع** مع **أربع** فإذا تمت له كلها هان عليه **أربع** وابتلي **بأربع** فإذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى في الدنيا **بأربع** وأثابه في الآخرة **بأربع**.

قلت فسر لي رحمك الله تعالى ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب صاف وبشرح كاف وبيان شاف طلبا للأجر الوافي **فقال** نعم **الأربع** التي يحتاج الى كبتها هي أخبار الرسول صلى الله عليه وعلى ءاله وصحبه وسلم وشرائعه والصحابة رضي الله عنهم ومقاديرهم والتابعين وأحوالهم والعلماء وتواريخهم مع معرفة كناهم وأسمائهم وأمكنتهم وأزمنتهم مع معرفة المسندات والمرسلات والموقوفات والمقطوعات إلى غير ذلك من مراتب الحديث كما ذكرنا.

مع معرفة أخذه هل في صغره وإدراكه أو شبابه أو كهولته عند فراغه أو شغله عند فقره أو غناه بالجبال أو بالبحار أو بالأشجار أو بالبراري على الأحجار أو على الأخزاف أو الجلود أو الأكتاف إلى الوقت الذي يمكنه نقلها إلى الأوراق عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه وعن كتاب أبيه يتيقن أنه بخط أبيه دون غيره أو غيره دون أبيه لوجه الله تعلى طلبا لمرضاته والعمل بما وافق الكتاب والسنة ونشرها بين طالبيها ومحبيها والتأليف في إحياء ذكره بعده.

ثم لا تتم هذه الأشياء إلا **بأربع** هي من كسب العبد وهي : **(1) معرفة الكتابة 2) معرفة النحو 3) معرفة الصرف 4) معرفة اللغة** مع **أربع** هي من هبات الله تعالى : **1) القدرة على الأخذ والإعطاء 2) الصحة في العقل والإدراك 3) الحرص على قول الرسول من غير زيادة ولا نقص 4) الحفظ للفظ بالمصدر الوارد به الحالة التي ذكرنا آنفا فإذا تمت هذه الأشياء كلها هانت عليه أربع ؛ 1) الأهل 2) المال 3) الولد 4) الوطن.**
وابتلي بأربع : 1) شماتة الأعداء لأنه وجد ما يحسد عليه **2) ملامة الأصدقاء لعدم معرفتهم لما تعرف** فيؤنبونك **3)** طعن الجهلاء **4)** حسد العلماء للنعمة التي وجدت فإذا صبرت على هذه المحن أكرمه الله تعالى في الدنيا **بأربع : 1)** عز القناعة **2)** هيبة النفس **3)** لذة العلم **4) الحياة** الأبدية لأن صاحب العلم حي بآثاره التي ترك.

وأنابه في الآخرة **بأربع : 1)** الشفاعة في الآخرة **2)** ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله **3)** يسقي من أراد من حوضه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلم **4) مجاورة من أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين.**

قال : وقد أعلمتك يابني مجملا لجميع ما سمعت من مشايخي متفرقا في هذا الباب فاقبل الآن أو دع. **قال :** فهالني قوله وسكت متفكرا وأطرقت متأدبا فلما رأى ذلك مني قال لي وإن لم تطق حمل هذه المشاق كلها فعليك بالفقه

يمكنك تعلمه وأنت في بيتك قار لا تحتاج الى بعد الأسفار وطرق الديار وركوب البحار وهو مع ذلك ثمرة الحديث والقرآن وليس ثواب دون ثواب المحدث فلما سمعت ذلك نقض عزمي بطلب الحديث وأقبلت على دراسة الفقه حتى وقفت منه على معرفة ما مكنني من معرفة أن الفقه تعلمه فرض عين على كل مكلف بوفق الله تعالى ومنته وبذلك لم يكن عندي ما أمليه على هذا الصبي يا إبراهيم فقال له إبراهيم : إن هذا الحديث الواحد الذي لا يوجد عندك غيرك لهذا الصبي خير من ألف حديث يجده عنده غيرك قال وبعدها لم أتجاسر على غير التقليد.

هذا من مقالاته رضي الله تعالى عنا وعنه وأرضاه وجعل الجنة مثوانا ومثواه التي جلب في وجوب التقليد على من لم يبلغ مرتبة الاجتهاد مع ما ذكر من صعوبته أيضا.

وقال في وجوب التقليد لمن استكمل شروط الإفتاء شروط المفتي الذي يجوز للمقلد استفتاه ويجب عليه العمل بفتواه وهي ثلاثة : 1) الدين. 2) العلم. 3) الورع. قال فمن لم تجتمع فيه هذه الأمور الثلاثة لم يجز استفتاؤه ابتداء ولا العمل بفتواه انتهاء لعدم الثقة بقوله قال ويعرف حصول تلك الأمور الثلاثة بمرضاة الناس هديه واشتهاره بها وانتصابه للناس يستفتونه لقوله جل جلاله : (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

قال : والأصح وجوب البحث عمن أردت الأخذ عنه حتى تعرف مدارك ما عنده من علم وورع وعدالة.

قال : وانظر هل تكفي الاستفاضة بين الناس في وصفه بذلك أو لا بد من اثنتين أو لا تكفي الاستفاضة ولا التواتر فقط. قال : لأن الاستفاضة من العوام لا وثوق بها والتواتر لا يفيد العلم إلا استند إلى محسوس. قال ولا يجوز استفتاء من تزيا بزي العلماء ويدع العلم ويعتز بها إليه كنحن القضاة وأمثالنا.

والمراد بالدين : امتثال الأوامر واجتناب النواهي فالعالم غير العامل فقوله هواء وكتبه هباء وافتاؤه تنمر ومشيه تكبر ولهو أهون عند الله تعالى من الجاهل.

(والمراد) بالورع هو اتقاء الشبهات كالمكروه أو ما تعارضت أقوال العلماء والأدلة في تحليله وتحريمه وهي مستوية وإلا وجب العمل بالراجح.

ومن الورع فعل المندوب لأن تركه يجر إلى ترك السنة وترك السنة يجر إلى ترك الواجب كما أن فعل المكروه يجر إلى فعل الحرام.

(والمراد) بالعدالة هي ملكة تمنع من اقتراف الكبائر وصغائر الخسة والرذائل المباحة.

قال والمفتي عند أشياخنا هو العالم بأصول الفقه وبالأدلة السمعية التفصيلية واختلاف مراتبها وما يتوقف عليه العلم بذلك من العقليات قال : ولقد قلت لكم في المفتي فكيف بالمجتهد الذي يتلقى العلم من مواهب إلهية شرب ماءها وأكل مرعاها وحفها بالأفكار القويمة والمهام السليمة.

ونقل القرافي في بعض رواياته أنه قال : من حفظ روايات المذهب وعلم مطلقها ومقيدها وعامها وخاصها جاز له أن يفتي بمحفوظه منها لا غير ذلك إلا إن حصل له علم أصول الفقه والقياس وأقسامه وترجيحاته وشرائطه وموانعه والا حرم عليه وهو تلاعب وفسق.

وفي شرح المحصول القاضي عياض ينبغي أن يحذر عما وقع في زماننا هذا من تشاغل بعض الفقهاء بالفتوى من الكتب الغريبة التي ليست فيها رواية المفتي عن المجتهد بالسند الصحيح ولا قام مقام ذلك شهرة عظيمة تمنع من التصحيف والتحريف قال : وبالغ أشياخنا في التساهل في الفتوى الذي يتعرض له كثيرون من أهل اليوم حتى أنهم إذا وجدوا حاشية في كتاب غريب جعلوه نصب أعينهم وأفتوا بها وهذا عدم تورع وبعد شديد عن القواعد والمرشد الهادي.

قال : ولقد أوردت ورقات إمام الحرمين في الأصول أكثر من هذا إن شئت.

قال المرشد الهادي عياض : لا أرى الأخذ بالرأي إلا أصعب من خرط القتاد وذلك لأني حدثني أحمد بن المنادى قال : سأل رجل أحمد بن حنبل إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث هل يكون فقيها محدثا ؟ قال : لا. قال : فمائتي ألف حديث قال : لا. قال : فأربعمائة. قال : نعم.

قال أبو الحسين رضي الله عنه ، فسألت جدي كم كان يحفظ أحمد قال لي ، أجاب عن ستمائة ألف حديث قال أبو إسحاق لما جلست في جامع المنصور للفتيا ذكرت هذه المسألة فقال لي رجل ، فأنت تحفظ هذا القدر حتى تفتي الناس قلت ، لا إنما أفتي بقول من يحفظ هذا المقدار.

وقال الهروي الناس في الدين على قسمين مجتهد ومقلد والمجتهد يختص بالعلم والعلم يتعلق بالكتاب والسنة واللسان العربي المبين الذي ورد به القرآن ، فمن كان فيما يعرف الكتاب والسنة وحكم ألفاظهما ومعرفة الثابت من أحكامهما والمنقل من الثبوت بنسخ أو غيره والمتأخر والمتقدم ودرجات الحديث وأحكامها صح اجتهاده وان يقلده من لم يبلغ درجته.

وفرض من ليس مجتهدا أن يسأل ويقلد وهذا الاختلاف فيه قال ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى ، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) ومنها (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستبطونه منهم).

والآيات في هذا كثيرة جدا **ومن السنة** ما رواه مسلم وأحمد في مسنده عن ابن بردة عن أبيه قال ، (رفع) يعني النبي صلى الله تعالى عليه وعلى ءاله وصحبه وسلم (رأسه إلى السماء وكان كثيرا ما يرفع رأسه إليها فقال ، (النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد وانا آمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهبت أصحابي أتى أمتي ما يوعدون) قال في النهاية والإشارة في الجملة إلى مجيء الشر عند ذهاب أهل الخير.

فدل هذا صريحا على أن أصحابه كالنجوم يهتدى بهم ويقتدى بهم وإن كان حديث (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) تكلم فيه فلا يضره ذلك لموافقة معناه للحديث الصحيح وفي حديث أحمد وأبي داوود والترمذي وابن ماجة والدارمي عن كثير بن قيس قال ، كنت جالسا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل فقال ، ياأبا الدرداء إني جئت من مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى

الله تعالى عليه وعلى ءاله وصحبه وسلم قال : نعم فإني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يقول : (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة وأن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لصاحب العلم وأن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر).

وهذا يكفي في أن القاضي عياض كان مقلدا للإمام مالك ذابا عن مذهبه مناضلا دونه قوي العارضة لا يرى أن الاجتهاد في زمنه ذلك يحل بأي وجه من الوجوه ولكن يرى أن للعلماء العارفين بما ذكرنا آنفا أن يستظهروا من أنفسهم مع الاعتماد على مبرر شرعي.

هذا ما لخصنا من أخبار البحر الزاخر والسماء الماطر عن توارى لما ظهر واستخفى لما بهر من سلك مسلك الرجال وقارع قراع الأبطال فالله تعالى يرحم القاضي عياض برحمته الواسعة يوم تشقق الأرض عنهم سراعا.

اللهم إنا نتوسل إليك بجاه نبيك وحبيبك وصفيك من خلقك محمد بن عبد الله بن شيبة رسولك الأكرم وحبيبك الأعظم صاحب البراق ومجلى خيل السباق ومعتلي السبع الطباق خاتم الرسل ومزيل الوجل وأفضل من خلقت وأجمل ما قدرت نتوسل إليك به حيث قال توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم وقد قلت وقولك الحق أدعوني أستجب لكم إنا ندعوك لسعادة الدارين وقرة عين أمير المومنين حامي حمة الملة والدين اللهم انظره بعين الصفى وألبسه العناية والأصطفى بجاه جده المصطفى.

اللهم إن **الحسن الثاني بن محمد الخامس هو المناضل** عما أوجبت وفي كتابك أنزلت. فأعنه بعزتك وأمنك وقوتك ويمنك وهيبتك وأقر عينه في فلذة كبده ومحط سره ولي عهده المولى سيدي محمد وشقيقه السعيد صاحب السمو المولى الرشيد وسائر أفراد أسرته وشعبه وجنده.

اللهم استرنا بسترك الجميل وعاملنا بلطفك الجزيل وكن لنا في المقام وفي الرحيل واغفر لنا ولوالدينا ولأشياخنا ولذرياتنا ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

اللهم لا تؤاخذنا بخطايانا فانا نشهدك على أنا نشهد أن لا إله إلا أنت وأن محمدا عبدك ورسولك وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الآخرة هي دار القرار وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله تعالى يبعث من في القبور.

العلامة أبو الفضل عيـاض
كما يراه علماء المشرقيـات

للدكتور : عبد الله العمراني

بسم الله الرحمن الرحيم

العلامة أبو الفضل عيـــاض
كما يراه علماء المشرقيـــات

يسرني أن أشارك في هذا المهرجان الفكري، لأتناول شخصية القاضي أبي الفضل عياض، من خلال ماكتبه عنه علماء المشرقيات الذين خدموا من غير شك، التراث العربي بالبحث، والتحقيق والنشر، فأسدوا للثقافة العربية ولأبناء العروبة خدمات جلى.

في ربيع العام المنصرم، انعقدت بفاس، ندوة الإمام مالك بن أنس الأصبحي واليوم في ربيع هذه السنة، تنعقد بمراكش، وفي نطاق تلكم الندوة، دورة القاضي عياض علامة الغرب الإسلامي، ولعل من حسن التخطيط ـ لاحسن الصدف وحده ـ أن تلي الدورة الندوة، وأن يتتابع تكريم هذين الإمامين اللذين آخت بينهما وشيجة النسب والقربى، قبل أن تربط بينهما أواصر المناسبة والمذهب، والعلم والفضل والصلاح.

ـ نسب عيـــاض ـ

للقاضي عياض ـ كما لغيره ـ نسبتان :

إحداهما نسبية، والأخرى سكنية، فهو يحصبي النسب، سبتي المولد والسكن، مغربي المحتد فاسيه، وأندلسي الأصل بسطيه.

فاليحصبي، نسبة **عضوية** تنتمي إلى يحصب بن مالك، أخي ذي أصبح، وأبي قبيلة يمنية من حمير، كثير من بني يحصب استوطنوا الأندلس بعد الفتح، فنسبت إليهم قلعة هناك دعيت قلعة يحصب، كما دعيت قلعة بني سعيد، من المحتمل أن بعض أجداد عياض، اتخذوا «قلعة يحصب» موطنا لهم، قبل أن ينتقل نسلهم بعد ذلك، إلى بسطة أولا، ثم إلى فاس ثانيا.

أما بنو سعيد الذين تنسب إليهم القلعة، فمنهم الأدباء والمؤرخون المعروفون مؤلفو (كتاب فلك الأدب، المحيط بلسان العرب) المحتوي على قسمين سمي أحدهما (المغرب في حلى المغرب) وسمي الآخر (المشرق في حلى المشرق) وقد تعاونوا على تأليفه عبر أجيال وحسب الترتيب التالي :

1 ـ أبو مروان عبد المالك بن سعيد العنسي من ذريه الصحابي الجليل عمار بن ياسر، **توفي** سنة (560 هـ/ 1194 م).

2 ـ ابنه أبو جعفر أحمد بن عبد المالك بن سعيد، المتوفى سنة (559 هـ/ 1163 م).

3 ـ أخوه أبو عبد الله محمد بن عبد المالك بن سعيد، توفي سنة (589 هـ/ 1193 م).

4 ـ أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، المتوفى سنة (640 هـ/ 1243 م).

5 ـ أبو الحسن علي بن موسى بن محمد، المعروف بابن سعيد المغربي، توفي سنة (685 هـ/ 1274 م).

وتعرف قلعة يحصب أو قلعة بني سعيد في الوقت الحاضر باسم «ألكالالاريال» أي القلعة الملكية، وهذا يعني أنها كانت من القلاع التي يستقر بها الملك أحيانا، فنسبت إليه ولم تكن من القلاع أو الحصون التي كان يقطنها الاقطاعيون فتنسب إليهم، وتأخذ إسم «ألكالا لافيودال» أي القلعة الإقطاعية.

كانت هذه القلعة في الماضي تابعة لإقليم غرناطة، غير أنها أصبحت في التقسيم الإداري الإسباني الحديث، تابعة لإقليم جيان، JAEN وهي

واقعة في جنوب هذا الاقليم. يجدر بالتنبيه أن الباحث المعروف الأستاذ محمد عبد الله عنان. التبس عليه الأمر. فاعتبرها قلعة يعقوب. وقلعة أيوب من الأسماء المرادفة لقلعة يحصب (الإحاطة جـ 1 هامش ص 111 وهامش ص. 214).

غير أن قلعة أيوب «كلاتايود CALATAYUD الحالية» منسوبة إلى والي الاندلس أيوب بن حبيب ابن أخت الفاتح العظيم موسى بن نصير. وهي تابعة إداريا لاقليم سرقسطة وواقعة إلى الجنوب الغربي من عاصمة الإقليم سرقسطة أيضا. أما قلعة يعقوب فلا وجود لها بالأندلس.

ـ عصر القاضي عيـــاض ـ

يحسن بنا الآن. وقد انتهينا من الحديث عن نسب عياض. ان نلتفت إلى بيئته ووسطه الإجتماعي. والسياسي الذى عاش فيه. لكي نحيط علما بالمناخ والتربة اللذين ساعدا على تغذية هذه النبتة التي نمت وترعرعت فأصبحت «كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها».

ومما يلفت النظر في هذا الصدد. أن حياة القاضي عياض. تكاد تتسق زمنيا مع حياة دولة المرابطين. وعمره يكاد يتطابق مع عمرها. ومن هذه الوجهة نجد الفرد والدولة هنا مرتبطين بعضهما ببعض. لدرجة أن ما يلحق أحدهما من مدح أو قدح يلحق الآخر لا محالة. وما يصيب هذه. يصيب ذلك. إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

الجميع يعرف أن الدولة المرابطية. برزت عملاقا مهيبا في الحوض الغربي **للبحر الأبيض المتوسط فنشرت سلطانها على المغرب والأندلس معا. فأوصلتهما** إلى الأوج ورفعت رأس العربي في الغرب الإسلامي عاليا شامخا بين شعوب العالم. وذلك في مدة قصيرة نسبيا كانت أشبه بحلم جميل عابر...

ولعل خصالها الحميدة الجمة، وعظمتها التاريخية، كثرتا حسادها، وجلبتا لها من الخصوم السياسيين، أولئك الذين جعلوا يصبون عليها في غير هوادة سوط النقد والقدح والذم.

- مع دوزى في نقـــده -

للمستشرق الهولندي الراحل، رينييرو بيذرو دوزى (20 - 1884) ولع قديم بالبحث في تاريخ الغرب العربي، كان من آثاره كتابه عن «تاريخ المسلمين باسبانيا» الذى نشره بادىء بدء في لندن سنة 1861، ثم نشره بالفرنسية المستشرق الفرنسي (لفي بروفنصال سنة 1932).

وفي سنة 1954 ترجم إلى الإسبانية على يد مكد لينا فوينتس، وعلى هذه الترجمة اعتمدنا هنا، جاء في صفحتي : (319 / 340) من الجزء الثاني ما يلي :

لأجل ذلك كانت إسبانيا المسلمة كلها تحت حكم العاهل المغربي، الأمر الذي كان يرغب فيه الشعب والفقهاء قد تحقق، وعلى الأقل هؤلاء (الأخيرون) لم يكونوا ليندموا على تعاونهم، بالشكل الأكثر فعالية، على إنجاح الثورة، علينا بالرجوع القهقرى حتى عهد القوط لنجد نموذجا آخر لرجال دين شديدي المراس، مثلما كان عليه رجال الدين المسلمون إبان حكم المرابطين.

الأمراء الثلاثة لهذه الأسرة التي حكمت الأندلس، يوسف (ت : 500هـ / 1106م) وعلي (تـ : 537هـ/ 1143م)، وتاشفين (تـ : 539هـ/ 1145م) كانوا تقاة ورعين إلى حد المغالاة حاطوا كل الفقهاء بسياج من الإحترام والتكريم، ولم يكونوا يفعلون شيئا دون إحراز موافقتهم ومع ذلك فالذى منح منهم التصفيق والإعجاب هو علي، إن الصدفة قد غلطت حينما جعلته يولد عند قوائم العرش، فالطبيعة كانت قد قيضته لحياة الهدوء والسكينة للتأمل والورع للتعبد في الصحراء، فطوال حياته لم يكن يفعل غير الصلاة والصيام، وبالطبع لم يكن الفقهاء ليجدوا أحسن من هذه المناسبة لمدحه وإطرائه.

كانوا يتحكمون في العاهل كما يشاؤون ويتصرفون في كل المناصب وفي كل الإنعامات وكانوا يركمون ثروات طائلة. في كلمة واحدة، جنوا الثمار التي كانوا قد وعدوا بها من طرف الهيئة المرابطية. أو ربما تكون الحصيلة قد فاقت ماكانوا يأملونه. لكن إذا كانت الأحداث بررت تلك الآمال فإنها كذلك بررت مخاوف الذين لم يكونوا يحبون لا سيطرة رجال الدين ولا جنود المغرب والصحراء. فالأدباء والشعراء والفلاسفة، كانت لهم بواعث كثيرة على الشكوى.

حقيقة إن كثيرا من الأدباء الذين خدموا في دواوين الأمراء الأندلسيين، أحرزوا وظائف «مماثلة» في دواوين المالك صاحب الشأن الجديد. لكنهم ألقوا أنفسهم على الهامش، وفي استياء من وجودهم وسط أحبار متعصبين وقواد خشنين. إن حاشية الأمراء الأندلسيين كانت جد مختلفة. حتى بالنسبة لأولئك الذين ـ لكي يكسبوا قوت يومهم ـ كانوا يتملقون السادة المرابطين ويهدونهم كتبهم، كان يبدو عليهم حزن عميق يشوبه إعجاب شديد بالأمراء الأدباء الذين كانوا يحكمون الأندلس من قبل...

ـ ومع نيكلســـون ـ

قبل الرد على هذه الأقوال، ننظر فيما حولنا لنرى تأثيرها في محيط البحث والباحثين وفي هذا المجال، نجد المستشرق الانكليزى رينولد نيكلسون (1868 ـ 1945م) مؤلف (تاريخ أدبي للعرب) المطبوع لأول مرة سنة 1907م وأعيد طبعه مرارا، وآخر طبعة نملكها هي التي أصدرتها مطبعة جامعة كمبردج بانكلترا، سنة 1969م، عقد نيكلسون في صفحة 430 عنوانا فرعيا هو (الامبراطورية المرابطية (1056 ـ 1147م) جاء فيه ما يلي :

رأينا من قبل، كيف دعي يوسف بوساطة العباديين ليقود جيشا عبر اسبانيا وعرفنا كيف هزم الفونس السادس في معركة (الزلاقة) وعند عودته بعد سنوات قليلة، عاد هذه المرة لاكحليف، بل كفاتح، استولى على غرناطة واشبيلية، أما بقية

مدن إسبانيا فأخضعت بدون مقاومة كبيرة العوام وكذا رجال الدين. حيوا في العاهل البربرى (1) مصلحا للعقيدة غيورا، وحصنا، ضد أعدائهم المسيحيين حصينا. المطمح المنشود لم يتحقق. فالحضارة الإسبانية ضعفت البربر ولكنها لم تمحصهم.

تحت الترفض الضيق ليوسف وخلفائه. أصبح الفكر الحر. مستحيلا. والثقافة والعلم ضعيفين بينما كان مجموع القطر يعاني من المجاعة. وقطع الطريق. وكل أشكال الفوضى التي تصم في العادة إدارة ضعيفة عفنة.

ـ ومع گوميـــــت ـ

نسترسل في البحث عن أقوال الدارسين للموضوع فنعثر على كتيب للمستعرب الإسباني (اميليو غرسيا گوميت)، أضفى عليه تسمية شعرية لطيفة «خسوف لشعر اشبيلية في عهد المرابطين» وطبعه في مدريد سنة 1945م. نتصفح الكتيب. فنقرأ تحت عنوان «الكفاح ضد الفقهاء» ما يلي :

كان عهد المرابطين في نهاية المطاف. عدوا تاريخيا عرضيا. للشعر العربي الأندلسي من المؤكد. أن اقتحامهم (للأندلس) شل التطور الأدبي الرائع في رحاب القصور الصغيرة لملوك الطوائف. وجعل قلوب الشعراء يخالجها حنين إلى الماضي. ومن المؤكد كذلك أن جهالتهم كانت تضطر الشعراء الغنائيين إلى العراك ضد الخمول والبؤس بيد أن نفوذهم استفحل خطره في مجال بتر حرية التفكير الفني. بسبب التحالف الوثيق الذي أبرموه مع عدو آخر للشعر. عدو ليس مؤقتا عابرا. ولكنه جوهري ثابت. هو زمرة الفقهاء.

في الواقع كان الفقهاء في تاريخ الإسلام الأندلسي حاضرين دائما. ظاهرين أو مستترين متعاقبين باستمرار. كما تتعاقب حركات القلب انقباضا وانبساطا.

---

1) البربري : منسوب إلى البربر سكان شمال إفريقية، لا إلى البربر بمعنى متوحشين.

وسواء كانوا في رفعة أوضعة. فلا بد من الإعتماد عليهم. كانوا قادرين على كل شيء. في عهد الأمراء الأمويين الأوائل حيث كان على أقوال ابن مسرة والبوادر الأولى للتفكير المستقل. أن تتسرب وتنساب كما يتسرب وينساب خيط رفيع من الماء تحت باطن الأرض. كانوا يتراجعون في اللفظات العابرة والبراقة للخلافة. لكنهم يظلون يترصدون في الظل. ومن الظل يخرجهم المنصور ليحرقوا كتب الحكم الثاني. وليستجيبوا لإغرائه جاعلين من أنفسهم أنصارا لسياسته النيزكية المضادة لنصرة حق الأمير في العرش.

عهد المرابطين الذي ندرسه هو مع كل شيء. الأكثر لمعانا بالنسبة لأئلئك الذين كانوا يتمتعون بالحظوة لديهم.

وبعد أن يقتبس المؤلف من كلام المراكشي في (المعجب) يضيف قائلا :

لنطرح جانبا ما يمكن من هذا الرأى أن يصدر من مؤرخ يتقاضى أجره من الموحدين. أما نحن. فلن نعبىء أقلامنا ثانيا. لتحاز إلى جانب. ولن نتحزب لأية قوة تاريخية ومع ذلك نرى لزاما أن نوافق على ضيق مجال الحياة الفكرية تحت زعامة الفقهاء.

- الرد ونقض النقـــد -

نستخلص من هذه الأقوال جميعا. أن حكومة المرابطين بتقريبها لرجال الدين وغضها الطرف عن رجال الفكر فلم تعرهم ما يستحقون من التفات أو اعتبار. قد اقترفت ذنبا ولذا تستوجب اللوم والتقريع والإدانة.

وللرد على هذا نقول : إن تقسيم المسلمين إلى رجال فكر. ورجال دين تقسيم غريب. على الإسلام. الذى لا يفرق بين شؤون الدين وشؤون الدنيا. ولا يضع أية حواجز منيعة بين الإيمان والفكر. وتطبيقا لهذا المبدأ السليم. نرى تاريخ الإسلام. في المشرق والمغرب. حافلا بعلماء متفتحين متنوعي الإختصاصات **والأمثلة. على ذلك كثيرة تجل عن الحصر.**

الحكومات كالأفراد في اختلاف الأمزجة. وتبيان الأفكار وتنوع الممارسات الدينية وفي اتخاذ أساليب الحياة والحكم المناسبة ومن ثم لا يمكن تجريم دولة المرابطين لمجرد أنها تلمس الجدية في الحكم والبساطة في العيش. وقربت الفقهاء طلبا للمشروعية. وبحثت عن السند القانوني لكل عمل يمس شؤون الدولة أو كيانها ولعل الورع لم يكن - ولن يكون - يوما ما مدعاة للنقد والتجريح. أو وصمة عار وشنار.

إن الصورة القاتمة التي رسمها للفكر الأندلسي خصوم المرابطين لا تستند إلى أساس سليم خصوصا إذا عرفنا أن بعض هؤلاء الخصوم اشتهر عنهم تحيزهم لملوك الطوائف عامة ولبني عباد خاصة. أما بعضهم الآخر فانساق في التيار عن وعي أو غير وعي.

قد يكون هؤلاء أو أولئك متأثرين بأقوال المؤرخ عبد الواحد المراكشي في كتابه : (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)، لكن المراكشي هو نفسه متحيز في الواقع ثم إن كلامه خاص بأمير المسلمين علي بن يوسف بينما غيره عمم اتهاماته فشملت كل المرابطين.

- دفاع علماء المشرقيات -

والآن لنترك مهمة الرد أو الدفاع عن المرابطين ليقوم بها مستشرقون معروفون ذوو مكانة علمية مرموقة.

فرانسيسكو كوديره :

يرد أبو الإستشراق الإسباني الحديث. (فرانشيسكو كوديره)، ردا مفحما ويثبت أن عهد المرابطين كان حافلا بالعدد الضخم من العلماء والأدباء الذين تألقوا في هذا العهد الذي لا يمكن أن يوصف - إلا خطأ - بالتبرير والوحشية.

خوليان ربيـــرا :

ويؤيد المستشرق (ربيرا) ما قاله أستاذه وزميله في مقال له عن ابن قزمان
(ت : 507هـ ـ 1114م) ورد فيه ما يلي :

ونتيجة التعود على أوصاف مضللة بعيدة عن الحقيقة، كتبها فقهاء عن أحوال السياسة والدين في عهد المرابطين، استقرت في أذهان الناس، أسطورة شعب متعصب عدو للفلسفة شغوف بالاضطهاد.

ثم يختم (ربيرا) كلامه قائلا :

(من الصعب أن نجد فترة من التاريخ الإسباني، تألق فيها مثل هذا العدد من عباقرة عظماء (من طراز ابن قزمان) مفكرين وشعراء وأدباء ورجال علم).

ليفي بروفنصال :

يتعرض المستشرق الفرنسي (ليفي بروفنصال)، للموضوع في كتابه (الحضارة العربية في اسبانيا، طبعة الأرجنتين سنة 1953)، فيقول في صفحتي 39 ـ 40 ما معناه :

يبدو أن حكم الأمير المرابطي الثاني على بن يوسف كان، أكثر مما كان حكم أبيه شاهدا قويا على تمرس الأمبراطورية المغربية بالحضارة الأندلسية لقد استأنف الملك، وكانت أمه أندلسية، الحرب المقدسة التقليدية ضد الكفار، تلك الحرب التي شنها أواخر القرن الحادي عشر على شبه الجزيرة الإبيرية بنجاح ملحوظ. إن مجرد وجود الجيوش المرابطية في الحدود الإسلامية، كان له من الأثر، إعادة منح السكان أمنا لم يكونوا يعرفونه من قبل.

خلال هذه الفترة من السلام عادت الأندلس لتجد لذتها في الحياة واهتمامها بالحفاظ على مكانتها ونفوذها الثقافي، لا في بلادها هي فحسب، بل كذلك في سائر المراكز، التي يحكمها أصحاب الشأن الجدد، حينئذ، عبر المضيق كثير من الأندلسيين لتثبيت سكناهم الجديدة بالقرب من الملك، وحولوا البلاط البربري

الصغير بمراكش، إلى بؤرة أدبية وعلمية، جديرة بأن تقارن **بالتي كانت تألقت** خلال القرون السالفة في سماء قرطبة وعواصم الأقاليم بشبه الجزيرة.

ومن جهة أخرى كان العاهل المرابطي، لا يفارق، ولو لحظة واحدة حاشيته من الكتاب، والفقهاء الأندلسيين الذين تحولوا بسرعة إلى مستشارين سياسيين يعتمد عليهم كل اعتماد. إن هؤلاء وأولئك بالرغم عن بعدهم عن وطنهم كان يبدو عليهم دوما وكأنهم سفراء متحمسون ودعاة نشيطون للثقافة العربية الأندلسية التي كانوا هم أنفسهم حملتها الأكثر تبريزا.

نيفل باربـــر :

ألف المستشرق الانكليزى المعاصر، (نيفل باربر)، كتابا عن (المغرب) طبعه أول مرة 1965م، وعقد فيه فصلا عن الإمبراطورية المغربية جاء فيه تعليقا على كلام (المعجب) ما نصه :

تم تحرير هذه السطور، في أيام الأسرة المالكة التالية، ومن الواضح أنها متأثرة بالدعاية التي كان الموحدون يقومون بها ليخزوا أسلافهم المرابطين، ومع ذلك، فالحقيقة أن الحركة التي ابتدأها ابن تومرت، كانت قادرة على أن تضع نهاية للحكم المرابطي خلال سنتين من موت علي...

لقد احتدم نقاش بين المؤرخين المحدثين حول مزايا الحكم المرابطي في اسبانيا أو عيوبه، لقد وقع الإيحاء بأن خضوع الأندلسيين لزعماء دينيين جهلاء ومتعصبين هدم حرية الفكر من الأساس، وأن عدم تسامح المرابطين جعل من المستحيل استمرار وجود المسيحيين الاسبان المعربين الذين يعرفون باسم «المستعربين،الترجمة ».

ففيما يتعلق بالنقطة الأولى، لم يكن هناك شك في أن المرابطين، بدوا في أعين مسلمي اسبانيا وكأنهم غير مثقفين، خشنون،

وبدائيون، هناك عدة مقطوعات شعرية هجائية وحكايات توضح هذا، ومن الحق كذلك، أنه نتيجة تحريض المتعصبين الدينيين أحرقت علنا في شوارع اشبيلية،

أيام حكم المرابطين. كتب المصلح الديني العراقي الكبير، (الغزالي) وفي مقابل هذا على أي حال، يجب علينا أن نتذكر أن مراقبة المطبوعات، واحراق الكتب في اسبانيا، حدث في إبان سابق على حكم المرابطين. واستمر بعد انتهاء حكمهم بعدة قرون. وكلا الحدثين تم أيام حكم المسلمين والمسيحيين على حد سواء. فالمترف محب الرفاهية المعتضد، سلف المعتمد في حكم اشبيلية، قد أحرق كتب (ابن حزم) بدعوى الهرطقة ومثل ابن حزم ككتاب بارز في شؤون الدين مثل الغزالي نفسه.

وفيما يتعلق بالنقطة الثانية، ليس جميلا أن نجعل المرابطين مسئولين عن بلايا المسيحيين المعربين بالأندلس. إن حظهم كرعايا دولة مسلمة، بدأ يتلاشى، ويصبح مستحيلا بمجرد ما شرع المسيحيون من الشمال يغيرون على الجنوب ويحثون (إخوانهم) المستعربيين من المشتبه فيهم أن يعملوا كطابور خامس. منذ تلك اللحظة، أصبح مما لا مناص منه أن يعتبر هؤلاء من المشتبه فيهم. وصار من اللازم تقريبا، أن يصدر حكم في شأن أعداد كبيرة منهم بالطرد أو النفي إلى جنوب المضيق. وكنموذج للتسامح، نشير إلى حقيقة، هي أن المرابطين استعملوا قوة من الجنود المسيحيين، كانت تتمركز عادة في مدينة مراكش، وكانت تحت إمرة حاكم قطلاني يدعى (رفيرتير REVERTIR) وكان يبدو على هؤلاء الجنود أنهم كانوا أحرارا في ممارسة شعائرهم الدينية.

«ليس واضحا بالمرة ما إذا كان الأدب الجدي أيام حكم المرابطين، قد عمل - بكيفية قاطعة - على تقليص رعايتهم لصنف معين من الإنتاج الأدبي. أما مدى الخسارة في هذا الصنف المعين فمسألة أخرى. المرابطون هم على أي حال ليسوا ملومين على حالة انفصام الشخصية التي أصيب بها مسلمو إسبانيا، فانقسموا، كما كانوا، إلى وجهاء منغمسين ذاتيا في الملذات والفسوق، وإلى رجال دين ضيقي العقول ومتعصبين غالبا.

وليس هناك من برهان على أن حكم المرابطين، سبب نقصانا في الكفاءات الإدارية، بل بالعكس نراه قد وضع حدا لعدد كبير جدا من إساءات لاستعمال السلطة واستغلال النفوذ، في مجالات الحياة الخليعة، والملاذ المفرطة للأمراء...»

ثم يختم هذا المستشرق الراحل، الخبير بشؤون شمال افريقية، موضوع الامبراطورية المغربية قائلا : «لولا عقيدة المرابطين، كحكام مسلمين، ولولا تدخلهم في اسبانيا المسلمة، لكان من المؤكد تقريبا أن يقع الاستسلام للمسيحيين، مائتي سنة، أسرع مما قد حدث بالفعل».

حضرات العلماء الأفاضـــل :

إن دارس شخصية علمية، قد يلاقي مشقة وعنتا في دراسته لها، حين يجد نفسه أمام موقفين أو مأزقين أحلاهما مر :

1) أن تكون الشخصية غير مدروسة بما فيه الكفاية، لدرجة تبدوا معها وكأنها مجبرة حتى لدى المثقف غير العادي.

2) أن تكون الشخصية مطروقة مخدومة من طرف باحثين سابقين، إلى حد أن الباحث اللاحق، قد يلقى نفسه وكأنه المعني بقول عنترة وهو ينعي التجديد والمجددين في الشعر :

هل غادر الشعراء من متـــردم ؟

أو يجد نفسه واقعا تحت وطأة قول زهير بن أبي سلمى :

ما أرانا نقول إلا معـــارا أو معادا من لفظنا مكـــرورا

فضلت تبني الموقف الأول، ولعلني في ذلك سلكت السبيل الأطول حين اخترت موضوع الاستشراق ـ تفاديا لما عسى أن يحدث من تكرار موضوعات، أو توارد خواطر ـ ولجدة الموضوع وجديته، استنجدت بالخارج، برفيق الدراسة صديقي الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى الأستاذ بجامعة مانشيستر، ليتصل بعلماء المشرقيات الانكليز، علهم يفيدون بما قد يكون جد في أوساطهم من

بحث أو دراسة تتعلق بأبي الفضل عياض. وتلقي على موضوع البحث نورا ساطعا لياحا. وضوءا كاشفا وضاحا. ولم يبخل الدكتور الكفراوى - كعادته بجهده المشكور وسعيه الحميد. فأجابني بما لا أضن بإيراده. هنا. اعترافا بالجميل وتعميما للفائدة. قال حياه الله وبياه :

ومن جهة القاضي عياض. قد بدأت أجمع ما أستطيع جمعه عنه. رجعت إلى فهرس المكتبة فوجدت له بها الكتب التالية :

- الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع : تحقيق أحمد صقر.
- تراجم اغلبية. مستخرجة من مدارك القاضي عياض : (تحقيق محمد الطالبي).
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك : (تحقيق أحمد بكير محمود).
- كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: (استانبول - مطبعة خلوصي افندي).
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار في تفسير غريب موطا مالك : (طبعة فاس).
- شرح الشفاء للقاضي عياض (المسمى نسيم الرياض) : بولاق - بدون ناشر).

وإذا كان من الصعب الحصول على بعض هذه الكتب فإنني مستعد لذكر مقتطفات منها. والتعريف بها وإرسال ذلك لسيادتك.

«ومرفق بهذا ترجمة القاضي. صورتها. بما يسمى «زيروكس» من نسخة حديثة لدائرة المعارف الإسلامية لأنني وجدت فيها معلومات دقيقة. وخشيت أن تكون نسختها الحديثة غير موجودة عندكم. وفي آخر المقال مراجع مفيدة.

هذا ما استطعت عمله الآن. ولكني سوف أواصل البحث عسى أن أحصل على مراجع أخرى أو مؤلفات للقاضي عياض. لم يرد ذكرها فيما سبق. وأنا دائما أرحب وأتشرف بأية خدمة لسيادتك».

وفي مراسلة أخرى لاحقة كتب الدكتور الكفراوي قائلا :

«وبعد. فقد أخبرني رئيس القسم العربي بالمكتبة. أن إحدى الطالبات العراقيات قد عثرت على مخطوطين للقاضي عياض. فاجتهدت في معرفتهما. ظانا أنهما من الأهمية بمكان، ولكن لما أرسلت لي ردها في الخطاب المرفق بهذا. عرفت أنهما ما داما في الرباط فلا بد أن تكون سيادتك قد اطلعت عليهما. وقلت في نفسي : انني كمن يحمل التمر إلى هجر. أو الفحم الى نيو كاسل (2) ومع ذلك أرسلهما إليك من باب الاحتياط».

وينص خطاب الطالبة العراقية الآنسة صباح الشيخلي على ما ياتي :

«من كتب القاضي عياض اليحصبى السبتي كتابان باقيان في المغرب :

أولهما : فهرسه الذي يحمل إسم «الغنية» ويحتوي على ترجمة القاضي عياض لأساتذته الذين أخذ عنهم مباشرة بالمغرب والأندلس. وأضاف لهم أشياخا لم يلقهم وروى عنهم بالمكاتبة. وأحد هؤلاء من تونس. وآخرون من الشرق العربي.

وفي الفهرس نجد ملامح العلاقات الثقافية بين المغرب والأندلس. وأيضا مع تونس والشرق. والفهرس لا تزال مخطوطة في الخزانة العامة في المغرب تحت رقم د 1807.

ثانيهما : «النوازل». قام أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض بتدوين النوازل الفقهية. حيث جمع فتاوى والده وأسئلتها وأضاف لبعضها - أحيانا - ما يناسبها من فتاوى القيروانيين والأندلسيين وغيرهم. وترجم هذا المجموع باسم «مذاهب الحكام في نوازل الأحكام» حيث توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 4042.

● دائرة المعارف الإسلامية -

والآن لنعرج على دائرة المعارف الإسلامية. لنتصفح بها ما ورد عن القاضي عياض ولكن الدائرة لا تكاد تأخذ بيدنا في رفق. وتدخل بنا مباشرة في حمى

الموضوع. لأن المقال بها، لم تحرره أنامل مستعرب أو مستشرق، بل حررته أنامل كاتب عربي هوالدكتور محمد الطالبي الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة التونسية الشقيقة، ولكن الذي يشفع لنا في هذا، ويجعلنا خائضين ـ فعلا ـ لجنة البحث المطلوب، هو أن الدكتور الطالبي يعد ـ من باب أولى ـ من علماء المشرقيات، وأن دائرة المعارف الإسلامية وضعت ليطلع عليها قراء الانكليزية من العرب والمستعربين والمستشرقين وغيرهم ممن يهتمون بالمباحث المشرقية عموما، والعربية والإسلامية خصوصا. كنت حسبتني في غنى عن ترجمة القصاصة التي تفضل بإرسالها الدكتور الكفراوي لأني ظننت أن الترجمة العربية للدائرة في متناول الجميع، وأني سأكون بالنسبة لهؤلاء، «كمن يحمل التمر إلى هجر، أو الفحم إلى نيوكاسل» ـ على حد تعبير الأخ الكفراوي ـ أو أني سأكون كما قال العلامة ابن عطية مخاطبا ابن الخطيب :

«مثلي مثل من أهدى الخرز إلى جالب الدر، أو عارض للوشل موج البحر أو كاثر بالحصى عدد الأنجم الزهر».

ولكنني عند البحث، وجدت الترجمة العربية للموسوعة القيمة، ما زالت تتعثر في الحروف الأبجدية الأولى، ولعل إكمالها يحتاج إلى عقود أخرى من السنين... لذا أراني مضطرا لتعريب ما ورد بالقصاصة مع ذكر ما قد يعن من تعقيبات لا تمس جهود الأستاذ الطالبي الذي يستحق منا كل تقدير واعتبار.

تقول دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الانكليزية ما يلي :

عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي القاضي (476هـ ـ 1088م ـ 544هـ / 1149م) كان من أشهر علماء المذهب المالكي في المغرب الإسلامي ـ حياته تكاد تتطابق بالضبط مع حياة الأسرة المرابطية المالكة التي ظل خلال حياته مرتبطا بها غير ذي عوج أو التواء.

أسرته اليمنية الأصل بواسطة يحصب، هاجرت إلى المغرب في وقت جد مبكر، وأخيرا استوطنت سبتة، بعد أن سكنت في بسطة باسبانيا المسلمة، وفي فاس، وكذلك في القيروان في تاريخ غير محدد. جده الأعلى عمرون كان أول

أفراد أسرته كسبا للشهرة، بسبب معرفته التامة بالقرآن، وفوق كل شيء، بسبب خدمته تحت إمرة الطائر الصيت المنصور، ابن أبي عامر، أنه هو الذي غادر فاس بكل ثروته - ومن المحتمل أنه اقتناها من خدمته المنصور - ليستقر في سبتة، حيث مات سنة 397هـ - 1007م، وحيث تمتعت سلالته بمرتبة عالية من بين نبلاء المدينة.

من بين هؤلاء جميعا، كان عياض أكثرهم شهرة، وأعلاهم صيتا، على إثر إتمامه دراساته في مسقط رأسه، ذهب في سنة 507هـ - 1113م، بغية تسديد معارفه، لا إلى المشرق - الذي لم يزره قط، حتى لأجل الحج - بل إلى اسبانيا.

إن عبارة «المشرق» في «صلة» ابن بشكوال (طبعة النواوري) و«السمط» (مخطوطة المكتبة الوطنية بتونس، عدد 1396 ص. 10) الواردة عند الحديث عن الدراسات التي قام بها عياض تحت إشراف أبي علي الصدفي، يراد بها شرق اسبانيا، لا المشرق، كما وقع توضيحه في «المعجم» الذي خصصه ابن الابار لتلاميذه الآنفي الذكر. إن السفر التقليدي للدراسة (الرحلة)، دام نحو سنة واحدة، توافر لعياض خلالها حوالي مائة أستاذ كرس لذكرهم كتابه «الغنية» (ما يزال مخطوطا) من ضمن هؤلاء (الأساتذة) ابن حمدين (439هـ - 1047م - 508هـ - 1115م) الخصم الأكثر إذاية الإحياء للغزالي، وأبو بكر ابن العربي (468هـ - 1075م - 543هـ - 1149م) الذي قابل الغزالي بالمشرق وادخل - فيما يحتمل كتابه (الاحياء) إلى المغرب واسبانيا عام (493هـ - 1100م)، ثم المحدث الشهير أبو علي الصدفي المتوفى سنة 514هـ - 1120، 1121م):

بعد عودة عياض إلى سبتة، تقلد خطة الشورى، ثم في سنة 515هـ - 1122م تولى منصب القضاء بمدينة أسلافه (سبتة) وفي فاتح صفر 531 أكتوبر 1136 عهد إليه بمنصب قاضي غرناطة، ولشخصية عياض العظيمة خصص له مقر إقامته الجديد حفاوة، فاستقبله استقبال الفاتح المظفر، كان الظفر ابن ساعته، إذ سرعان ما اعتبر صارما أكثر من اللازم، فعزل بعد بضعة أشهر، بطلب من الأمير، تاشفين، حاكم المدينة حينئذ، لكن موت تاشفين (26 رمضان 539هـ / 23 مارس 1143م)

أعاد له الحظرة لدى المرابطين المتمايلين الآن للسقوط فحوالي نهاية عام (539هـ ـ 1145م) عينه مرة أخرى القصير العمر (الأمير) ابراهيم ابن تاشفين قاضيا لسبتة. حيث كان عليه أن يلعب دورا سياسيا ذا أهمية أولى. يؤثر مترجمو حياته ـ بخلاف المؤرخين ـ أن يظلوا إزاءه جد كتومين.

عياض كمالكي مقتنع ومكافح كون في الحقيقة مركزا لمقاومة الموحدين في سبتة. وبعد الفوز النهائي لهؤلاء الآخرين. نفوه أولا إلى تادلة. وسط القبائل الرحالة. ثم بعد ذلك وبصحبة وجهاء آخرين من المدينة المشتبه فيها. أرسل إلى الإقامة الإجبارية بمراكش. توفي مغموما منهوكا في سابع جمادى الثانية (544هـ ـ 13 أكتوبر 1149م.

وبصدد موت عياض. يذكر الكاتب أسطورتين : إحداهما تنسب موت عياض المفاجىء في الحمام إلى دعاء الإمام الغزالي عليه. والأخرى تزعم أن المهدي بن تومرت أمر بقتله. لأنه كان يمارس اليهودية سرا. ثم يضيف قائلا : «لم يكن عياض خلوا من موهبة أدبية. بل كان عالما بالحديث بارعا. وكان فقيها حقيقيا أصيلا من فقهاء عهد المرابطين. مستقيم الرأي في صرامة بالنسبة إليه. لم تكن توجد إلا حقيقة وحيدة منفردة هي التي تعلمها من مالك ومدرسته.

ألف ما يزيد على عشرين كتابا لم تبق كلها. وأشهر المطبوع منها : (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) الذي حقق نجاحا هائلا. وما زال يواصل القيام بدور هام في مجال التدين الشعبي. ثم كتاب (مشارق الأنوار على صحاح الآثار) وأخيرا (ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك) الذي لا يزال يعتبر توضيحا لمذهب مالك وأحسن دفاع عنه».

والآن نعقب بإبداء الملاحظات :

الاولـــى :

شكلية تتمثل في التاريخ المسيحي لميلاد عياض. فهو 1083م لا 1088م وفي التاريخ الهجري لوفاته فهو تاسع جمادى الآخرة لا 7 جمادى الآخرة. والغالب أن الخطأ مطبعي فالأرقام 3 ـ 8 ـ و9 ـ 7 في شكلها العربي متشابهة خطا.

الثانيـــة :

نستبعد إثراء عمرون نتيجة خدمته لابن أبي عامر، ذلك لأن عمرون وأباه (أو آباءه) كانت لهم بفاس نباهة، وبالقيروان مآثر، ولأنه هو نفسه، كان خير صالحا حج إحدى عشرة حجة... ومن كانت هذه حاله، لا يكون حديث نعمة أو تاجر حرب.

الثالثـــة :

نستبعد أن يكون القاضي، قد كون في سبتة مركزا لمقاومة الموحدين، وهم الذين أولوه كامل رضاهم على إثر مبادرته إلى الاعتصام بحبلهم المتين، ثم إذا ثارت مدينته عن غير رضى منه فإن من سياسة الحكم إبعاده عن مركز الأحداث، حتى لا يقع ضحية سوء فهم أو ظن (إن بعض الظن إثم).

ـ دائرة المعارف العالميـــة ـ

في جولتي للبحث عن زاد تقتات به هذه العجالة، أممت ساحة، (الموسوعة العالمية الموضحة الأوربية الأمريكية) هذه الموسوعة هامة جدا، وتتضح أهميتها من ضخامة حجمها فهي تحتوي على أكثر من ستين مجلدا ضخما، كما تتضح تلك الأهمية من أنها صدرت بمعظم اللغات الحية، الإسبانية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية والبرتغالية والقطلانية والاسبرانتيو.

حرر مادة «عياض» في هذه الموسوعة، كاتب ينتمي إلى الأكاديمية الملكية الإسبانية للتاريخ كتم اسمه فبقي لدينا مجهولا، تقول الموسوعة العالمية في المجلد الثامن والعشرين صفحة 2.300 طبعة 1926م ما يلي :

«عياض بن موسى» فقيه عربي شهير، ولد في سبتة ومات في غرناطة هكذا بكل بساطة عام (544 هـ من الهجرة 1149 من الميلاد)، شغل منصب القاضي في هاتين المدينتين وألف كتابا بعنوان (ترتيب المدارك وتقريب المسالك) وهو

مجموعة ترجمات لرؤساء مدرسة مالك، أثنى عليها حاجي خليفة ثناء عطرا، امتلك منها نسخة حديثة، ذات خط ليس بالجيد جدا.

ها أنتم ترون ضآلة المؤنة وشحها وضحالة مادة عياض بالموسوعة علاوة على ما بها من خطأ تاريخي واضح يتعلق بمكان وفاة المترجم له، فهو مدينة مراكش وليس مدينة غرناطة. فلنعرج على كتاب اخر هام هو :

تاريخ الأدب العربي الإسباني :

ألف هذا الكتاب، المستشرق الاسباني الراحل (آنخيل كونثاليث بالينثيا وطبعه لأول مرة سنة 1928م، ثم سنة 1945م صدرت طبعته الثانية مزيدة ومنقحة، وهي التي ترجمها الأستاذ الدكتور حسين مؤنس المدير السابق للمعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ونشرت الترجمة بالقاهرة ضمن مختارات الإدارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية.

لقد صدر ننثل الاستشراق الإسباني في الوقت الحاضر الأستاذ (ضون اميليوغرسيا كوميث) الترجمة العربية بكلمة اسبانية رقيقة جاء فيها :

«وهذا بالضبط ما كان ينوي عمله، وأحرز فيه نجاحا كبيرا. ذلكم الباحث الذي لا يكل ذلكم النشيط العديم النظير، المسمى (ضون آنخيل كونثاليث بالينثيا)، الذي ابتسر المنون حياته قليل الأوان في أكتوبر 1949م. فكانت مفاجاة مفجعة لما نشف من ألمها بعد».

ثم يختم كلمته الطويلة قائلا :

«على أي حال فإني لأجل ذلك كله، أعتبر ترجمة كتاب زميلي المأسوف عليه، إلى اللغة العربية حادثا فائقا للعادة. وعند إزجاء الشكر لصديقي الأستاذ حسين مؤنس على قيامه بالترجمة أسمح لنفسي بأن أتمنى لهذه الفسيلة التي يغرسها اليوم بيده الصناع في الحقل المشترك أن تصبح في القريب شجرة كبيرة يستظل بوارف ظلها هؤلاء وأولئك في سلام الأخوة والعمل».

لقد بذل الدكتور مؤنس مجهودا كبيرا في ترجمته الحرة التي أطلق عليها إسم «**تاريخ الفكر الأندلسي**». **لذلك جاءت موسعة فشغلت حيزا 727 صفحة من** الحجم المتوسط بينما الأصل الإسباني لم يتعد 362 صفحة من القطع الصغير. وسنعتمد هنا النص الإسباني الأصيل مع مقارنته أحيانا بالترجمة العربية.

تناول المستشرق (كونتاليث بالينثا) موضوع القاضي عياض في موضعين من **كتا به** القيم.

أولهمـــا :

ضمن عنوان : كتب الترجمة والمعاجم الخاصة» من الفصل الخامس المخصص للتاريخ. وذلك في صفحتي 196 ـ 197. من الأصل الإسباني. حيث كتب يقول :

«أما القاضي عياض (1083 ـ 1149م) فأصله من بسطة. ولد في سبتة ودرس في قرطبة. حيث قضى أياما سعيدة كما يقول في شعر له. على ابن عتاب وابن رشد وآخرين كثيرين. تميز في التاريخ القديم وأنساب العرب. والنحو وتأليف المعاجم. وفقه اللغة. والحديث كانت له صداقة ومراسلة مع العالم الصوفي من أهل المرية : (ابن العريف). تولى قضاء سبتة لمدة طويلة «من مؤلفاته يذكر» : تاريخ للقرطبيين وآخر حول مصادر عن تاريخ سبتة وآخر عن طبقات المالكيين مع أخبار عن بعض الفقهاء والعلماء بالأندلس والمغرب. أكملها المقري في كتابه أزهار الرياض (طبعه بالقاهرة سنة 1939م المعهد الخليفي بتطوان) ومن كتبه أخيرا كتاب يجله المسلمون ويتضمن تاريخ حياة محمد وعاداته».

وهنا أبدي ملاحظات آمل أن لا يضيق لها صدر الباحث المقتدر والمؤلف العظيم الدكتور مؤنس :

1) في الفقرة الأولى يصرح المستعرب الإسباني الراحل (يالينثيا) أن القاضي عياضا درس في قرطبة على ابن عتاب... الخ.. وهذا لا ينفي في نظرنا أنه درس في مسقط رأسه سبتة. إذ الجميع يقر بأن عياضا تعلم وتفقه في بلده. ثم أخيرا قام برحلة علمية قصيرة استمرت نحو سنة. اتصل خلالها بأساتذة قرطبة

ومرسية، وذلك سعيا وراء تحقيق المخطوطات ومقابلتها، وطلبا للسند العالي ولتبادل المعلومات والإجازات العلمية.

والترجمة العربية لهذه الفقرة لم تكن موفقة من وجهين :

أ ـ أنها جعلت ابن عتاب وابن رشد رفيقين لعياض في طلب العلم، مع أنهما كانا أستاذين له في الواقع وسيصرح الدكتور مؤنس بهذا في الموضوع الثاني التالي الذي سيذكر فيه القاضي عياض.

ب ـ أنها ترجمت «ابن عتاب بـ : أبي محمد بن عتاب» وأبو محمد هذا، هو عبد الرحمان بن أبي عبد الله محمد بن عتاب بن محسن الجذامي، ثم عادت الترجمة فنصحت في صفحات التصويبات بحذف كلمة «أبي» من الكنية، فبقي اسم محمد مجردا، فصار كأن أبا عبد الله محمد بن عتاب هو أستاذ عياض مع أن هذا ولد بعد موت ذلك بنحو أربع عشرة سنة.

2) الفقرة الثانية أثناء تعداد معارف القاضي عياض أورد المترجم عبارة... **واللغة والصرف «ترجمتين لكلمتي ليكسيكوغرافيا وفيلولوخيا مع أن الكلمة الأولى تعني تأليف المعاجم والثانية تعني اللغة أو علم اللغة. أما الصرف فله كلمة أخرى هي ايتيملوخيا».**

3) في الفقرة الثالثة، خلال تعداد مؤلفات عياض، وردت في الأصل كلمة **(فوينتس FUENTES) تعني (مصادر) أو فنونا، وتعني أيضا عيونا، لكن الصناعة العربية والوصف بكلمة الستة يقتضيان أن يكون عنوان الكتاب الحقيقي هو الفنون الستة... ولو كان الكتاب موجودا لاتضح الصبح لذى عينين ولكن الكتاب للأسف مفقود.**

وثاني الموضعين : الذي ذكر فيه القاضي عياض هو الفصل الثامن المتعلق بعلم الحديث يقول المؤلف في ص. 265 من كتابه ما يلي :

«القاضي عياض السبتي (1085 ـ 1149م) تلميذ ابن عتاب وابن رشد من بين (أساتذة) آخرين كثيرين. ألف كتابا بعنوان : (الإلماع) : نظرية عن الحديث ومصادره ومبادئه علاوة على معجم عن حياة المالكيين».

كلام مقتضب وجيز. تحدث فيه المؤلف عما أسهم به عياض في ميدان التأليف في علوم الحديث وهو قليل من كثير. كان يمكن أن يؤتى به في هذا المجال. فللقاضي عياض كتب أخرى في الحديث هامة ككتابه (مشارق الأنوار)، و (اكمال المعلم) الذي وقع التنافس بشأنه. فنسج شراح مسلم على منواله بالشكل التالي :

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو الشارح أو المكمل	عصره
صحيح مسلم	أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري	204 ـ 261 هـ
الكتاب المعلم بفوائد مسلم ...	أبو عبد الله محمد بن علي التيميمي المازري ...	توفي سنة 536
اكمال المعلم بفوائد مسلم	أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي ..	476 ـ 544 هـ
اكمال الاكمال	أبو الروح عيسى بن مسعود الحميري الزروالي	توفي سنة 774
اكمال الاكمال	أبو عبد الله محمد بن خالفة الوشتالي الابي	توفي سنة 823 هـ
مكمل اكمال الاكمال	أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي التلمساني	839 ـ 895 هـ

أجل كان في الإمكان أن يتحدث المؤلف عن أبي الفضل عياض، في الفصل الطويل الذي كرسه للحديث عن الشعر أو في الفصل الذي خصصه للفقه، لكن الواجب يقتضي أن نعذر المؤلف إما لعدم توفره على كتب أخرى لعياض كانت تفتقر إلى مزيد من التنقيب والاستكشاف، وإما لتحريه الإيجاز في التأليف لا الاسهاب ولفت أنظار الباحثين - وخاصة المستعربين منهم - إلى هذا المجهود الفكري الذي بذله أبناء العدوتين (الأندلس والمغرب) فأسهموا به في إثراء جانب مهم من جوانب الحضارة الإنسانية.

ونلاحظ في النص الخطأ المطبعي في سنة ميلاد عياض وقد تكرر هذا الخطأ في الترجمة العربية ونلاحظ كذلك أن التوسع في الترجمة أوقع السيد المترجم في خطأ إذ ذكر من بين أساتذة عياض «أبا القاسم بن النحاس وابن بحر» والواقع أن أساتذته هما : أبو القاسم خلف بن ابراهيم بن خلف بن سعيد المعروف بابن النخاس - بالخاء المعجمة - وبابن الحصار، ثم أبو بحر سفيان بن العاصي الأسدي المتوفى سنة 520 هـ.

- علم الإســـــلام -

ومن الكتب الهامة التي تعرضت للقاضي عياض، كتاب ألفه عن الإسلام، الأب (فيليكس ماريا بار) بالتعاون مع الدكتور (اليساندروبا وساني) والدكتور (لونفيك فون هرتلينك)، وصدر أولا باللغة الايطالية ثم صدر بالإسبانية في أوائل الخمسينات، وأضاف إليه الدكتور (الياس تيريس) ملحقا عن الأدب الأندلسي يتألف الكتاب من مجلدين مجموع صفحاتهما 1104 صفحة من القطع الكبير، المجلد الأول : مخصص لتاريخ العالم الإسلامي، والثاني مخصص للمؤسسات والنظم الإسلامية، وهو الذي يعنينا هنا حيث ورد فيه ذكر القاضي عياض ثلاث مرات.

أولا :

في ص. 584. من الفصل الثامن الذي يعالج العقيدة والأساس الأولي لعلم الكلام يقول الكتاب : الأفكار الالهية غير المتسلسلة التي عرضها محمد في القرآن كانت زادا كافيا للأجيال الأولى في الإسلام. إن جو الفتح والتوسع لم يكن ليلائم الأبحاث النظرية والتأملات العقدية إذ كان يكفي تلك الأجيال. أن تعرف أن الجهاد إنما هو في سبيل الله.

من المحتمل أن الشهادة - الركن الأول من أركان الإسلام - المتطلبة ممن يسلم فيسلم شخصه وماله. كانت مقصودة على الجزء الأول من الكلمة أو الشهادة (لا إله إلا الله) هكذا يمكن أن يستنتج من حديث قديم يتعلق بالحرب المقدمة (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله).

هذه رواية أبي هريرة (ض) لهذا الحديث ولعلها هي المقصودة بالحديث الأول أو الصيغة الأولى. أما الصيغة الثانية أو المتأخرة فهي رواية ابن عمر (ض) التي تقول : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله).

ويواصل المؤلفون حديثهم فيقولون :

والقاضي عياض في شرحه لهذه النقطة. يوحي بأن الاكتفاء بوحدانية الله في الشهادة يظهر أن الحديث في صيغته الأولى يتعلق بالحروب مع العرب الوثنيين. وتفهم منه ضمنيا الشهادة بنبوة محمد. حيث أنه بوساطته توصل العرب إلى التعرف على وحدانية الله. وفي وقت متأخر استلزم الإحتكاك باليهود والنصارى - وهم كذلك موحدون - الزيادة التي يعبر عنها الجزء الثاني من الكلمة أو الشهادة : (محمد رسول الله).

ثانيـــا :

في صفحات 614 ـ 616 من الفصل ذاته : يقول المؤلفون :

«العقائد الأكثر قدما. ترجع إلى عهود جد سابقة على عهد الغزالي وتسمى (الفقه الأكبر) حينئذ كان التمييز بين علم الكلام. (تيولوخيـ TEOLOGIA وبين الشريعة DEVECHE) ما يزال ينقصه الضبط. والدقة. فالأولى (علم الكلام) هو الذي كان يسمى الفقه. وكان اسم الفقيه في العادة لا يدل على عالم بالشريعة كما هي الحال الآن. بل على عالم بالالهيات.

«أكبر عقيدة معروفة هي المنسوبة إلى أبي حنيفة وليست هناك حجج كافية تسند تلك النسبة. لكن محتوى العقيدة هو انعكاس لأفكار ذلك العالم عن المسائل الاعتقادية الرئيسية التي كان يثور حولها الجدل في أيامه. كمسألة خلق القرآن. طبيعة الإيمان. الأعمال. التشبيه. الاختيار الجيز الكلام. وبصفة مبدئية محاربة القدريين وأوائل المعتزلة.

«من بين العقائد المعروفة جيدا. عقيدة الطحاوي (تـ : 321هـ ـ 933م) وعقيدة الغزالي وكلتاهما. في الإحياء وإحداهما كتبت لتحفظ في المدارس عن ظهر قلب ثم عقيدة النسفي وعقيدة القاضي عياض وعقيدة الرازي (تـ : 209هـ ـ 606م) وعقيدة السنوسي عالم الالهيات المغربي التلمساني وعقيدة المصري الفضالي (تـ : 1236هـ ـ 1821م) وكل هذه العقائد تقريبا توجد مترجمة إلى اللغات الاوربية».

ثالثـــا :

في صفحة 698 تحت عنوان المعجزات الوارد في الفصل 16 المعنون هكذا (محمد في الإسلام) تكلم المؤلفون هذه المرة عن معجزات محمد كلها تقريبا مذكورة في الشفا كانشقاق القمر وتكثير الطعام ونبع الماء من بين أصابعه. (ص) وابراء المرضى. وإحياء الموتى. ثم أضافوا قائلين :

«في القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري كانت بدأت تظهر مصنفات مسهبة تتعلق بتلك المعجزات. وكان آخر المؤلفين الأوائل المعتزلين الجاحظ المتوفى (256هـ - 869م) وتبع هذه المصنفات الأولى كتب أخرى منقحة ومزيدة إلى أن نصل إلى كتب مثل المنوه به : كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) لمؤلفه القاضي عياض بن موسى المربى في قرطبة والمتوفي في مراكش.

كتاب الشفا هو من القداسة بالنسبة للمسلمين لدرجة أن الدار التي يوجد فيها تكون بمنجاة من الآفة، وأن السفينة التي تسقه تكون آمنة من الغرق، والمريض الذي يقرأه يظل بعيدا عن الخطر. للشفا شروح كثيرة وفي أحد أبوابه عن إطلاع النبي على الغيوب يبرز القاضي عياض، أن الأحاديث في هذا الموضوع بحر عميق الغور، مجهول القعر، ولا يستطيع أحد أن يستنفد مياهه.

وختاما، لا يسعني إلا أن أنوه بجهود العلماء الأفاضل، مشارقة كانوا أو مغاربة، عربا أو مستعربين أو مستشرقين، أحياء كانوا أو أمواتا، - رحم الله الجميع، - فبفضل خدماتهم التي أسدوها بطريق مباشر أو غير مباشر، أعانوا على إنجاز هذه الدراسة، وأسهموا في إنجاح الندوة المباركة التي احتضنتها مؤسسة يوسف بن تاشفين ومدفن القاضي عياض : مدينة مراكش الجميلة.

وسلام الله عليكم ورحمته تعالى وبركاته.

عياض بين سبعة رجال

للأستاذ رضا الله إبراهيم الإلغي

بسم الله الرحمن الرحيم

عيـاض بيـن سبعـة رجـال

إذا كان ولا بد من تقديم فذلكة بين يدي هذا البحث المتصل بموضوع التصوف ورجاله أصحاب عياض في وقته.. فهي :

• أن معظم الذين بحثوا في الملل والنحل ومقارنات الأديان - أمثال الدكتور أحمد شلبي في كتابه المقارنات - أطبقوا على أن التصوف بمعناه الواسع عريـق الجذور وعميق الأصول والمنابع بين الأمم.. مما جعله نزعة إنسانية مشتركة تنبثق من أعماق الإنسان الكامل الإدراك المتهيء لاستعمال النظر والفكر لاستكشاف ما وراء مظاهر الطبيعة من عالم علوي وقوة روحية خارقة تخلص نفس الإنسان من أدران الحيوانية وأغلال الشهوات المادية السفلى... إلا أن هذا التصوف البدائي وإن تربى في أحضان بعض الأديان السماوية الأولى قد علقت به شبهات وطقوس لا تخلو من أعمال الوثنية وشوائب الهرطقة وشظايا من الأمم الخوالي.

• وأن التصوف الحق هو الإخلاص في عبادة الإله الحق والإحسان في مناجاته والتوجه إليه : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك - الحديث الشريف... إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين.. الآية الكريمة...

• وأن التصوف الإسلامي - كما نراه في كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم - لم يظهر دفعة واحدة وعلى حال ثابت جامع « بل هو وليد فترات متعاقبة ابتدأت

بعهد النبوة ثم امتدت عبر القرون والأجيال » ففي كل فترة يظهر النصوف الإسلامي في حلة مغايرة أو مشابهة للتي قبلها والتي بعدها. غلبت عليه في العصر الأول حالة الزهد والورع أيام الصحابة والتابعين وتابع التابعين. ثم شاعت فيه تيارات ووجدانيات ومعتقدات لم تكن شائعة في الصدر الأول. ثم جاء عصر المشايخ الكبار الذين قعدوا التصوف وجعلوه مذهبا متميزا بين المذاهب الأخرى ودونوا ما يجب له من شعائر وأخلاق وتبعات.

● وفي المغرب عرف التصوف نفس الأطوار على ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته وبسطه ابن الزيات التادلي في كتابه التشوف إلى رجال التصوف والغبريني في كتابه عنوان الدراية. هؤلاء وغيرهم سجلوا ما كان عليه التصوف ورجاله في هذا الجناح المغربي منذ أقدم عهوده الى العصر الذي أدركوه وهو يبتدىء بالدولة المرابطية وما بعدها الى عهد المرينيين. إذ أن حظ المغرب في مقام التصوف كان مضرب الأمثال في تلك الفترات المتتابعة فلقد كان يوصف بأن أرضه تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ. وأن بعض مدنه وقراه هي مقر الصالحين كمدينة سلا ومدينة مراكش وجبل العلم وأزمور ودكالة وغيرها. حسبما أطنب فيه وأبدع أحمد بن الخطيب المعروف بابن قنفذ في كتابه أنس الفقير وعز الحقير وهو الذي تقصى بقدمه أقطار المغرب مدنه وقراه باحثا عن رجال التصوف ونسائه. يلقاهم شخصيا ويتحدث إليهم أو يلقى من لقيهم ويحدثه بأخبارهم. وسجل في ذلك معلومات وتراجم وأخبارا قل أن توجد في كتاب آخر. ولعل أعظم ما فيه هو ما شاهده بنفسه وحضره وعاينه بعينه. وذكره في ص 71 (طبعة المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط) من أنه حضر في أرض دكالة في مكان معين على ساحل البحر المحيط بين آسفي وأزمور موسما صوفيا ينعقد كل سنة بمناسبة شهر ربيع النبوي. وأنه حضر الموسم المنعقد عام 769 هـ وقت قضائه بدكالة قائلا : وحضر من لا يحصى عدده من الفضلاء ولقيت هناك من أخيارهم وعلمائهم وصلحائهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم ومما يدل على كثرتهم أن **أحد الدكاليين اشترى لهم عنبا بثلاثين دينارا ذهبا** ـ وهو مبلغ كبير جدا ـ ولم

يكفهم لكثرتهم، الى أن قال : ورأيت في ذلك الجمع العظيم والمشهد الجسيم غرائب وعجائب - ذكر بعضها - لا يرى مثلها أبدا. وفي فصل آخر ذكر عـــدد الطوائف ومشايخها وأخبارها.

وإجمالا فإن هذه الفترات من تاريخ التصوف المغربي تعد من أخصب عهود التصوف الإسلامي على الإطلاق، يكفي أن تلقى نظرة على ما تضمنته المؤلفات المشار إليها لتعلم مدى القوة المتصوفة ونفوذ أشياخها على عامة الناس وخاصتهم بما في ذلك الأمراء والسلاطين وسائر الحكام، إذ كانت زياراتهم متأكدة وشفاعاتهم مقبولة ونافذة.

وفي غنى عن تسطير أسماء مشاهيرهم الأوائل كابن حرزهم وأبي ينور وأبي يعزى وأبي شعيب السارية وابن مشيش وابن العريف والهزميري وأمغار وأبي محمد صالح وابن عباد وابن غالب وغيرهم وغيرهم..

أكتفي بالإشارة إلى أن جماعة عياض السبعة الذين يساق إليهم هذا الحديث ظهروا كلهم في هذه الفترات الخصبة ما بين القرن الخامس والقرن العاشر رضي الله عنهم أجمعين.

وبعد ،

الملاحظ قبل كل شيء أن هناك فراغا مشينا في ترجمة الإمام القاضي عياض، وذلك أن الذين تناولوا مراحل حياة عياض العائلية والعلمية والأدبية والوظيفية، بينوا بإسهاب أصل آبائه الأولين المنحدرين من يحصب إحدى قبائل حمير باليمن وأنهم تنقلوا ما بين القيروان وبسطة وفاس قبل أن يستقر جده الأدنى عمرون بسبتة حيث ولد عياض في عام 476 هـ من والده موسى بن عياض بن عمرون، ونشأ وتعلم ونال درجة عالية في العلم والأخذ والرواية عن شيوخ بلده وهم كثيرون من طبقات متعددة ثم شد الرحلة الى حواضر الأندلس ليستكمل الرواية والسماع من شيوخها الأكثر علما والأغزر رواية، ثم قعد للتدريس في بلده وتأليف كتبه العديدة والمتنوعة التي لانظير لها في الإسلام ككتابه «مشـــارق الأنوار» وكتاب «المدارك» وكتاب «الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى»، الذي لم يبق

بيت في المشرق والمغرب إلا دخله هذا الكتاب. كل ذلك بينه الكاتبون عن عياض بما يكفي ويشفي كما بينوا وظائف القضاء والإمامة والخطابة التي تولاها ببلده وبغرناطة. إلى غير ذلك مما افاضوا فيه. ولكنهم سكتوا، أو كادوا، عن المرحلة الأخيرة من حياته المتعلقة بانتقاله طوعا أو كرها من بلده سبتة الى مدينة مراكش. وكل ما قالوه، أو بالأحرى أشاروا إليه، أن الموحدين نكبوه وأزعجوه بالخروج من بلدته الى عاصمتهم، دون أن يبينوا بوضوح كمؤرخين الأسباب المباشرة والقاضية بذلك الإخراج. هل كان من جملة أهل بلده الذين انتقضوا وثاروا ضد عبد المؤمن وحكامه، هل كان من زعماء هذه الثورة والداعين والمناوئين بالفعل وبالسلاح هذه الدولة الجديدة مع أن من الثابت أنه وفد على عبد المؤمن وهو نازل بسلا في بعض حركاته، وما هي بواعث هذه الثورة. هل تعود الى تمسك أهل سبتة بالولاء والبيعة والوفاء للمرابطين الذين ما زالت بعض فلولهم تقاوم هنا وهناك، أم أنها راجعة إلى شعارات التشيع : الإمامة والعصمة والمهدوية، التي جعلها ابن تومرت ركائز دعوته وأساس دولته، وهل صدر حكم بات أو أمر نافذ ضد عياض في هذا الشأن، أو هو نفسه اثر أن يخرج الى مراكش من تلقاء نفسه ريثما تهدأ العاصفة أو يتاح له أن يسوي الأمر في عين المكان بنفسه مع أولي الأمر. إنني أميل شخصيا الى هذا الاحتمال الأخير لأننا نرى من يروي أنه مر في هذه الوجهة بفاس وأقام بها زمنا في دار مازالت معروفة بالعين بها كما أكده غير واحد، وأن طلبة اجتمعوا به وسألوه عن مسائل يتعلق بعضها بحقيقة نسبه، وأنه مر ببلدة داي - وهي بلدة الصومعة في أرض تادلا - ونظم فيها قطعة مؤثرة جاء فيها :

لعلك مثلي يا حمام فإنني ... غريب بداي قد نقلت لدائي
فكم بين داي من فلاة وسبتة ... وخرق عظيم الخافقين خواء

وقيل أنه كان قاضيا بداي إذ ذاك، لذلك قال : نقلت.. ولكن هذا لا يتفق مع مجريات الأحوال ومع قصر المدة التي بين خروجه من سبتة ومماته بمراكش

وهي ما بين 43 و 544. وكذلك مماته فإن غموضا كثيفا يكتنفها. قيل أنه مات فجأة بالحمام وقيل مات مسموما أو مخنوقا وقيل أن سبب موته دعاء الغزالي عليه لما بلغه مشاركته في إحراق كتابه الإحياء، وأشياء أخرى قيلت في هذا الصدد كما قيلت في سبب موت معاصره أبي بكر بن العربي الذي وافته منيته عام 543 وهو في طريقه من مراكش الى فاس في ظروف غامضة مشابهة لظروف عياض الذي وافته هو أيضا منيته عام 544 أي بعد موت ابن العربي بقليل. الأمر الذي يفترض معه أن هناك يدا خفية كادت للعالمين الجليلين معا اللذين كانا محظوظين أيام الدولة المرابطية وخانهما الحظ في الدولة الجديدة. ولعل هذا ما قصده من قال يلمز الموحدين « سموا ابن العربي وخنقوا اليحصبي ».. وجوانب أخرى بقيت خفية ومجهولة في حياة عياض الأخيرة.

إلا أن الذي يحز في النفس ولا نجد له مبررا معقولا هو سكوت ولده محمد في كتابه « التعريف بأبيه » عن هذه المرحلة المراكشية سكوتا تاما. وهو قد أفاض القول في سائر المراحل غير هذه التي تعنينا نحن بالذات. فلم يزد على أن أشار إليها في سطور بأنها نكبة. ولكن كيف كانت هذه النكبة وكيف تمت ونفذت. وما أعقب عنها. وما أخبار أبيه لما حل بمراكش. وما سبب موته. وهل كان أهله أو بعض أصحابه وتلامذته معه. وما مصير عائلته ومخلفاته بعده. كل هذا لا ذكر له في كتاب التعريف بأبيه. فكل ما نعرفه أن عائلة عياض انتقلت إلى مالقة بالأندلس وإن ولده المذكور تولى القضاء هناك وأن مؤلفاته ودفاتره وأصول كتبه وبطائقها وتقاييدها كلها بقيت في سبتة تحت يد ولده المذكور وعند تلامذته. مما يدل على أن أباه لم يأخذ أهبة السفر عند خروجه ولا أنه أخذ ما قد يحتاج إليه المسافر من دفاتر وكتب جرت العادة بمصاحبتها في السفر.

ولم تنسحب جريرة ذلك السكوت على الذين أتوا بعد عياض مباشرة. بل إننا نرى ذلك الإهمال يسري إلى الأجيال بعده. بما في ذلك أحمد المقري صاحب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض الذي جزأ كتابه الى روضات. خص كل روضة بناحية من نواحي عياض. وكانت الروضة السادسة هي التي في

ترتيب كتابه لذكر نكبة عياض وما أعقبها من أحداث. ولكنها ويا للأسف بقيت بيضاء لم يسطر فيها المقري حرفا واحدا. فياليت تلك الاستطرادات والاطنابات التي عرف بها المقري قدمت نفسها فداء لفقدان المواد الخاصة بالروضة السادسة.

ليت التي قد فدت عمرا بخارجة — فدت عليا بمن شاءت من البشر

وحتى قبر الإمام عياض الواقع عند باب أيلان بعيدا عن أمكنة العمران في ذلك الحين فإنه بقي مغمورا ومهملا أيام الموحدين كما نص عليه غير واحد. إلى أن جاء المرينيون فانتشلوه من وهدة الإهمال وأحيوه وميزوه بما يليق به من بناء وعمارة وترحم وكان بعض العارفين بقدره يقصده بقراءة كتاب الشفا حياله. مما جعل العامة يقصدونه للاستشفاء من الأمراض. وفي عهد السعديين والعلويين صار مزارة كبرى ولاسيما أن ضريحه مجاور لضريح مولاي علي الشريف جد الملوك العلويين الذين بنوا عليه قبة مماثلة للتي بنوها على جاره جدهم بعناية السلطان المولى رشيد.

وعلى أي حال فإن حلول عياض بمراكش كان خيرا وبركة على مراكش وعليه هو نفسه. إذ كرمته وعزته وأحلته المقام اللائق به بين صلحائها وأوليائها الأكرمين. أولئك الأصفياء الأتقياء المعتبرين كأنهم أوتاد البلد أو مصابيح الهدى والنور المعروفين بالسبعة الرجال.

ولكن لماذا لفظة السبعة بالذات ؟

ولماذا الرجال السبعة على التحديد ؟

عدد السبعة :

فيما يخص عدد السبعة طاب لي أن أنقل هنا ما كتبه الإمام ابن القيم في كتابه القيم « الطب النبوي » حيث قال عند كلامه على حديث الصحيحين من حديث عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من تصبح بسبع ثمرات من ثمر العالية لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر وفي لفظ : من أكل سبع ثمرات مما بين لابتيها حين يصبح لم يضره سم حتى يمسي. قال عند شرحه لهذا الحديث : إن خاصية السبع لها قدر وشرف شرعا.

فالسموات سبع، والأيام سبعة، والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار، والطواف سبع والسعي سبع، والجمار سبع، والتكبيرات في العيدين سبع، والطفل يومر بالصلاة لسبع، وصب عليه ص سبع قرب في مرضه، والريح على عاد سبع ليال، والصدقة كالحبة أنبتت سبع سنابل، وسنابل يوسف سبع، والسنون التي زرعوها سبع، والذين يظلهم الله يوم القيامة سبعة. الى أن قال : فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره، فالسبعة جمعت معاني العدد كله وخواصه، فإن هذا العدد شفع ووتر، والشفع أول وثان، والوتر كذلك، فهذه أربع مراتب : شفع أول وثان، ووتر أول وثان، ولا تجتمع هذه المراتب في أقل من سبعة، وهو عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربع أي الشفع والوتر والأوائل والثواني، وأعني بالوتر الأول : الثلاثة، وبالثاني : الخمسة، وبالشفع الأول : الاثنين، وبالثاني : الأربعة، وأن للأطباء اعتناء عظيما بالسبعة، وقد قال بقراط : كل شيء في هذا العالم مقدر على سبعة أجزاء، والله تعالى أعلم بحكمته وشرعه في تخصيص هذا العدد بما يشاء.

وفي هذا الصدد كتبت دائرة المعارف الإسلامية (ج 11 ص 243) أن رقم سبعة له مدلول خاص عند المسلمين وعند غيرهم من الأقوام ساميين وغير ساميين، وأنه عدد كامل يتردد كثيرا في الطب والسحر، ثم ذهب كاتب الموضوع وهو مسيحي الى أن المسلمين أخذوا خواص هذا العدد عن المسيحيين والملل الأخرى، فتصدى له بالرد والتعليق أحمد محمد شاكر مبطلا ما زعمه من أخذ المسلمين شيئا من تعاليم الديانات الأخرى.

فالموضوع يتعلق بخواص وبواطن الأشياء التي يصعب الكشف عنها بجلاء، وقد قرأنا أخيرا ما حاوله بعض علماء العصر المسلمين من كشف الغطاء بطريقة علمية حسابية عن حقيقة حروف فواتح السور التي حار فيها الأقدمون وذهبوا في تفسيرها كل مذهب، ونظرية ذلك العالم التي أعلنها ونشرها ما زالت تحت النظر والأخذ والرد، فإذا صحت وثبتت علميا فإنها يمكن أن تكون نبراسا لفتح مغالق أسرار أخرى في الأعداد والحروف، كعدد السبعة الذي ما زال في حاجة الى مزيد بيان.

السبعة رجال

وأما تحديد مزارات أولئك الصالحين وحصرها في سبعة رجال دون سواهم. فإن الأمر لا يخرج عما ذكرناه من وجود خاصية خفية في ذلك العدد الرباني المجمع على تفضيله في نفسه وتفضيل ما يطلق عليه أو تكبيره ولفت النظر إليه بوجه من الوجوه. ويرى البعض أن المقصود بالسبع هنا إشارة الى تكثير مقامات الرجال السبعة وتفخيمها في النفوس والإقبال على زيارتهم دون الاقتصار عليهم. ويعجبني هنا ما علل به العباس بن ابراهيم مؤرخ مراكش هذا المعنى في كتابه إظهار الكمال. من أن أهل مراكش يطلقون على جميع أولياء مراكش سبعة رجال من باب إطلاق البعض وإرادة الكل. وفي نفس الوقت يطلقونها على خصوص السبعة.

وأصل هذا الإطلاق جاء من أولئك الرجال الركراكيين السبعة الذين قيل في حقهم أنهم وصلوا الى النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وكلموه بالبربرية وأجابهم بمثلها. فصار ذكرهم يتردد على الألسنة الى أن اعتقدتهم العامة وتعلقوا بمقامهم الكائن قرب رباط شاكر أو في الشياظمة جنوبي مراكش. وقد تعرض لهم شراح الشفا بما يفيد الشك في صحة قصتهم وكان بعضهم كالمرغيثي يصفهم بأنهم من الصحابة. ولما عزم المولى اسماعيل على البناء عليهم استفتى العلماء في شأنهم فأفتوه، ومنهم سيدي عبد القادر الفاسي، بأن ليس لصحبتهم أصل صحيح وأن الصحابي الوحيد المدفون في أقطار المغرب العربي هو أبو زمعة البلوي المدفون بالقيروان وأن الركراكيين ليسوا إلا أناسا صلحاء لا تعرف باليقين أعيانهم.

وفكرة سبعة رجال لم تظهر في المغرب إلا ابتداء من القرن العاشر الهجري يوم كان الشيخ الغزواني وهو منهم يجول المغرب ويدعو لإقامة المواسم الدينية وتأسيس الزوايا وإحياء ذكريات الأولياء والصالحين. فهو الذي أحدث بالشمال موسم المولى عبد السلام بن مشيش وحض على زيارته وزيارة الأولياء الكائنين حوله بجبل العلم المعروفين أيضا بسبعة رجال.

ومن ذلك الحين أخذت فكرة الاحتفال بذكريات الصالحين والاكثار من زيارتهم تشيع في أرجاء المغرب حواضره وبواديه بما فيهم سبعة رجال بمراكش الذين بلغوا من الشهرة ما جعل جهات ومدنا أخرى ترغب أن يكون لكل منها سبعة رجال آخرون ينالون من التكريم والحفاوة مثل إخوانهم المراكشيين.

ويقول الافراني وأما سبب تخصيص السبعة رجال بالزيارة في مراكش فهو وقعة جبل الحديد المعروفة الواقعة في حدود الخمسين والألف. فمن ذلك اليوم أقبل السلطان على زيارتهم ولم يكن ذلك عند السعديين ولا قبلهم. يعني أن زيارتهم أصبحت على كيفية خاصة وترتيب معين. وأما زيارة السلاطين للأولياء والتماس بركتهم فذلك أمر منقول عن معظم السلاطين من قبل. فلقد كان الموحدون يزورون تربة إمامهم ويلوذون بها. والمرينيون يزورون قبور أسلافهم بسلا وبغيرها. والسعديون كانوا يشدون الرحيل لزيارة الأولياء الأحياء منهم والأموات. وكذلك كان الحكام والعلماء. فهذا ابن الخطيب كان يقصد أولياء سلا ومراكش يتوسل بهم ويستشفع. وكذلك حال اليوسي الذي يتقصى الصلحاء أينما حل وارتحل.

واليوسي كان من الذين سنوا الطريقة المتبعة الى اليوم في زيارة سبعة رجال حين أقام بمراكش عند نهاية القرن الحادي عشر. وهو صاحب الأبيات المتضمنة الترتيب المتبع لزيارتهم هكذا :

- سيدي يوسف بن علي المدفون قرب مقبرة باب أغمات والمتوفى عام 593 هـ.
- ثم القاضي عياض المدفون قرب باب أيلان والمتوفى عام 544 هـ.
- ثم أبي العباس السبتي المدفون داخل باب تاغزوت والمتوفى عام 601 هـ.
- ثم سيدي ابن سليمان الجزولي المدفون برياض العروس والمتوفى عام 870 هـ.
- ثم سيدي عبد العزيز التباع المدفون قرب جامع ابن يوسف والمتوفى عام 914 هـ.
- ثم مولاي عبد الله الغزواني المدفون بحومة القصور والمتوفى عام 935 هـ.
- ثم الإمام السهيلي المدفون خارج باب الرب والمتوفى عام 583 هـ.

وواضح أن هذا الترتيب لم يراع فيه ترتيب زماني ولا اعتبار شخصي. إذ لو كان باعتبار أقدمهم وفاة لكان عياض في المقدمة. وكذلك يأتي في مقدمتهم إذا كان هناك اعتبار شخصي لأن أبا الفضل لا يجارى في مقام الفضل. إذن ما هو الدافع لترتيبهم على النحو المذكور. فلقد تتبعت ما قالوا في تفسير ذلك الترتيب ولم أجد فيه شيئا معقولا. إلا ما أشار إليه العباس بن ابراهيم من اعتبار حال الزائر لا المزور بحيث يسير في خط شبه مستدير لا يضطر معه الى الرجوع القهقرى. وهذا معقول جدا. غير أننا لا ينبغي أن نغفل عن موقع دار المخزن بالمدينة التي هي منطلق السلاطين ورجال الدولة عندما يتوجه موكبهم شرقا للزيارة فيجدون أقرب إليهم سيدي يوسف بن علي. وإذا عادوا وجدوا في آخر المطاف الإمام السهيلي القريب جدا من دار المخزن غربا.

وهذا الترتيب هو ما عناه أبو الحسن اليوسي في قطعته المشهورة بالعينية

بمراكش لاحت نجوم طوالع	جبال رواسي بل سيوف قواطع
فمنهم أبو يعقوب ذو الغار يوسف	إليه تشير بالأكف الأصابع
ونجل أبي عمران عياض الذي	إلى علمه في الكون تصغي المسامع
وبحر أبي العباس ليس يخوضه	سواه كريم لا يزال يمانع
ونجل سليمان الجزولي ففضله	شهير ومن يدعو إليه يسارع
وتباعهم بحر الكرامة والهدى	وسيدنا الغزواني نوره ساطع
أبا القاسم السهيلي دأبا أضف لهم	إمام التقى والعلم بحره واسع
فزرهم على الترتيب في كل حاجة	يسهلها المولى وعنك يدافع

ولليوسي أشعار أخرى كثيرة يشيد فيها بصلحاء مراكش وسائر الصلحاء المبثوثين في أرجاء المغرب كان يتتبعهم في رحلاته ويخصهم بالدعاء والثناء الجزيل.

هذا وبمكان قريب من ضريح أبي العباس السبتي سبعة قبور صغيرة مصطفة بعضها الى بعض. ويوجد بحومة الموقف أضرحة مثلها. يطلق عليها العامة « سبعة رجال صغار » وهم ليسوا في الحقيقة إلا رموزا للسبعة الكبار على سبيل التذكير والتقريب.

خاصيــات السبعــة :

إن العقل ليحار في الاهتداء الى خاصية كل واحد من أولئك السبعة التي أحلته ذلك المحل السامي وأهلته أن يكون قبره مزارة من المزارات العامة المجمع على تقديسها وتعظيمها. ويمكن أن نستخلص من دراسة تراجمهم ما يختص به كل واحد منهم ويضعه في المكانة الخاصة به.

• فأولهم سيدي يوسف بن علي المتوفى عام 593 هـ. نقرأ في ترجمته أنه من أصل صنهاجي وأنه من سكان مراكش. يقيم في حارة المجذومين لكونه مصابا بهذا الداء الوبيل. فكان أيوبيا صبورا يقابل هذا الابتلاء بتعلق شديد بالله والفناء في ذكره وعبادته الى أن صار في مرتبة أيوب عليه السلام حتى أن جسده كان يتساقط وهو يبتهج ويتوجه بعبارات الشكر الى الله تعالى. فرزقه الله محبة في القلوب وكتب اسمه في الخالدين المنعمين.

• ويليه في مقام الابتلاء والصبر الجميل الإمام عبد الرحمن السهيلي المتوفى عام 583هـ وهو أندلسي من مالقة وفد على مراكش في حالة اضطرار ضاقت به سبل العيش في بلده والتجأ الى كنف أحد الأمراء فأجله وأكرمه نظرا لجلالة قدره وعلو شأنه في العلوم والعرفان رغم أنه كان ضريرا يحتاج الى من يأخذ بيده ويقوم بعوزه ويساعده على تحرير مؤلفاته الجليلة التي منها الروض الأنف في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وقد اشتهر بهذا الكتاب أكثر من غيره فصار يوصف بصاحب الروض الأنف عند عامة العلماء وينعت عند العامة والخاصة بولي الله الصابر على بلواه المفوض أمره لمولاه وهو صاحب التوسل المشهور الذي ينشدفي مجالس الذكر في كل مكان :

يامـن يرى ما في الضميـر ويسمـع   أنـت المعـد لكـل مـا يتوقــع

● ويليه في ذلك المقام الرفيع أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي المتوفى عام 601 هـ ولد بسبتة من عائلة ثرية ذات جاه عريض فتربى في أحضان النعيم والعيش الرغيد. ولما أدرك رشده وعرف الحقيقة ورأى برهان ربه أبى إلا أن يخرج عن حالة المترفين الى حالة الفقراء والمساكين. فنذر نفسه لخدمة الضعفاء وذوي الحاجات. ومازال يتدرج في هذا المقام الى أن أدرك درجة عالية في مقام الإحسان والصدقات. وسن طريقة لجمع الأموال وتوزيعها على المحتاجين قيل أنه لم يسبق إليها. بناها على أن للفقراء في مال الأغنياء حقا سوى الزكاة كما في الحديث الشريف. وأن قواعد الإسلام الخمس كلها ترمي الى تطهير النفس من أدران المادة وتزكيها في عالم الأرواح بالصدقات. وقد اختار مراكش لتطبيق نظرياته وتنفيذ تعاليمه فكان يطوف بأسواقها ومجامعها يشرح مذهبه في الإحسان ويدعو الى تطبيقه في أوسع نطاق. وإذا جمع مالا فرقه في الحين بعين المكان وأمام سمع الناس وبصرهم حتى لا يتهم بأنه يبقى لنفسه شيئا منه. أو يأمر الناس المتبرعين بأن يوزعوا هم أنفسهم ما يجودون به حتى يجدوا لذة الإحسان ويذوقوا طعم الإنعام على الغير. ومازال الناس الى اليوم في مختلف جهات المغرب يجودون بالصدقة الصباحية المسماة بالعباسية. يفتتحون بها أعمالهم اليومية. ويحكى أن الفيلسوف ابن رشد أراد أن يستوثق من مذهب أبي العباس في الإحسان. ولما وصف له قال : إن مذهب هذا الرجل يقوم على أن الوجود ينفعل بالجود. وأنه في هذا يتفق مع بعض فلاسفة اليونان. وهناك دراسات وأبحاث مازالت تكتب وتنشر حول مذهب أبي العباس المبني على مقتضيات دينية وأسس اجتماعية جديرة بالاتباع والإحياء والاقتداء. ولا سيما أن مذهبه ظل ساري المفعول بعد مماته وعبر القرون والأجيال. فهذا ضريحه ما زال ملاذ الضعفاء وخاصة المكفوفين حيث يجدون المأوى والمطعم والملجأ والميتم. بفضل الصدقات التي تنهال على صندوق الضريح. ويقال أن بعض القضاة أحصى المدخول اليومي

للصندوق فوجده يقارب ألف دينار ذهبا في الأيام العادية. وهذا من أعظم القربات الى الله في صحيفة ذلك الولي العظيم بوأته ذلك المقام السامي بين إخوانه السبعة.

ويحضرني هنا ما كتبه ابن الخطيب لسان الدين حين زار هذا الضريح : روضة هذا الولي ديوان الله تعالى في المغرب الأقصى لا يحصى دخله ولا تحصر جبايته. فالخير يفيض وذوو الحاجات كالطير تغدو خماصا وتروح بطانا.

● وأما الجزولي محمد بن سليمان المنحدر من جزولة الحسني النسب المتوفى عام 870 هـ فإنه كان من العلماء العاملين والأئمة المهتدين. أقبل على العلم في عنفوان شبابه. وله بيت في مدرسة الصفارين بفاس كان يخلو فيه بنفسه ولا يأذن لأحد بالدخول وفيه ألف كتابه «دلائل الخيرات» مستمدا مواده من خزانة القرويين العامرة. وببركة هذا الكتاب نال الجزولي المكانة العليا التي أهلته أن يحتل المقام الأسمى بين علماء وقته وصلحاء عصره. فلقد اشتهر دلائل الخيرات وأقبلت عليه الجماهير في مشارق الأرض ومغاربها يواظبون على قراءته ويتخذونه وردا يتلى آناء الليل وأطراف النهار. وله أتباع ومريدون في كل مكان وطريقة صوفية خاصة يدعو إليها وينشرها وتعرف بالطريقة الجزولية أخذها من الشاذلية المبنية على اتباع السنة النبوية والعكوف على التعبد بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. أقام الجزولي بفاس ثم بأزمور ثم بآسفي ثم بناحية الصويرة إلى أن وافاه الأجل في المكان المعروف بأفوغال من بلاد حاحة. فبقي مدفونا هناك الى أن نقله الى مراكش السلطان السعدي أحمد الأعرج. في قصة يطول ذكرها ولا يتعلق الغرض بها هنا. يكفي أن نقول أن الجزولي خلق مدرسة صوفية نموذجية لمشايخ وقته ومثالا احتذاه كثير من أتباعه ومريديه. كما خلف نموذجا حيا وصيغا رائعة للصلاة على النبي «ص» أحرزت القبول والإقبال من عامة المسلمين وكتبت لصاحبها الذكر الحميد الدائم.

• وهذا تلميذه التباع أبو فارس عبد العزيز بن عبد الحق المراكشي المعروف بالحرار نسبة إلى حرفته في بداية أمره المتوفى عام 914 هـ يؤثر عنه أنه صحب الشيخ الجزولي الآنف الذكر وخلفه بعد موته. فأدرك بسبب ذلك درجة عالية في التصوف وانتشرت عنه الطريقة الجزولية الشاذلية التي لها ذيوع وفروع في أرجاء المعمور. وخير كتاب تقرأ فيه سيرة التباع وشيخه الجزولي هو كتاب «ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع» للشيخ محمد المهدي بن يوسف الفاسي المتوفى في 1109 هـ.

• وبعد هذين يأتي مولاي عبد الله بن محمد بن عجال (بضم ففتح) الغزواني نسبة إلى غزوان من قبائل عرب الغرب المتوفى عام 935هـ ومن الناس من يجعله علويا. كان أول أمره يتعلم العلم ويقيم بمدرسة الوادي بعدوة الأندلس. قيل أنه قصد بعض العارفين لملازمته فدله على الشيخ التباع بمراكش فوفد عليه ولازمه ملازمة المريد المطيع. فكان يأمره بالخدمة الشاقة فيمتثل ويحمل الحطب الى الزواية ويرعى الدواب ويخدم البستان. الى أن قال له يوما : اذهب فقد كمل حالك. فتوجه شمالا الى قبيلة بني فزكار بالهبط. وهناك لقي إقبالا شديدا من جماهير المنطقة. وفتح الله على يده أبوابا كثيرة للهداية والإرشاد الى طريق الخير وأخذ عنه الجم الغفير من الخلق فيهم علماء كبار ومشايخ لا يشق لهم غبار. وأسست على يده زوايا عديدة وأقيمت مواسم دينية كموسم المولى عبد السلام بن مشيش الذي أقيم لأول مرة بأمره وإذنه. إلا أن سلطان الوقت محمد بن الشيخ الوطاسي توجس منه خيفة فأمر بسجنه بفاس. ولما تبين لهم صلاحه أطلقوا سراحه. فعاد الى مراكش وأقام بها على حاله في التربية والدعوة الى عمارة المساجد والزوايا وإقامة المواسم الدينية وزيارة الأولياء والصالحين. وسبقت الإشارة الى أنه من الداعين لزيارة أولياء مراكش وأن الشيخ الهبطي من جملة تلامذته وكذلك سيدي عبد الله بن حساين. وأن من عادته مع مريديه أن يأمرهم بالحرث والغرس وحفر السواقي وعمارة الأراضي وقيل أنه مات على فرسه مما يدل على

نجدته وشدة شكيمته. وباختصار فإن الغزواني كان مثلا نادرا في التربية وحسن السلوك وحديثا يروى باعتزاز مدى الأجيال.

• وأما عياض المقصود بالذات في هذا الحديث المتوفى بمراكش عام 544هـ أي قبل سائر أفراد جماعته فهو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون السبتي اليحصبي نسبة الى يحصب قبيلة حميرية باليمن نزل سلفه حينا بالقيروان وببسطة بالأندلس ثم بفاس وأخيرا استقر جده عمرون بسبتة حيث ولد عياض عام 476 هـ من أبيه موسى. وكان العلم والتقوى مع اليسر والوجاهة من المآثر المتوارثة بين الأبناء والأجداد في عائلة عياض. لذلك نشأ محبا للمكارم شغوفا بالعلم متطلعا الى الشفوف والتفوق في ميادين المعرفة الواسعة. ضاربا فيها بالسهم الوافر وبالغا فيها أقصى الغايات وحائزا قصب السبق والفوز بين أشياخ وقته في العلوم الإسلامية واللغوية والأدبية حيث كتب فيها مالم يكتبه سواه وخلد فيها من التاليف ما أبقى ذكراه تتردد على سائر الأفواه وتضمن له الخلود في أولاه وأخراه. فكتبه الثلاثة. مشارق الأنوار. والمدارك. والشفا. أجمع الناس شرقا وغربا على أنها مثل الشموس والأقمار طلعت في هذه السماء المغربية وأضاءت سائر الأقطار.

مشارق أنوار تبدت بسبتة ومن عجب كون المشارق من غرب

قولة فيها تمجيد واستغراب. ولكن فيها أيضا اعتراف وإعجاب. اعتراف بأن لهذا الجناح المغربي رجالا يرفعون قدره ويخلدون ذكره. ويسمون به الى سموات العلا في المشارق والمغارب. واعجاب بالعالم الفذ المغربي عياض اليحصبي العربي الذي هو من حسنات الدهر. لاعلى هذا القطر وحده لأن عطاءه ورفده عم ما وراءه وما بعده. ولا معنى للاستغراب الساخر فالأول كما قيل كم ترك للآخر. والمغرب كم ترك من مفاخر للشرق ومآثر. فلقد كان عياض كالنحلة بالحاء أو كالنخلة بالخاء. امتص الرحيق من زهرات الشرق فتمثلت في حشاشته علوما مصفاة أخرجها للناس أطيابا مشتهاة وأطباقا منتقاة. وهو كالنخلة أصلها ثابت في

الشرق وفروعها باسقة في الغرب تعطي الثمر من دون نوى للقاصي والداني على ما بينهما من بعد ونوى. ولكل امرىء مانوى.

هذا عياض يفضل البعد والنوى ويترك وطنه سبتة على السغب والطوى وبيته وما حوى وما عليه انطوى من دفاتر ومحاضر وأقلام ومحابر. الى مراكش الحمراء التي غارت من سبتة وأغارت عليها وانتزعت منها عالمها الفرد الوارث بالتعصيب والفرض والشيخ لا يبدي حراكا ولا يقوى دراكا فأسلس الانقياد وطاوع الأمر المراد. ولما حل بمراكش الحمراء وجد الموت الأحمر في انتظاره. والأقدار الموحدية تتهيأ لدفنه وإقباره. فلم تمض إلا أيام قليلة حتى حاول النسيان أن يسحب عليه ذيوله. ولكن العناية الربانية أدركته بهمة مرينية فانتشلت قبره من وهدة النسيان ونفضت عنه غبار الإهمال والهوان. وبعثت منه بشرا سويا وروحا علويا فإذا به ملء العينين وقمر الملوين وشمس المشرقين تعشو إليه الوجوه وتحف به ملائكة الرحمن بالتهليل والترحاب فرحا بمبعثه وقيامه من جدثه وعودته من عالم الأرواح الى عالم الأشباح وأهل مراكش يرقصون حوله طربا وينثرون الأزهار وينشدون الأشعار ويوسعون له في المقام ويحيطونه بأنواع التجلة والإكرام معتذرين له عما سلف وعما لحقه في ديارهم من التلف معترفين بالتقصير في حقه سلفا وعازمين أن يعوضوه عن ذلك خلفا. وأولياء الله أقاموا له سراديق التجلة وأحلوه بينهم في مقام الأجلة. وأهل الله من كل مكان يشدون إليه الرحيل. زائرين ومكبرين في الغدو والأصيل والسلاطين وأولو الأمر يعلون قبابه وينشرون كتبه وآدابه. وهم بين يديه كالخدم والحشم. وهم قد جعلوا مقامه بمثابة الحرم تقدس تربته ولا تنتهك حرمته. من استجار به أجير. ومن لاذ به أمين.

إن الله تعالى عوض أبا الفضل. بفضل أعماله الصالحة ما فقده وما رزىء فيه. فرفع ذكره وأحيا تراثه العلمي وأحاطه بهالة من التقديس والإجلال عند عامة الناس وخاصتهم. وكان قبره محجة الزائرين. وكتبه ومؤلفاته ولا سيما الشفا مادة

علمية غزيرة وسندا لا يستغني عنه طالب ولا كاتب وعالم وعابد في جميع البقاع والأصقاع. حتى قال بعض المشارقة : لولا عياض ما ذكر المغرب. وقال آخر : لولا الشفا ما ذكر عياض. وهذا قول صحيح لاشطط فيه ولا مبالغة. إذ أن كتب عياض ولا سيما الشفا رفعت قدر هذا الجناح عند العالم الإسلامي وأحلته مكان الصدارة في غير ما موطن. فأينما توجهت في بلاد الله تجد اسم عياض يلهج به وتجد كتاب الشفا يتهجد به ويتعبد. يتلى في الموالد والمساجد ويستسقى بـــه ويستشفى.

أضف الى ذلك ما أثر عن القاضي عياض من الإقبال على الله والتعلق بأذيال رسول الله في سره وعلنه في ليله ونهاره. وما وصفه به ولده محمد في كتابه التعريف من سيرة حميدة وأنه كان صلبا في الحق كثير التواضع يقبل على المساكين والفقراء يسألهم عن أحوالهم ويكثر الصدقة عليهم ويؤثرهم بما يجد. وأنه أنفق في ذلك أكثر موروثه عن أبيه وباع فيه رباعه وأملاكه ومات مدينا بما قدره 500 دينار. وأنه كان متين الدين كثير الصوم قوام الليل تاليا لكتاب الله في الهزيع الأخير من الليل لم يتركه في أي حالة ملتزما لحدود الشريعة سنيا في عقيدته شديد التمسك بها الى حد التعصب. وأنه اتخذ لنفسه رباطا كان يتهجد فيه ويتعبد شأن الأتقياء الصالحين. وأنه عندما أخرج من بلده قال لمودعيه : جعلني الله فداءكم..

فهذه المآثر العالية هي التي رفعت ذكر عياض وجعلت له مقاما محمودا بين الأولياء والأتقياء. وقد صدق من قال : إذا لم يكن العالم المستقيم وليا فليس على وجه الأرض ولي ولا صالح. إنما يخشى الله من عباده العلماء. ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون - صدق الله العظيم.

لهذا عاب العلماء صنيع الشيخ التادلي ابن الزيات حين لم يدرج في كتابه (التشوف إلى رجال التصوف) القاضي عياض ولا الإمام السهيلي ضمن الصالحـين المائتين ونيف الذين تناولهم في كتابه قائلين في حق عياض أنه أحق بوصف

الصلاح والولاية لما له من صفات ومزايا علمية ودينية ولما اتصف به من حميد السيرة وكريم الأخلاق ولما أجمع عليه المسلمون من تعظيمه وتقديمه ولما خلفه من كتب نافعة وبالأخص كتاب الشفا الذي أطبق أهل الله جميعا على أنه لم يؤلف في الإسلام مثله في حق جانب النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم.

وإذا قيل أن في كتاب الشفا عبارات لا تليق بالجانب النبوي كالتي عابها السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله ووافقه عليها بعض العلماء - وهي حكاية عياض ألفاظا من سب الكفار للرسول - فإن علماء آخرين أجابوا عنها بأن حاكي ألفاظ الكفر ليس بكافر وأن القرآن حكى عن الكفار أكثر ما قالوا من الكفريات. وإذا قيل كذلك بأن تولية عياض للقضاء زمنا طويلا مما يخدش في كرامته. أجيب بأن تولية القضاء في ذلك العهد لم يكن من الوظائف الأميرية وإنما هو من جملة المهمات الشرعية المنوطة برجال الدين كالإمامة والخطابة والمشيخة والفتوى ولم يكن القضاء يسند إلا لمن ثبتت عدالته ونزاهته واستقامته واتفق الناس على فضله.

ورحم الله الشيخ اليوسي القائل في حق عياض لما زاره ووقف على قبره : إن المغرب كله حرم لأبي الفضل لا تحده تربة. يعني أن فضله وسع المغرب كله. بل والشرق كله.

هذا ما عن لي تقييده في حق هؤلاء السبعة الرجال الكرام عياض ورفقائه المنعمين عند الله في العليين. أوجزت القول فيهم اعتبارا لضيق المقام واقتصارا على الأهم المناسب للظرف المتاح. غير مدخل في حسابي ما اعتاد المترجمون من الإكثار في الأوصاف والمبالغة في النعوت والإمعان في تتبع كل ما قيل وما يروى من الكرامات وخوارق العادات التي تجري على يد ولي حقيقة او تنسب إليه زعما. لكون الولاية والكرامة لا يتلازمان إذ أن الولاية تكون لشخص دون ثبوت كرامة وتكون الكرامة لشخص آخر ولا ولاية له. ولكون الاستقامة وحدها

كافية عند المحققين من أهل السنة لوصف الشخص بالولاية. «ألا أن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون».

اجتهدت أن أبرز كل واحد على انفراد من أولئك السبعة وخاصة عياض. بالحلة الخاصة والوصف المميز الغالب عليه الذي جعله ينتظم في سلك الجماعة ويشركهم في وصف الصلاح العام الذي هو في الحقيقة القاسم المشترك الجامع بينهم الذي يجعلهم مثل مشموم الزهر تنفرد فيه كل زهرة بعطرها الخاص ولكنها مع أخواتها تزداد بهاء ورواء.

أولئك كالمشموم. كل له شذا ويزداد حسنا والبهاء إذا ضما

جوانب من : شخصية القاضي عياض وأسلوبه الإصلاحي في شفائه

للأستاذ الحسين وكاك

ذكر ولده أبو عبد الله محمد وهو يعرف بنسب وحسب والده القاضي عياض رحم الله الجميع ـ أنه ميسر لما خلق له. وأن سبتة موطنه المحبوب. هيأ له لقاء حافلا بشيوخ العلم والمعرفة. وأنه بعدما نهل من معينهم الصافي. رحل إلى الأندلس ليتوج ثقافته. ويصحح علمه وذكر غيره ان هذه الرحلة الأولى نفسها كانت محل اهتمام ملحوظ. واعتناء خاص. وتنظيم لائق. من قبل أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وأصحاب دولته في مراكش. فكلهم هيأوا له الاتصال بالحافظ الغساني ليتمكن من السماع منه. وعبدوا له الطريق للوصول إليه. ومما جاء في كتاب أمير المسلمين إلى قاضي الجماعة بقرطبة ابن حمدين : «وفلان يعني عياض أعزه الله. بتقواه. وأعانه على ما نواه. ممن له في العلم حظ وافر. ووجه سافر. وعنده دواوين أغفال. لم تفتح له على الشيوخ أقفال. وقصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها. ويعاني رمد عيونها. وله إلينا مائة مرعية أوجبت الإشادة بذكره. والاعتناء بأمره. وله عندنا مكانة خفية تقتضي مخاطبتك بخبره. وإنهاضك إلى قضاء وطره. وأنت إن شاء الله تسدد عمله. وتقرب أمله. وتصل أسباب العون له إن شاء الله(1).

وبهذا مهد السبيل للقاضي عياض. فتنقل في أجواء الأندلس متصلا بالشيوخ الكبار. أمثال عبد الرحمن بن عتاب. وأبي محمد بن حمدين وأبي عبد الله بن خلف التجيبي وغيرهم من اعلام قرطبة المشهورين. ثم رغب في الاتصال بالحافظ الصدفي. فاضطر إلى الانتقال إلى مرسية ليأخذ عنه. فوجده فارا من القضاء مستخفيا في مكان غير معلوم. الأمر الذي جعله يقرر الإقامة فيها. باحثا عن أصول أبي علي. ومقابلا كتبه بها إلى أن وصل كتاب قاضي الجماعة بمراكش. بحل القاضي أبي علي عن القضاء. فخرج من اختفائه وجلس للتسميع. فسمع منه كثيرا. وكتب عنه فوائد كثيرة. وعارض بأصوله. وأجاز له جميع رواياته.

1) قلائد العقيان ص 111.

2) كتاب التعريف ص 6 الهامش رقم 43.

بسم الله الرحمن الرحيم

جوانب من : شخصية القاضي عياض وأسلوبه الإصلاحي في شفائه

حينما تسلمت استدعاء وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للحضور في هذا اللقاء الكريم الذي نظمته تقديرا لرجالات الفكر الإسلامي، وإكبارا لجهاد القاضي عياض رحمه الله، ارتأيت أن أتناول بعض الجوانب من شخصية هذا العالم المغربي الفذ وأسلوبه الإصلاحي في «الشفا» إظهارا لرغبة المغاربة التي لا حد لها في نفع بني الإنسان، وإبرازا لما جبلوا عليه من البحث عن الحقيقة، وحماية السنة، والمحافظة على التراث الإسلامي كتابة ودفاعا عبر تاريخهم المجيد.

فشخصية القاضي عياض رحمه الله شخصية عالمة حقا، وملتزمة صدقا، ومتفانية إخلاصا في سبيل إعلاء كلمة الله، ونشر العلم الصحيح بين عباد الله، تحدث عنها الكتاب كثيرا بما لا مزيد عليه من الإكبار والتقدير، وأشادوا بجهوده العلمية المشكورة، وتآليفه العديدة والمفيدة وسلوكه الإسلامي الرائع، معبرين عن إعجابهم به في القولة المشهورة : «لولا عياض ما ذكر المغرب».

والواقع أن الأوطان لا تعرف إلا برجالها الأفذاذ، ومفكريها الرواد، وأبطالها الأسياد، فهم الذين ينشرون ذكرها بين الناس، ويرفعون هامتها بين الأمم، وعياض أحد هؤلاء الأفذاذ الذين يرون حياتهم في حياة أوطانهم، وعزهم في عز أممهم، الأمر الذي جعل منه ذلك المجاهد الصالح، والقاضي المخلص الناجح، والعالم الملتزم الناصح.

وذكر عياض ـ رحمه الله ـ كما في المعجم، أن القاضي أبا علي رضي الله عنه قال له : «لولا أن الله يسر خروجي بلطفه لكنت عزمت أن أشعرك، بموضع يقع عليه الاختيار من بلاد الأندلس لا يؤبه لكوني فيه، ترحل إليه وأخرج إليه مختفيا بأصولي، فتجد ما ترغب فيه لما كان في نفسي من تعطيل رحلتك وإخفاق رغبتك» (3).

وهكذا حقق الله رجاءه، ومكنه من تحقيق رغبته، ويسر له في هذه الرحلة الاتصال بجماعة أخرى من أعلام الأندلس مثل : أبي علي الجياني، وأبي الحسن شريح، والقاضي ابن شبرين، وأبي جعفر أحمد بن سعيد اللخمي : وأبي القاسم خلف السرقسطي، وأبي زيد عبد الرحمن بن منتيل وغيرهم من أعلام غرب وشرق الأندلس المشهورين بالسلوك القويم والعلم الصحيح.

وبعدما ملأ وطابه من هذه الرحلة، وصحح علمه من هذه الجولة، تذكر وطنه سبتة، فالتحق به سنة ثمان وخمسمائة، فاستقبله أهلها بإكبار وتجلة، وأجلسوه للمناظرة عليه في المدونة، ثم انتدبوه لولاية القضاء بها سنة خمس عشرة وخمسمائة، فسار فيها أحسن سيرة محمود الطريقة، مشكور الحالة، مطبقا الشريعة وناشرا الفضيلة، فعظم جاهه، وبعد صيته، وبفضل الجهد الذي بذله في سبيل البحث والتحصيل بلغ القمة في العلم والمروءة، واستحق أن يوصف من طرف كل من الملاحي وأبي عبد الله بن عياض ابنه بما يلي : قال الملاحي : «كان القاضي عياض ـ رحمه الله تعالى ـ بحر علم وهضبة دين وحلم، أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع، وبلغ من معرفته الطول والعرض، وبرز في علم الحديث، وحمل راية الرأي، ورأس في الأصول، وحفظ أسماء الرجال، ونقب في علم النحو، وقيد اللغة، وأشرف على مذاهب الفقهاء وأنحاء العلماء وأغراض الأدباء».

وقال فيه ابنه(4) : «نشأ أبي على عفة وصيانة، مرضي الحال، محمود الأقوال

---

3) المعجم ص : 204.

4) التعريف.

والأفعال، موصوفا بالنبل والفهم والحذق، طالبا للعلم، حريصا عليه مجتهدا فيه، معظما عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم والاختلاف إليهم، إلى أن برع أهل زمانه، وساد جملة أقرانه، فكان من حفاظ كتاب الله تعالى، مع القراءة الحسنة والنغمة العذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه، وكان من أئمة الحديث في وقته، أصوليا متكلما فقيها حافظا للمسائل، عاقدا للشروط، بصيرا بالأحكام، نحويا، ريان من الأدب شاعرا مجيدا، كاتبا بليغا، خطيبا حافظا للغة والأخبار والتواريخ، حسن المجلس، نبيل النادرة، حلو الدعابة، صبورا حليما، جميل العشرة، جوادا سمحا، كثير الصدقة، دؤوبا على العمل، صليبا في الحق» (5).

وقال فيه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال رحمه الله ما نصه :

عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، من أهل سبتة، يكنى أبي الفضل، قدم الأندلس طالبا للعلم، وأخذ بقرطبة عن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وأبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج وعن شيخنا أبي محمد ابن عتاب، وأجاز له أبو علي الغساني، ما رواه، وأخذ بالمشرق عن القاضي أبي علي الحسين بن محمد الصدفي كثيرا، وعن غيره وعنى بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وجمع من الحديث كثيرا، وله عناية كبيرة به، واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم، واستقضى ببلده مدة طويلة، فحمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطل أمده بها، وقدم علينا قرطبة في ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وأخذنا عنه بعض ما عنده، وسمعته يقول : سمعت القاضي أبا علي حسين بن محمد الصدفي يقول : سمعت الإمام أبا محمد التميمي ببغداد يقول : مالكم تأخذون العلم عنا، وتستفيدونه منا، ثم لا تترحمون علينا فرحم الله جميع من أخذنا عنه من شيوخنا وغيرهم(6).

---

5) أزهار الرياض في أخبار عياض ج 3 ص : 8

6) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ج 3 ص : 16.

ولما طالت مدته في خطة القضاء، أتلف أكثر ما ورث عن أبيه حتى احتاج إلى بعض رباعه بمدينة سبتة في ثمن ضيعة اشتراها بخارج مدينة مالقة، ومات رحمه الله وعليه دين نحو خمسمائة دينار، تصديقا لقول الشافعي الذي يقول : من ولى القضاء فلم يفتقر فهو سارق.

ولم يلهه - رحمه الله - ما ابتلي به من خطة القضاء عن خدمة العلم تدريسا وتأليفا ولم يمنعه من التفوق بين أقرانه ومعاصريه في ميدان النثر والشعر، فله - رحمه الله - شوق متزايد إلى كراسي التعليم والتثقيف، وحنين شديد إلى منابر الوعظ لتحريك القلوب واستنهاض الهمم، فهو معروف بحسن الإلقاء للمسائل، وكثرة التحرير للنقول، والاعتناء بالتقييد والتحصيل إلى جانب ما جبل عليه من وقار عظيم وسمت حسن وهدى مستحسن مما جعل العديد من الناس ينتفعون بعلمه وفضله.

ومن مظاهر حرصه الشديد ورغبته الصادقة في التحصيل ما أخبر به ولده أبو محمد حين قال :

«وأخبرني ابن عمي أبو عبد الله الزاهد - رحمة الله عليه - أنه وصل إلى بلدنا رجل غريب أوصل معه كتابا غريبا في سفرين - لا أدري في أي نوع من العلوم - فاستعاره منه الفقيه أبو إسحاق بن الفاسي، فكان يغرب عليهم في المجلس بما يورد منه، قال لي رحمة الله عليه : وكان أبوك يحضر عنده فكان يستغرب ما يورده الشيخ، فوقع على خبر الكتاب وحان على صاحبه السفر، فأخذه من الشيخ، قال لي : فاجتمع أبوك بصاحب الكتاب ورغب إليه في تركه عنده تلك الليلة فقط، فدفع له الكتاب، قال لي : قال أبوك : فلما صليت العشاء الآخرة وضعت الكتاب بين يدي، فجعلت أتثبت فيما يستغرب منه، وأتساهل في غير ذلك، فما طلع الفجر إلا وأنا على آخره، وصرفت الكتاب على صاحبه، وأتيت مجلس الفقيه أبي إسحاق، فمن حيث أراد إيراد شيء منه، سبقته إليه مرة وثانية إلى أن قال لي : من أين لك هذا ؟ فقلت : من ذلك، قال : فقال لي : وكيف ؟

وفي عشية أمس أخذه مني. فأعلمته الخبر فبرك علي وكان لا يورد شيئا منه حتى يقول لي : وهذا من ذاك أو نحو هذا» (7).

وعن تفوقه بين أقرانه تحدث ا بن خاتمة فقال :

«كان لا يبلغ شأوه، ولا يدرك مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار وخدمة العلم والتفنن فيه، والتصرف الكامل في فهم معانيه، إلى اضطلاعه بالآداب، وتحققه بالنظم والنثر، ومهارته في الفقه، ومشاركته في اللغة العربية. وبالجملة فكان جمال العصر، ومعجزة الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عدت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس حسب فيهم صدرا» (8).

وكان مغرما بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان لا ينفك يسدي النصح لطلبته في الإقبال عليها، والكرم من منابعهما، وينشد عليهم أبياته التالية :

يا طالب العلم استمع قول امرىء	محض النصيحة للمريد الراغب
العلم في أصلين لا يعدوهما	إلا المضل عن الطريق اللاحب
علم الكتاب وعلم الآثار التي	قد أسندت عن تابع بن صاحب (9)
جاء بها الإثبات منهم واعتنت	بمسانــد ومراسل وغرائب

وفي ميدان المناقشات الدراسية، يشجع طلبته على البحث العلمي، ويقوي فيهم روح المذاكرة، ويدربهم على قرع الحجة بالحجة ودفع الرأي بالرأي، في إطار التحلي بمزايا الإنصاف والتواضع، ويدل على ذلك ما ذكره العلامة أبو زيد عبد الرحمن الغرناطي إذ قال : «دخلت مجلس القاضي أبي الفضل عياض - رحمه الله - إذ كان قاضيا عندنا بغرناطة، وبه جماعة من الطلبة والأعيان يسمعون تأليفه المسمى بالشفا، فلما وصل القارئ إلى هذه الكلمات : «ومن أقسم به أقسط»

7) التعريف ص : 108.

8) أزهار الرياض ج 4 ص : 268.

9) أزهار الرياض ج 3 ص : 21.

قرأه ثلاثيا. وكذا كان في الأمم التي كان يقرأ فيها. فقلت للقاضي - وصل الله توفيقه - هذا **لا** يجوز في هذا الموضع. فقال : ما تقول ؟ فقلت إنما هو أقسط. لأن المراد في هذا الموضع. عدل. فالفعل منه رباعي كما قال الله تعالى : **«وأقسطوا إن الله يحب المقسطين»** وأما قسط فإنما هو «جار» كما قال تعالى : **«وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا»** فتعجب وقال لمن حضر : إن هذا الكتاب قد قرأه علي ما لا يحصى كثرة من أهل العلم. ولا أقف على منتهى أعدادهم. وما تنبه أحد لهذه اللفظة. وفاه بلسان الإنصاف وشكر بفضله. وأبلغ ببراعة علمه. في تحسين المناقب والأوصاف. وأورثني ذلك عنده كرامة كبيرة ومبرة. ولم تزل مستمرة. وصنع من المكارم أجزل صنيع وأبره - رحمه الله - من طود علم وهضبة فضل وحلم. وتغمده وإيانا برحمته ونفعه كما نفع في الدنيا والآخرة بعلمه (10).

ولا تقتصر المناقشات والمباحث العلمية التي تجري أمام القاضي عياض - رحمه الله - على الألفاظ والتراكيب والتعابير. بل تتعداها إلى إعطاء الآراء حول بعض الكتب والمؤلفات الأخرى مثل كتاب الإحياء للغزالي وغيره فقد نقل ولده - رحمه الله - عن ابن عمه أبي عبد الله الزاهد رحمة الله عليه قائلا : «تذاكر يوما عمي - يريد أبي رضي الله عنه - مع شيخه أبي محمد بن منصور كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي فقال أبي رحمة الله عليه : (لو اختصر هذا الكتاب. واقتصر على ما فيه من خالص العلم لكان كتابا مفيدا). فقال له أبو محمد بن منصور : فاختصره إذا. فقال له أبي : (أنت أخلق لذلك). فقال له أبو محمد «أحق يا أبا الفضل ؟ لئن لم تختصره فما في بلدنا من يختصره» (11).

وقد أوردت هذه القصة ضمن المناقشات العلمية التي تجري أمام القاضي عياض - رحمه الله - ليعرف موقفه من كتاب الإحياء. ويستبعد ما حكاه الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاته الكبرى من أن القاضي عياض مات فجأة في

---

10) أزهار الرياض ج 3 ص : 13.

11) التعريف ص : 106.

الحمام يوم دعا عليه أبو حامد الغزالي رضي الله عنه. إذ بلغه أنه أفتى بحرق كتابه الاحياء مع العلم بأن سنه في تاريخ الحرق وهو سنة 503 هـ لا يتجاوز السبع والعشرين سنة(12).

ورغم أن القاضي عياض ـ رحمه الله ـ أديب وشاعر تربطه مع الأدباء والشعراء علاقات الأدباء والشعراء فيما بينهم. فإنه اضطره التأثير الشرعي والتزامه بأحكام الإسلام إلى إقامته الحد على صديقه الفتح بن خاقان لأنه قصد مجلسه مخمرا. ولكنه أبى بعدما أقام عليه الحد الا أن يستميل نفسه ويبعث اليه بهدية تعبر عن رابطة الإخاء والتقدير. وقد وجدت تلك الهدية الفتح بن خاقان عازما على أن ينتقم لنفسه. ويسقط اسم أبي الفضل عياض من كتابه. (قلائد العقيان) فجعلته يحتار في الأمر ويستشير بعض أصحابه الذين منعوه قائلين له : لا تفعل وهي نصيحة. فقال لهم : وكيف ذلك ؟ قالوا له : قصتك معه من الجائز ان تنسى وأنت تريد أن تخلدها. مؤرخة. فقال لهم وكيف ؟ قالوا له : كل من نظر في كتابك يجدك قد ذكرت من هو مثله ودونه. في العلم والصيت. فيسأل عن السبب. فيقال له : فيتوارث العلم بذلك الأصاغر عن الأكابر فتبين له ذلك وعلم صحته وأعرض عنه (13).

وكان ـ رحمه الله ـ حسن العبارة. لطيف الإشارة. وتآليفه شاهدة بذلك. وله في الفقه المالكي اليد الطولى. وعليه المعول في حل ألفاظ المدونة. وضبط مشكلاتها وتحرير رواياتها. وتسمية رواتها. وكان معظما للسنة عالما عاملا خاشعا فاتنا قوالا للحق لا يخاف في الله لومة لائم معتنيا بضبط الألفاظ النبوية على اختلاف طرقها. وكتابه (المشارق) الذي يستغني به أهل الفن عن غيره أزكى شاهد على ذلك. وقد أعجب به ابن فرحون فقال عنه في كتابه : (الديباج) «هو

12) طبقات الشعراني ج 1 ص : 15.

13) التعريف ص : 112.

كتاب لو كتب بالذهب أو وزن بالجوهر لكان قليلا في حقه». وتحدث عنه أبو عمرو بن الصلاح فقال مشيدا به :

«مشارق أنوار تجلت بسبتة وذا عجب كون المشارق بالغرب(14).

وهو عبارة عن دراسة وافية لموطأ الإمام مالك والجامع الصحيح للإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم من حيث الكلمات وأسماء الأماكن والرجال. أبان فيه مؤلفه عن مقدرة عالية في البحث ومعرفة واسعة بكتب الحديث.

ومن جملة كتبه العديدة والبالغة ـ كما ذكره ولده في كتابه «التعريف» ـ تسعة عشر كتابا. كتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك» تصدر فيه ـ رحمه الله ـ لتراجم أعيان المذهب المالكي وعلى رأسهم إمام دار الهجرة، ولبيان الخصائص الرئيسية لفقه مالك بن أنس رحمه الله.

ويطول بنا الكلام لو تصدرنا للحديث عن كل كتاب من كتبه المفيدة والمذكورة بكيفية مختصرة في مقدمة كتاب المدارك للعلامة المحقق السيد محمد بن تاويت الطنجي رحمه الله. ولنقتصر على إلقاء نظرة مختصرة على كتابه العظيم والذي يرافقه في حله وترحاله. إيمانا منه بأنه الدواء لكل الأدواء ذلك هو كتاب «الشفا» الذي لا يشك من سمع كلامه العذب السهل في وصف النبي صلى الله عليه وسلم. أو وصف إعجاز القرآن. أو معجزة الإسراء والمعراج في أن تلك نفحات ربانية خص الله بها من فضله أبا الفضل القاضي عياض رحمه الله.

وخلال هذه الفترة المتألقة والزاهية من حياته. أبى الله إلا أن يبتليه في مبدئه. ويختبره في يقينه. فتعرض للمد والجزر في منصبه وولايته شأن كل المخلصين الملتزمين. وحينما استشير في أمر الأمة ونظام مستقبلها. أشار بالثبات على المبدأ والالتزام بالبيعة الأولى التي في عنقه للمرابطين ما دام تاشفين بن علي أمير الوقت إذ ذاك قائم العين. مما جعله متعرضا لما تعرض له من دولة

---

(14) زهر الرياض.

الموحدين الذين نقلوه من مسقط رأسه سبتة. وولوه القضاء بمدينة داي(15) في تادلة مغربا عن وطنه سنة 541 هـ. جزاء له على موقفه وثباته على مبدئه وبعدما أدركوا أن الرجل مسلم غيور. وعالم ملتزم. لا يدافع إلا عما يراه في نظره الديني صوابا وموافقا للشرع كأحد أئمة الدين المخلصين. وأعلام المسلمين الملتزمين. أذنوا له في سكنى مدينة مراكش. وقد سجل ـ رحمه الله ـ تألمه من هذه الغربة القاسية وحنينه إلى سبتة الحبيبة في أبياته التالية :

أقمرية الأدواح بالله طارحي ... أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة ... تهيج من برحي ومن برحاء
لعلك مثلي ياحمام فإنني ... غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة ... وخرف بعيد الخافقين قواء
تصفق فيها للرياح لواقح ... كما ضعضعتني زفرة الصعداء
يذكرني سح المياه بأرضها ... دموعا أريقت يوم بنت ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها ... خمائل أشجار ترف رواء
لعل الذي كان التفرق حكمه ... سيجمع منا الشمل بعد تنائي (16)

وكل من أمعن النظر في كتاب (الشفا) يجده كتابا يحاول تعميق اتجاه معين وابعادما سواه. الأمر الذي جعله يحظى بتقدير فريد. وشهرة طبقت أرجاء العالم الإسلامي. فاق فيها كل الكتب المتصدرة للسيرة النبوية. فهو بحق إنتاج مغربي رفيع. أكد فيه صاحبه تلك المبادرات الإصلاحية. والمنافسات العلمية اللتين كانتا دائما بين المشارقة والمغاربة عبر العصور. فقد جمع فيه روايات وأحاديث تتصل بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وتمثل شمائله وأخلاقه العالية. وبوبه تبويبا لم يسبق إليه.

---

15) الاستقصاء ج 2 ص : 710.

16) التعريف ص : 99.

وكان السبب الذي دعاه إلى تأليفه، هو ما حكاه هو نفسه في مقدمة كتابه إذ قال : «فإنك كررت علي السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام وما يجب له من توقير واكرام، وما حكم من لم يوف واجب عظيم ذلك القدر أو قصر من حق منصبه الجليل قلامة ظفر، وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال، وأبينه بتنزيل صور وأمثال» (17).

وقد حرك همته إلى إنجاز هذا العمل العظيم، شعوره الديني بجلال النبوة وما يجب أن يكون لمقامها من الشأن العظيم، وبما يجتاح أفكار المسلمين من تيارات الانحراف وضلال العقائد الفاسدة والناشئة عن الدعوة الفاطمية والباطنية وغيرهما من الدعوات الإلحادية الأخرى وهذا السبب الذي حرك القاضي عياض في المغرب المسلم هو نفسه الذي حرك الملك نور الدين محمود الزنكي إلى انجازاته الرائعة وأعماله الرائدة التي قام بها لرد التيارات المختلفة، وجعل الإسلام السني يستعيد حياته الأولى في عهد السلف الصالح.

وكل من له إلمام بالتاريخ الإسلامي، يعرف أن كلا من المغرب والمشرق في عصر القاضي عياض مريض بالتيارات المنحرفة والدعوات الهدامة، وقد أراد الله أن يكون شفاؤه في المشرق على يد نور الدين محمود الزنكي الملك الملتزم، كما قدر الله أن يكون شفاؤه في المغرب على يد أبي الفضل القاضي عياض العالم الملتزم.فكل منهما قام بواجبه في إصلاح الحال ورد الاعتبار، وبذل جهده في حركة التصحيح السلفي لتطهير العقائد مما لطخها من الوساوس والأوهام ونشر المذهب السني في المجتمعات الإسلامية، وبالتالي تدعيم وحدة المسلمين واستقرار أنظمتهم أمام الزعازع التي تهب بها المذاهب المنحرفة والدعوات الضالة.

ويصعب على القارئ الفاحص لكتاب «الشفا» أن يدرك بادئ ذي بدء مقاصد مؤلفه إذا لم يستعن بالظروف التي تحيط به، وحالة العصر الذي يعيش فيه، فبهما يستطيع أن يتعرف على تلك المقاصد النبيلة التي أتقن المؤلف ـ بما

17) مقدمة الشفا ص : 4

له من مهارة في التعبير، لفها في سبك رفيع، وعرضها في أسلوب بليغ فجذبت بذلك حتى أنظار المناوئين والمذبذبين وان كان هو - رحمه الله - لم يؤلفها - كما قال - إلا «لأهل ملته الملبين لدعوته المصدقين لنبوته ليكون تأكيدا في محبتهم له، ومنماة لأعمالهم» (18).

فكتاب «الشفا» إذا ليس مجرد تصنيف وجمع علمي، يستهدف تأليف ما كان متفرقا في كتب الحديث، ومظان السيرة وغيرها، وانما هو منهاج لتعميق الإيمان بالنبوة في النفوس، وعمل صالح لتركيز المذهب السني في الغرب الإسلامي، مناهضا بذلك الآراء الاعتزالية والقدرية والخوارج والباطنية حسبما يبدو واضحا من أحد فصوله التي يبين فيها حكم من أضاف إلى الله ما لا يليق به عن طريق التأويل والاجتهاد والخطأ. وهذا الهدف الإسلامي الذي استهدفه القاضي عياض في بعض فصول كتابه «الشفا» هو نفس الهدف الإسلامي الذي استهدفه نور الدين محمود الزنكي حينما أسس أول دار للحديث في دمشق ووضع لها منهاجا يركز المذهب السني ويعارض أهواء الشيعة وكل الطوائف المتعارضة في الشرق الإسلامي المصاب في هذا العصر وقبله بأنواع من أوبئة الفناء والتمزق.

ورغم اختلاف الوسيلتين بين الرائدين فإن كلا منهما مخلص لربه في عمله صادق لنبيه في شريعته، مما جعل دواءهما ناجعا، وعملهما موفقا ناجحا، فدار الحديث النورية في دمشق، كانت المركز الإشعاعي الذي أضاء الطريق الصحيح بين المسلمين والمورد العذب الصافي لرواد السنة والجماعة الباحثين، وكتاب «الشفا» كان الشفاء لجميع المؤمنين وما أصدق من قال :

كلهم حاول الدواء ولكن   ما أتى بالشفا إلا عياض

فكما أن حركة دار الحديث النورية وعملها السني بعد ذلك ساهم فيه محدثون مغاربة أفذاذ معروفون بضلاعتهم في الحديث مثل ابن دحية وآخرين، فكذلك الحركة الهائلة التي أحدثها كتاب «الشفا» ساهم فيها رواة مشارقة كثيرون

---

18) أزهار الرياض ج 4 ص : 343.

إلى جانب الكثرة(19) الكاثرة من أعلام الغرب الإسلامي الذين نشروا رواياتهم له بالأندلس وشمال افريقية أمثال الرحالة ابن جبير الذي نشر روايته لكتاب «الشفا» بين أقطاب العلم ورواد السنة في أقطار الشرق من بلاد الإسلام(20).

ولكتاب (الشفا) شهرة عظيمة بين علماء المسلمين فقد قرأه على عياض نفسه ما لا يحصى كثرة من أهل العلم. مما جعل مخطوطاته موجودة في غالب العواصم والمدن العالمية. ولما اطلع عليه شيخه القاضي أبا بكر بن العربي رضوان الله عليه. قال له : بارك الله فيك يا أبا الفضل واستحسنه جدا ! وقد طبع طبعات حجرية وعادية في فاس والقاهرة والهند وغيرها. وتناوله بالشرح عدد كثير من العلماء لا يقل عن 30 عالما. كما اهتم الآخرون باختصاره وتخريج أحاديثه والتعليق عليه والإشادة به وبمؤلفه العظيم.

ويطيب لي إشادة بالقاضي عياض أن أذكر هنا ما نقله الكتاني ـ رحمه الله ـ في كتابه «فهرس الفهارس» من أن عبد الله محمد الأمين الصحراوي ذكر في كتابه «المجد الطارف والتالد» ما أدركه عياض بفضل علمه من مكانة عالية بين أولياء الله فقال :

«مقام عياض مثل مقام البخاري والأئمة الأربعة. فهم حملة الشريعة. وعلومهم التي يبثون في صدور الرجال بالتلقين أو التأليف هي أورادهم والوسيلة التي بينهم وبين الله. وذلك أجل الأوراد وأجدرها نفعا. وأبقى للثواب بعد المدة البعيدة».

وعلى كل حال فالقاضي عياض وشفاؤه مبجلان ومكرمان من طرف المسلمين عامة. أما المغاربة فقد شربوا كأس «الشفا» حتى الثمالة مما جعل الدول التي مرت على عرش بلادهم منذ المرابطين إلى العلويين تكرم القاضي عياض وتجله من أجل ذلك.

---

19) أزهار الرياض ج 4 ص : 342.

20) الذيل والتكملة ج 5 ص : 606.

ورغم بعض المواقف التي تلاحظ عليه من طرف الموحدين فإنهم لا يحبذون إهانته رغم ما عرفوا من قسوة بالنسبة لمن يعارضونهم وينتقدونهم. ويذكر المؤرخون أن كل ما ناله من عبد المومن الموحدي هو ترحيله من سبتة ليستفيد الناس من علمه في الجنوب كما استفادوا منه في الشمال.

أما الدولة المرينية التي شيدت مدارسها لمناصرة المذهب المالكي فقد وجدت في القاضي عياض وفي كتبه الدعامة الكبرى لنشر أفكار مالك رحمه الله. الأمر الذي جعل أبا عنان يامر بتدريس «الشفا» في جامع القرويين(21).

ولا يقل اهتمام السعديين بالقاضي عياض وبكتابه «الشفا» عن اهتمام المرينيين. فهم بدورهم يهتبلون به ويقدرونه حتى تصدى للتعريف به وجمع أخباره شهاب الدين المقري في كتابه «أزهار الرياض».

أما الدولة العلوية الشريفة فهي ذات اهتمام متزايد بالقاضي عياض وبكتابه «الشفا» ابتداء من مولاي علي الشريف إلى حفيده مولاي رشيد الذي أنشأ كرسيا لقراءته في ضريح مولاي إدريس رحمه الله.

أما مولاي محمد بن عبد الله فيذكر المؤرخون أنه مهتم بقراءة «الشفا» ولكنه لا تعجبه التفاصيل الواردة في قسم حكم من سب الرسول صلى الله عليه وسلم. الأمر الذي جعله ينتقد القاضي عياض. ويبعث بانتقاداته إلى علماء مصر ليبينوا آراءهم في الموضوع.

أما السلطان مولاي عبد العزيز فقد اعتنى بكتاب «الشفا» وأنشأ قراءته بانتظام في الضريح الإدريسي بفاس عند شروق كل يوم مرتبا لذلك جماعة من العلماء(22).

وعلى هذا النمط من الاهتمام بالقاضي عياض وكتبه. سار مولاي عبد الحفيظ ومحمد الخامس إذ طبع الأول على نفقته كتاب «مشارق الأنوار» وعزم

---

21) تاريخ جامع القرويين ج 2 ص : 372.

22) الدرر الفاخرة ص : 111.

الثاني على طبع كتاب «ترتيب المدارك» إلا أنه توفي قبل أن يحقق أمنيته فحققها وارث سره أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله.

ولقد أحسنت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية صنعا، حينما طبقت هذا الأسلوب الحسني في التجديد، مقيمة بالأمس في فاس مهرجانا ثقافيا عظيما احتفالا بندوة الإمام مالك بن أنس رحمه الله، ومنظمة اليوم هذا اللقاء الكريم احتفالا بهذا العالم المغربي المشهور بالتزامه واستقامته وصلاحه، وهي بعملها هذا تحمل الأمانة للعلماء بوسيلة رمزية لطيفة، وتجعلهم بنفس الأسلوب الذي استعمله القاضي عياض - رحمه الله - في شفائه، ملزمين بالسير في درب الإصلاح الذي عبده وأناره ووضع له الصوى والمناور.

مراجع البحث

1) كتاب التعريف.
2) المعجم
3) أزهار الرياض.
4) طبقات الشعراني.
5) الاستقصا،
6) كتاب الشفا.
7) الذيل والتكملة.
8) تاريخ جامع القرويين.
9) الدرر الفاخرة.
10) فهرس الفهارس.
11) قلائد العقيان.
12) مقدمة ترتيب المدارك.

6) أزهار الرياض في أخبار عياض ج 3 ص : 16.
15) الاستقصا ج 2 ص : 10.
22) الدرر الفاخرة ص : 111.

«القاضـــي عيـــاض»
لولا عياض ما ذكر المغرب

للأستاذ : أحمد الكنسوسي

بسم الله الرحمن الرحيم

القاضـــي عيـــاض
لولا عياض ما ذكر المغرب

إن هذه الكلمة أفضل تحلية يتحلى بها هذا الشخص الفذ، العالي الهمة، وعندها يتساءل الكاتب عن مصدرها وسبب شيوعها في الأوساط المغربية. ولم يوفق أي واحد في الوقوف على ذلك. لكن لا بد أن يكون لها مصدر ويكون المصدر شخصية بارزة من فحول رجال المذهب الذين درسوا عياضا ورأوا آثاره في مؤلفات العلماء في سائر الفنون النقلية والعقلية، وربما يكون لهذا مأخذ مما ذكره العلامة الحجوي في الفكر السامي (ج 4 ص 51) إذ قال: ومن الناس من يعتبره رأس علماء المغرب في الإسلام. صدق علمه، شهرته داخل المغرب وخارجه. وتفطن لهذا الدكتور محمد حجي في حركته الفكرية، عند ذكر المدرسة المغربية الأندلسية قال : سلكت هذه المدرسة سبيلا وسطا بين أسلوبي العراق والقيروان، فعنيت بالموضوع أصوله وفروعه عنايتها بالألفاظ والروايات ووجوه الاحتمال فيها. وكان رائد هذه المدرسة عياض بن موسى السبتي دفين مراكش (ت544هـ - 1149 م) إمام العدوتين وقاضيهما. وبناء على أن القاضي عياضا-رضي الله عنه-أدى خدمات جلى للمذهب المالكي وساهم بإخلاص في نشره. أذكر تمهيدا في أسباب انتشاره بالمغرب وغيره حسب ما وقفت عليه.

واول ما يلفت الأنظار في هذا الميدان موطأ الإمام مالك بسبب تنقلاته من صقع إلى صقع بواسطة العلماء المحترمين في كل الأوساط. سواء منهم من أخذها عن مؤلفها مباشرة وهم كثير كما في المدارك والديباج وغيرهما أو من أخذها عمن أخذها عنه. وهكذا تسلسل أخذها بطرق الأسانيد شيخا عن شيخ حسب ما يتعرف عليه الباحث بين دفتي الفهارس والمعاجم مما يعسر استقراؤه. فالموطأ كتاب صادر من أعماق قلب رجل عظيم ذي عمل خالص ونية صادقة شعارها نفع العباد وذلك هو الإمام الأعظم إمام الهجرة وإمام الأئمة مالك بن أنس بن مالك ابن أبي عامر الأصبحي (تـ 179 هـ ـ 795 م) يوم الأحد من ربيع الأول لتمام اثنين وعشرين يوما من مرضه على الصحيح. ولما برز كتاب الموطأ للوجود وجد آذانا صاغية وقلوبا واعية فانتشر انتشارا لم يسبق له مثيل بسبب قصد مؤلفه الطاهر النزيه فكان كما رجاه وتخيله. انظر إلى قوله، وقد قيل له: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب وقد شاركك فيه الناس وعملوا أمثاله. فقال : ائتوني بما عملوا فأوتي بذلك فنظر فيه. وقال: لتعلمن أنه لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار وما سمعت لشيء منها بعد ذلك بذكر. ومما يدل دلالة واضحة على ما رزقه الله للموطأ من القبول. ما قيل: قد احترقت خزانة كتب ولم يسلم منها إلا المصحف الكريم وموطأ الإمام. وهنا يصدق قول الشافعي : ما بعد كتاب الله أصح من موطا مالك. وما ذلك إلا برهان صادق على إخلاص الإمام. قال مولانا جل علاه: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» وقال صلى الله عليه وسلم : «اخلصوا أعمالكم فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له» وقال : «الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها».

المدرسة التي تخرج منها المذهب المالكي

هي المدينة المنورة الينبوع الذي تفجرت منه الأنهار وانشقت في سائر الأقطار. أفاد عياض في مداركه أن المذهب المالكي خرج منها إلى جهات من

الحجاز واليمن ثم ببلاد العراق بالبصرة ثم بغداد وغيرها من المدن العراقية وشارك فيها غيره من المذاهب إلى أن غلب وتفشى ثم خراسان وما وراء العراق من بلاد المشرق وقزوين وما والاها من بلاد الجبل والبلاد الفارسية والشام ومصر وافريقية وما وراءها من المغرب والقيروان والأندلس. وإن أردت أن تتعرف على الأيدي التي انتشر عليها المذهب في هذه الأقطار فعليك بمدارك القاضي عياض، وإنما أذكر هنا بعضا من أسباب ذلك الانتشار بالأندلس وافريقية والمغرب، وكان أول سبب لذلك دخول الموطأ الناشئ عن رحلة المغاربة للحجاز إما لأداء الفريضة أو لأخذ العلم أو لأجلهما معا.

انتشاره بالاندلس

فأول من أدخل الموطأ إلى الأندلس زياد بن عبد الرحمان المعروف بشبطون القرطبي المتوفى سنة 193 هـ - 808 م. وكان ذلك على عهد هشام بن عبد الرحمان الأموي المتوفى 180 هـ - 796 م. ولزياد هذا، رحلتان إلى الحجاز حيث التقى بالإمام وسمع منه موطأه ومجموعة من الفتاوي تسمى بسماع زياد، وبعدما ملأ وطابه ونال من مالك الحظ الأوفى رجع إلى قرطبة بعلم كثير حتى صار يعرف في انقطر الأندلسي بفقيه الأندلس. وفي هذا العهد رحل جماعة من نظراء شبطون كقرعس بن العباس القرطبي المتوفى 220هـ - 835م، وعيسى بن دينار المتوفى سنة 212 هـ - 827 م وغيرهما ممن رحل إلى الحج أيام هشام بن عبد الرحمان، فلما رجعوا وصفوا ما كان لذلك الإمام الأعظم من الفضل وسعة العلم وجلالة القدر مما عظم به صيته بالأندلس، فانتشر حينئذ علمه ورأيه بسائر الأنحاء الأندلسية، والرائد في هذا كله لهذه الجماعة شبطون الذي أدخل الموطأ متقنا مكملا، والذي كان عند هشام بالمنزلة الكبرى، وقد بلغه عن الإمام مالك من الفضائل والأخلاق الطيبة ما كان سببا في رفعة راية المذهب المالكي والقضاء على مذهب الإمام الأوزاعي الذي كان سائدا بالأندلس ومن جملة ما حدث به

حفظه وسيلان ذهنه. وقال المقري في النفح: وعلى الجملة فهو نسيج وحده لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد سامحه الله.

وقال ابن فرحون في الديباج في ترجمة أبي محمد الغازي ابن قيس القرطبي المتوفى(199هـ - 814م)،إنه أول من أدخل موطأ مالك وقراءة نافع إلى الأندلس وهو من جملة من رحل إلى الحجاز وسمع الموطأ من الإمام. أقول ولا تعارض بين هذا وبين ما تقدم عن شبطون - والقاضي في المدارك. ذكر أن كل واحد منهما أول من أدخل الموطأ ولم يعلق على ذلك بشيء وأجاب عن ذلك أبو زهرة المصري في كتابة (مالك) فقال: ومهما يكن من أمر الاختلاف في أول من نشر علم مالك منهما فالظاهر أنهما جاءا في زمان متقارب بعلم مالك ومسائله وإذاعة فتاويه بين المصريين حتى كان ذلك الاختلاف (هـ) وهو جواب معقول. وفي تاريخ الفكر الأندلسي لا نجد ترجمة حسين مؤنس. قال: إن الغازي ابن قيس هو الذي يؤكد ابن القوطية أنه أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس في عهد عبد الرحمان. وحاول بعد ذلك الطعن في المذهب بما نسبه إليه من أنه السبب في إثارة العداء وتهييج الفتن. وتلك الفكرة من النزعات التي يدخلها كتاب النصارى فيما يكتبونه على الإسلام لإفساد عقائد المسلمين. والمسؤولية في ذلك تحمل على عاتق المترجمين لغضهم الطرف عن مثل ذلك كما نرى في كثير من الكتب المترجمة. ومما ينخرط في هذا السلك ما قاله المقرى أن زيادا بن عبد الرحمان لما وصف للإمام مالك سيرة هشام الأموي. قال : نسأل الله أن يزين موسمنا بمثل هذا. وكان الإمام-رحمه الله- يرى في الدولة العباسية رأيا خاصا لما كانت عليه من الأعمال القاسية مع الأشراف العلويين. ومن الأسباب الضاربة أطنابها في سائر الأصقاع المقتضية لانتشار المذهب ما يقال: (لا يفتى ومالك بالمدينة) نقلت عنه هذه الكلمة وهو في ريعان شبابه لا زال جاثيا في دروس ربيعة الرأي. والأصل في هذه الكلمة ما أورده المؤرخ شمس الدين السخاوي (تـ 902 هـ - 1496 م) في تحفة الأحباب وبغية الطلاب. بترجمة القاضي عبد الوهاب البغدادي (تـ 422 هـ - 1030 م) فقال: إن بعض خلفاء الفاطميين جلس مع أصحابه فقال لهم : أفيكم من

يعلم لم كذا؟ قال الناس: لا يفتى ومالك بالمدينة. قالوا: لا. فقال رجل منهم: لا شك أن علم هذه عند عبد الوهاب بن نصر البغدادي فإنه يخبرك بها فقال الخليفة: من يقوم الساعة ليسأله من غير أن يعلم مكاني ؟ فخرجوا حتى أتوا إليه فقالوا له : أيها الشيخ هل عندك علم بما يقول الناس «لا يفتى ومالك بالمدينة قال : نعم بلغنا أن مالكا-رضي الله تعالى عنه-كان وهو شاب يقرأ على ربيعة فاتفق أن امرأة غاسلة غسلت ميتة فضربتها على فخدها وقالت: ما أزناك. فامسكت يدها على الفخد فاختلف علماء المدينة هل تقطع يد الغاسلة أو فخد الميتة حتى لم يبق غير مالك فأفتاهم بأن تضرب الغاسلة حد القذف فضربت 80 جلدة. فرفعت يدها فقالوا عند ذلك«لا يفتى ومالك بالمدينة.

قلت ويستفاد من هذا أن الحدود جوابر لا زواجر فمن أقيم عليه الحد في الدنيا لا يعاقب في الآخرة. والمسألة خلافية. والذي يتجلى من هذه العصارة التاريخية المتواضعة المنقولة من كتب التراجم والطبقات أن انتشار المذهب المالكي بالأندلس وافريقية كان من طريق ابن زياد وابن قيس وطريق رحلة العلماء للحجاز ثم من طريقة نقل علم مالك لهشام الأموي ثم مسألة الغاسلة. وعند التقصي والإمعان يجد المطلع الكثير من هذه الأسباب.

انتشاره بافريقية

كانت الأسبقية في احتضان المذهب المالكي لمصر لقربها من الحجاز بالنسبة لباقي الدول الإفريقية. قال أبو زهرة في كتابه (مالك): وكانت مصر بعد الحجاز أول بلد انتشر بها علم مالك وكثر تلاميذه حتى صدر العلم المالكي عنهم من بعده. فابن القاسم وأشهب وابن وهب وأصبغ وغيرهم من المصريين كانوا حملة العلم المالكي وناشريه، وحسبك أن تعلم أن المدونة التي تعد الكتاب الأول لمسائل مالك وفتاويه صدرت عن ابن القاسم بمصر، أخذها عنه أولا أسد بن

زياد هشاما عن مالك حديث كظم الغيظ. قال المقري في النفح : «وكان - أي هشام - يؤثر الفقيه زيادا بن عبد الرحمان وحضر عنده يوما غضب فيه على خادم له لإيصاله اليه كتابا كره وصوله فأمر بقطع يده. فقال له زياد:أصلح الله الأمير. فإن مالكا بن أنس حدثني في خبر رفعه «إن من كظم غيظا يقدر على انفاذه ملأه الله أمنا وإيمانا إلى يوم القيامة» فسكن غضبه وقال : تالله ان مالكا حدثك بهذا. فقال زياد : والله ان مالكا حدثني بهذا. فأمر أن يمسك عن الخادم ويعفى عنه (هـ نفح الطيب ج 1 ص 200 ط لندن) والمدارك (ج 3 ص 119 ط الأوقاف).

وتلا زيادا في رحلته إلى الإمام. يحي بن يحيى الليثي (تـ 234 هـ - 848 م) له رحلتان للحجاز أولاهما بإيعاز من شيخه زياد. وذلك لما رجع زياد من الحجاز عقب رحلته أخذ عنه الليثي الموطأ وسماعه من الإمام. وبعدئذ حضه على الرحلة للحجاز ليلتقي بالإمام ويأخذ عنه مباشرة وكانت رحلته هذه سنة 179 هـ - 795 م وله من العمر 28 سنة فالتقى بالإمام وسمع موطأه غير أبواب في كتاب الاعتكاف شك فيها فحدث بها عن زياد مما يذل على تحريه وورعه وبعدئذ مات الإمام-رحمه الله ورضي عنه-في السنة المذكورة وحضر جنازته: أما الرحلة الثانية:فاقتصر فيها على أبي عبد الله عبد الرحمان بن القاسم العتقي (تـ 191 هـ - 806 م) بمصر فأخذ عنه مسائل وحمل عنه عشرة كتب وكتب سماعه وعاد للأندلس وعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه/فبه وبعيسى بن دينار انتشر المذهب بالأندلس. أما ما نقل عن الحافظ أبي محمد على بن أحمد ابن حزم (تـ 456 هـ - 1063 م) أنه قال في مذهبي مالك وأبي حنيفة:إن مذهبين انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان. الحنفى بالمشرق. والمالكى بالمغرب. وعلل ذلك بما هو أوهى من خيط العنكبوت فذلك ناشىء عما عهد عليه من حدة لسانه وتحامله على الائمة بما لم يعد عليه بنفع. وفيه يقول أبو العباس أحمد ابن العريف (تـ 536 هـ - 1441م) : لسان ابن حزم وسيف الحجاجي شقيقان. وقد تكفل جماعة من رجال المذهب بالرد عليه كما يأتي : وقال الإمام الغزالي في حقه: وجدت في أسماء الله تعالى كتابا لأبي محمد بن حزم يدل على عظم

الفرات ثم أخذها منقحة مراجعة من بعده سحنون هـ وأفاد في الديباج أن عثمان ابن الحكم الجذامي (تـ 163 هـ - 779 م) من أصحاب مالك المصريين وهو أول من أدخل علم مالك مصر. وقال المؤرخ المصري تقي الدين المقريزي (تـ845 هـ - 779 م) في خططه إن أول من قدم بعلم مالك لمصر عبد الرحيم بن خالد (تـ 163هـ - 779م)ثم نشره بمصر عبد الرحمان بن القاسم، وبالقيروان وتونس غلب المذهب المالكي، ثم أدخل أسد بن الفرات المذهب الحنفي أمدا ونشأ بينهم زمانا حتى كان المعز ابن بادس فحمل أهلهما وما والاهما من بلاد المغرب على المذهب المالكي بعد قضائه على المذهب الشيعي العبيدي الخبيث كما يعلم من ترجمته. ثم جاء دور الإمام أبي سعيد عبد السلام يحنون(تـ240هـ - 854م) ارتحل إلى الحجاز سنة 188هـ - 803م)، وأخذ في رحلته هذه عن أصحاب مالك بالمدينة ومصر قال : خرجت إلى ابن القاسم وأنا ابن 25 سنة وقدمت إلى افريقية وأنا ابن ثلاثين وحفظت هذه الكتب حتى صارت في صدري كأم القرآن (هـ) ثم قدم القيروان فأظهر فيها المذهب المالكي.

وبالمغرب كان أول من أدخل له المذهب المالكي أبو ميمونة دراس بن اسماعيل الشهير المتوفى سنة (357 هـ - 967 م) قال ابن القاضي في الجذوة:إنه أول من أدخل مذهب مالك للمغرب. قال في الشجرة إنه أول من أدخل المدونة للمغرب. وقال ابن القاضي فإنه كان الغالب على المغرب في القديم الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد (تـ 183هـ - 799م)، وهو أول من أدخل الموطأ وجامع سفيان بالمغرب، وعبد الرحيم بن أشرس لم أقف على وفاته والبهلول بن راشد المتوفى سنة 183 هـ - 799م)) وأسد بن الفرات (تـ 213 هـ - 828 م) وغيرهم من الحفاظ لمذهب مالك فأخذه كثير من الناس فلم يزل ينتشر ويظهر إلى أن حل سحنون ففض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في أقطار المغرب إلى وقتنا هذا قال : وأما أهل الأندلس فكان رأيهم منذ افتتحت على مذهب الأوزاعي إلى أن رحل إلى مالك زياد بن عبد الرحمان خ هـ.

قال أبو القاسم الزياني (تـ 1249 هـ ـ 1809 م) في الروضة السليمانية التي هي البستان وفي البستان الذي هو الروضة السليمانية. نقلا عن نفح الطيب الذي نقل عن الرحلة السرخسية قال السرخسي: ودخلت مراكش واجتمعت بالسلطان يعقوب فوجدته بحرا لا ساحل له في العلوم فقها وتفسيرا وحديثا ونحوا ولغة وعليه اعتمد فقهاء وقته في الفنون. وكان أهل المغرب على مذهب الأوزاعي في الفروع وأهل الأندلس على مذهبه كذلك إلى أن حملهم الحكم الأموي على مذهب مالك كما حمل أهل المغرب عبد المومن بن علي على مذهب مالك (هـ). لننظر ما نقله الزياني عن الرحلة السرخسية من أن أهل المغرب كانوا على مذهب الأوزاعي فذلك غلط وما نقله من أن عبد المومن هو الذي حمل أهل المغرب على مذهب مالك فكذلك هو من أكبر الأغلاط ورأينا نفح الطيب الذي نقل منه، وليس فيه ما ذكر، وهذا نقله عن الرحلة المذكورة. قال : ودخلت مدينة مراكش أيام السيد الإمام أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن بن علي. فاتصلت بخدمته والذي علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن ويحفظ متن الأحاديث ويتقنها ويتكلم كلاما بليغا. وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتاوي. وله فتاوي مجموعة حسب ما أدى إليه اجتهاده وكان الفقهاء ينسبونه إلى مذهب الظاهر (هـ). لننظر كيف حرف الزياني أسلوب الرحلة أولا ونسب إليها ما ليس فيها ثانيا، والجواب نتركه للمؤرخ المطلع البحاثة العلامة الشيخ أحمد بن خالد الناصري (تـ 1315 هـ ـ 1897 م) إذ يقول : وصاحب البستان كثيرا ما يجازف في النقل ويتساهل فيه فلا ينبغي أن يعتمد على ما ينفرد به (هـ). الاستقصا (ج 4 ص 8 طـ مصر) وقال في الجزء الرابع أيضا (ص 119) وهو ينقل عنه كلاما في شأن المولى اليزيد العلوي: هكذا زعم الزياني. ولا يخفى أن الرجل كان مناوئا له فلا نسمع فيه جميع ما ينسبه إليه وقال وهو يتكلم على انتقاض أهل الحوز على السلطان المولى اليزيد أيضا، ولقد كان (أي المولى يزيد) رحمه الله من فتيان آل علي وسمحائهم وأبطالهم له في النجدة والكفاية المحل الذي لا يجهل ، والسبق الذي لا يلحق، والغبار الذي لا يشق، ولا يضره تنقيص من نقصه

من الحسدة-عفا الله عنا وعنهم-فإن مكان الرجل غير مكانهم وهمته العالية فوق تزوير ترهاتهم (هـ). والمقصود هو ـ الزياني. فبما سطرناه من تلك الصفة انتشر المذهب المالكي في الأصقاع ولا زال ينمو ويزداد متسلسلا بسبب جلب الكتب المذهبية جلبها العلماء من مصر وغيرها. وانكبوا على دراستها. فهذا أبو علي منصور بن أحمد المشدالي الزواوي (تـ 731 هـ ـ 1330 م) قد رحل للمشرق مع أبيه ومكث فيه عشرين عاما والتقى بالعز بن عبد السلام (تـ 864 هـ ـ 1459 م). وروى عن ابن الحاجب (تـ 664 هـ ـ 1265 م)، وأتى بمختصره إلى بجاية ومنها انتشر في بلاد المغرب، ومختصره هذا اعتنى العلماء بشرحه شرقا وغربا اختصره من سبعين كتابا وفيه ستة وستون ألف مسألة. ثم محمد بن عمر بن فتوح التلمساني (تـ 818 هـ ـ 1415 م) كان أول من أدخل للمغرب مختصر الشيخ خليل ابن إسحاق (تـ 776 هـ ـ 1374 م) ولما برز المختصر في الوجود بالمغرب كساه الله حلة القبول فاعتنى الناس به عناية فائقة فحفظوه وشرحوه. ويشتمل على مائة ألف مسألة منطوقا ومثلها مفهوما. قال أبو عبد الله محمد ابن مريم في بستانه: ولقد وضع الله القبول على مختصره وتوضيحه من زمانه إلى الآن فعكف الناس على قراءتهما شرقا وغربا حتى لقد آل الحال في هذه الأزمنة المتأخرة إلى الاقتصار على المختصر في هذه البلاد المغربية مراكش وفاس وغيرهما.

فقل أن ترى أحدا يعتني بابن الحاجب فضلا عن المدونة بل قصاراهم الرسالة والمختصر وذلك من علامات اندراس العلم وذهابه. ثم جاء بعد عالم آخر هو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم التلمساني الشهير بابن الإمام (تـ 845 هـ ـ 1441 م) فكان أول من أدخل للمغرب شامل بهرام وشرحه للمختصر وحواشي التفتزاني على العضد وابن هلال على ابن الحاجب الفرعي وغير ذلك من الكتب ونرى من هذا العرض ما كان لعلمائنا-رحمهم الله-من كبيز العناية بالكتب ونشرها حتى اتسعت رقعة العلم والمعارف في العالم. ومع ذلك فإن رضى الناس وإرضاؤهم غاية لا تدرك. لم يسلم المذهب وإمامه من انتقادات مرة قد تصدى لضحدها عظماء من علماء المذهب أذكر منهم على سبيل المثال العلامة محمد بن

سحنون (تـ 256 هـ ـ 869 م) له كتاب في الرد على الشافعي وقاضي القيروان عبد الله بن طالب (تـ 275 هـ ـ 888 م) له كتاب في الرد على من خالف مالكا وكتاب في الرد على من خالف من الكوفيين وكتاب في الرد على الشافعي ويحيى بن عمر الكناني الأندلسي الجياني (تـ 289 هـ ـ 901 م) سكن القيروان ورحل إليه الناس ولا يدرون المدونة والموطأ إلا عنه وله أوضاع كثيرة منها كتاب الرد على الشافعي. والعلامة أحمد بن مروان المالكي المصري (تـ 298 هـ ـ 910 م) له كتاب في الرد على الشافعي والعلامة أبو بكر محمد بن أحمد المروزي (تـ 329 هـ ـ 940 م) له كتاب مسائل الخلاف والحجة لمذهب مالك وكتاب الرد على محمد بن الحسن. قال الخطيب له مصنفات حسان محشوة بالآثار يحتج لمذهب مالك ويرد على مخالفيه. والعلامة أبو جعفر محمد بن عبد الله الأبهري الصغير توفي في حياة شيخه الأبهري أبي بكر سنة 365 هـ ـ 975م له كتاب في الرد على ابن علية في ما أنكره على مالك. والعلامة عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التبان (تـ 371 هـ 981 م) إمام عظيم من العلماء الراسخين ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار لعلمه بالذب عن مذهب أهل الحجاز ومصر ومذهب مالك ذكره القابسي بعد موته فقال: رحمك الله يا أبا محمد فقد كنت تغار على المذهب وتذب عن الشريعة. والعلامة أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني حامل راية المذهب المالكي (تـ 386 هـ ـ 996 م) من بين مؤلفاته العديدة كتاب الذب عن مذهب مالك والعلامة أبو بكر محمد بن عبد الله الأبهري الذي انتشر به مذهب مالك للعراق (تـ 395 هـ ـ 1004 م) له التصانيف في شرح مذهب مالك والاحتجاج له والرد على من خالفه وعلى هامتهم مترجمنا علامة الدنيا الإمام عياض (تـ 544 هـ ـ 1149 م) الذي قضى حياته في خدمة المذهب والدفاع عنه. وهذه صورة من دفاعه تبرهن على ما كان له من تفوق في أدب البحث والمناظرة. قال في المدارك (ج 1 ص 147 ط الأوقاف) في باب بيان الحجة بإجماع أهل المدينة. اعلموا-رحمكم الله-أن جميع أرباب المذاهب

من الفقهاء والمتكلمين وأصحاب الأثر والنظر ألبوا على أصحابنا في هذه المسألة مخطئون لها بزعمهم محتجون علينا بما سنح لهم حتى تجاوز بعضهم (وهو ابن حزم) حد التعصب والتشنيع إلى الطعن في المدينة وعد مثالبها وهم يتكلمون في غير موضع خلاف. فمنهم من لم يتصور المسألة ولا تحقق مذهبنا فتكلموا فيها على تخمين وحدث. ومنهم من أخذ الكلام فيها ممن لم يحققه عنا. ومنهم من أحالها وأضاف إلينا ما لا نقوله فيها كما فعله الصيرفي والمحاملي والغزالي. فأوردوا عنا في المسألة ما لا نقوله. واحتجوا علينا بما يحتج به على الطاعنين على الإجماع. وها أنا أفصل الكلام فيها تفصيلا لا يجد المنصف إلى جحده بعد تحقيقه سبيلا. ويقول محقق المطبعة البيروتية في مقدمته محللا لهاته الفقرات :

ويأخذ عياض في الرد عليهم بمنطق أرسطا طاليس ضاربا في ذلك الأمثلة، موضحا رأي المالكية ومستنداتهم الشرعية. وان عمل أهل المدينة لم يعمل به مالك وحده بل عمله الصحابة والتابعون وتابعوهم ومالك أحدهم إلى آخر المسودة. أقول ولعل الشافعية-رحمهم الله-لما رأوا هذه الحملة الدفاعية حولوا وجهة نظرهم إلى القضاء على ما كتب في هذا الموضوع يتجلى ذلك في حادثة تروى في ترجمة القاضي عبد الوهاب (ت 422 هـ 1030 م) للقاضي عبد الوهاب تآليف كثيرة مفيدة في فنون من العلم منها وهو ما نقصد كتاب النصر لمذهب مالك في 100 جزء وقع هذا الكتاب بخطه بيد بعض قضاة الشافعية فألقاه في النيل. ففي هذا دلالة واضحة على عجزهم في الدفاع عما راموا به المذهب وامامه. وهنا رجل آخر أصيب بمحنة من أجل انتصاره للمذهب وهو العلامة أبو الحسين محمد بن عبد الله الأنصاري الأشبيلي (ت 721 هـ - 1321 م) كان من كبار المتعصبين للمذهب وأوذي من جهة بني عبد المومن. ولما أبطلوا القياس بالأثر والظاهر ألف كتاب (المعلى في الرد على المحلى لابن حزم) ولنمسك العنان لأن محاولة تتبع ما في الموضوع يؤدي إلى ما لا يقتضيه الحال. والبلاغة كون الكلام مطابقا لما يقتضيه الحال. واتباعا لهذه القاعدة أترك ما يذكره المترجمون في مقدمة الترجمة

من ذكر الولادة والنسب ومسقط الرأس وعصر المترجم وبيئته وما إلى ذلك اعتمادا على ذكر ذلك عند الغير ولا أترك تلك التحلية الجامعة المانعة التي حلى بها محمد بن عياض والده. والتي أتتبع بعض الشيء من تحليل جملها قال في التعريف: وكان - أي والده - من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه ومن صحيحه وسقيمه وعلله وحفظ رجاله ومتونه وجميع أنواع علومه. أصوليا متكلما وكان لا يرى الكلام في ذلك إلا عند نازلة فقيها حافظا لمسائل المختصر والمدونة قائما عليها حاذقا بتخريج الأحاديث من مفهومها عاقدا للشروط بصيرا بالفتيا والأحكام والنوازل نحويا ريانا من الأدب شاعرا مجيدا يتصرف في نظمه أحسن تصرف ويستعمل في شعره الغرائب من صناعة الشعر مليح القلم من أكتب أهل زمانه خطيبا فصيحا حسن الإيراد لا يخطب إلا بما يصنع. خطبته فصيحة ذات رونق عذبة الألفاظ سهلة المآخذ حافظا للغة والأغربة والشعر والمثل وأخبار الناس ومذاهب الأمم عارفا بأخبار الملوك وتنقل الدول وأيام العرب وسيرها وحروبها ومقاتل فرسانها ذاكرا لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار الصوفية ومذاهبهم ومشاركا في جميع العلوم (هـ). المراد منها.

نشأته في الميدان العلمي

ومن المعلوم أن عياضا ولد بسبتة سنة 476 هـ كما رءاه ولده بخطه. موافق 1083 م قال ولده في التعريف «فنشأ على عفة وصيانة مرضي الخلال محمود الأقوال والأفعال موصوفا بالنبل والفهم والحذق. طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه معظما عند الأشياخ من أهل العلم كثير المجالسة لهم والاختلاف إلى مجالسهم إلى أن برع في زمانه وساد جملة أقرانه وبلغ من التفنن في فنون العلم ما هو معلوم مكان من حفاظ كتاب الله تعالى والقيام على معانيه لا يترك التلاوة له على كل حال مع القاء القراءة الحسنة المستعذبة والصوت الجهير والحظ الوافر من

تفسيره والقيام على معانيه وإعرابه وشواهده وأحكامه وجميع أنواع علومه. قرأ القرآن بسبتة. قال في الغنية في حق شيخه في القراءات محمد بن عبد الله المعروف بالمروزى الشيخ المقرئ من المتصدرين بسبتة لإقراء القرآن مدة عمره وكان مسنا قائما بعلم القراءات واختلاف القراء: قرأت عليه القرآن عدة ختمات وتوفي-رحمه الله-في حدود 500 هـ.

كما قرأه على عبد الله بن ادريس أبن سهل (ت 515 هـ - 1121 م) قال في الغنية: قرات عليه-رحمه الله-القرآن برواية نافع وابن كثير وأبي عمر وابن عامر بطرقها. ومن شيوخه في القراءات المقرئ محمد بن أحمد الأموي (ت 517 هـ) أخبره بكتاب الهداية للمهدوي في القراءات وأبو الحسن على بن محمد الأنصاري (ت 520 هـ - 1126 م) الساكن بسبتة قرأ عليه القرآن برواية ابن عامر وسمع عليه بعض كتابه في مخارج الحروف. وعلي بن أبي القاسم المعروف بابن البناء أجازه بكتاب الجامع الكبير في القراءات تاليف أبي معشر الطبري اشتمل على 1550 رواية وكتاب التلخيص في القرآءات.

هكذا مر هذا الدور الأول على الحافظ أبي الفضل في حياته الأولية في جهاده الأكبر في تعليم القرآن وما يؤول إليه من تجويد ومعرفة مخارج الحروف والقراءات وما إلى ذلك.

عياض الحافظ

ما من واحد ترجمه إلا ووصفه بحافظ وقد ترجمه الإمام أبو عبد الله الذهبي في تذكرة الحفاظ (جزء 4 ص ، 1304) يوصف-رحمه الله بالذكاء الوقاد واتساع العارضة وسلامة الملكة. قال في التعريف: وأخبرني ابن عمي أنه وصل إلى بلدنا رجل غريب: أوصل معه كتابا غريبا في سفرين لا أدري

في أي نوع من العلوم فابتعاره منه الفقيه أبو إسحاق ابن الفاسي فكان يغرب عليهم في المجلس بما يورد منه. قال لي: وكان أبوك يحضر عنده فكان يستغرب ما يورده. فوقع على خبر الكتاب وحان على صاحبه السفر فأخذه من الشيخ. قال لي: فاجتمع أبوك بصاحب الكتاب ورغب إليه في تركه عنده تلك الليلة فقط فدفع له الكتاب قال لي : قال أبوك : فلما صليت العشاء الأخيرة وضعت الكتاب بين يدي فجعلت أتثبت فيما يستغرب منه وأتساهل في غير ذلك. فما طلع الفجر إلا وأنا على آخره وصرفت الكتاب على صاحبه وأتيت مجلس الفقيه أبي اسحاق فمن حيث أراد إيراد شيء منه سبقته إليه مرة وثانية إلى أن قال لي: من أين لك هذا ؟ فقلت : من ذلك. فقال لي : وكيف وفي عشية أمس أخذه مني فأعلمته الخبر فبرك علي وكان لا يورد شيئا منه حتى يقول لي: وهذا من ذلك أو نحو هذا. وقال أيضا وأخبرني-رحمه الله-أنه كان جالسا مع أبي في عشية يوم على دكان مسجده بقرية بليونش إذ أتى بعض طلبته بجزء لا أثبت أنا قدر جرمه فأخذه أبي-رضي الله عنه-من يده وجعل يستغربه ويورق فيه وينظر تارة ويتحدث معهم تارة فلما حان انصرافهم دفعه لصاحبه فقال له : ياسيدي أمسكه حتى تقضي منه أربك: فقال له : لا حاجة لي به فما بقيت فيه فائدة إلا أخذتها أو نحو هذا. قال : وأخبرني بعض أصحابنا أنه سمعه يقول لما وصل إلى بلدنا كتاب المقامات للحريري وكنت لم أرها قبل لم أنم ليلة طالعتها حتى أكملت جميعها بالمطالعة. ومن محفوظاته المدونة ومن هذا العرض وما شهد له به علماء المشرق والمغرب يكون جديرا بما حلاه به الأديب المراكشي العلامة محمد الأمين المؤرخ (تـ 1295 هـ - 1878 م) فقال مقام عياض مثل مقام البخاري والأئمة الأربعة فهم حملة الشريعة وعلومهم التي يبثون في صدور الرجال بالتلقين أو التأليف هي أورادهم والوسيلة التي بينهم وبين الله وذلك أجل الأوراد وأجذرها نفعا وأبقى للثواب بعد المدد البعيدة. قال وانظر إلى عياض فلا ترى تأليفا معتبرا من تواليف أهل الحديث ولا

أصحاب السير والفقهاء إلا وجدته مشحونا بكلامه مع أنه لم يرتحل إلى المشرق (هـ).

أسلوبـــه

قال في أزهار الرياض: وكان -رحمه الله- حسن العبارة لطيف الإشارة وتآليفه شاهدة بذلك وله في الفقه المالكي اليد الطولى وعليه المعول في حل ألفاظ المدونة وضبط مشكلاتها وتحليل رواياتها وتسمية رواتها وتحقيق ذلك أنه جمع بين شرح المعاني وإيضاحها وضبط الألفاظ وذكر من رواها من الحفاظ. وقال عند ذكر الموازنة بين أسلوبي المشارقة والأندلسيين. وأغلب تآليف المشارقة الإيجاز لتمكن ملكتهم من التصرف مثل كتاب ابن الحاجب في فروعه وفي أصوله والخونجي في المنطق وغيرهما. وإن كان الغالب على جل المشارقة الإطناب مثل الغزالي والإمام الفخر وغيرهما. وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فيقهة البلاغة في حسن رصف الكلام وانتقائه مثل عبارة القاضي عياض في تآليفه التي لا تسمح القرائح بالإتيان بمثلها والنسج على منوالها وقال: وقد كان للقدماء -رضي الله عنهم- في تدريس المدونة اصطلاحان: اصطلاح عراقي. واصطلاح قروي. وبعد ذكرهما قال: وقد سلك القاضي عياض في تنبيهاته مسلكا جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين وذلك لقوة عارضته (هـ).

عيـــاض المفســــــــر

لا نتعرض له على أنه مفسر إلا بعد أن نتعرف على ماهية التفسير لنصل للحكم بالحقيقة عليه بالمفسر. والتفسير: لغة الكشف والتبيين. واصطلاحا: علم

بأصول تعرف بها معاني كلام الله تعالى من الأوامر والنواهي وغيرهما. وواضعه الإمام مالك بن أنس بالإسناد على طريقة الموطأ. والتفسير يراد به التأويل عند أبي عبيدة وطائفة. وأنكر ذلك آخرون حتى بالغ ابن حبيب فقال : نبغ في زماننا مفسر ون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير وبين التأويل ما اهتدوا إليه (هـ). وعليه فالتفسير من الفسر وهو : البيان والكشف كما سبق. والتأويل من الأول الذي هو الرجوع. فهو صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني. وقيل: التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجها واحدا. والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة. وقال الماتريدي : التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا وأنه المعنى الذي أراده الله. فإن كان بدليل قطعي فصحيح وإلا كان من قبل الرأي وهو المنهى عنه. والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع. وقيل: التفسير يتعلق بالرواية والتأويل يتعلق بالدراية. فالدراية ما يعرف به حال المنقول من حيث القبول والرد والرواية معرفة الشيء أو نقله على ما هو عليه وإنما الفائدة منه الاحتراز عن الخطأ في نقل ذلك فالداريء إذن يحتاج إلى زيادة علم وقوة تفكير.

فالقاضي أبو الفضل وإن كان كل من ترجم له يحليه بالمفسر فإنه لم يكتب في التفسير كتابا خاصا بالمعنى المتعارف وما اعتمادهم ذلك إلا على ما يرونه من تفوقه في شرح الآيات القرآنية وتأويلها بما يدل على باعه الطويل في معرفة دقائق القرآن الكريم بحيث لو وضع كتابا في التفسير لكان جوهرة ممتازة في عقد المفسرين. وهذا كتابه الشفا برهان ساطع ودليل قاطع على ذلك. ومن مميزاته في التفسير هو ما له من القدرة الغريبة على جمع النظائر. فما من باب أو فصل من فصول الشفا إلا ويركزه على آية قرآنية كعنوان للموضوع الذي يريد الشروع فيه ثم ينطلق مستقرئا فيضم لتلك الآية نظائرها. وذلك من براعته في علم التفسير وقد عثرنا على كتاب في كشف الظنون معنون بمطامح الإفهام في شرح الأحكام. الكشف (ج 1 ص 282)؛ فإن كان المراد بالأحكام الأحكام القرآنية فقد يكون القاضي حينئذ أدلى دلوه في بحر هذا الميدان.

وبالجملة فإذا تتبعنا عملية هذا الرجل العظيم في شرحه الايات القرآنية نرى أنه من أمهر علماء التفسير. ولتكوينه في هذا العلم مادة ضخمة، حصل عليها أولا: من علماء مسقط رأسه سبتة وثانيا: من رحلاته في المدن الأندلسية من ذلك ما يرجع إلى الأصلين كتاب الله وسنة رسوله ومنه ما يرجع إلى الآلة التي يتوصل بها الى معرفتهما. قال الإمام مالك: لو صرت من العلوم في غاية ومن الفهوم في نهاية لما خرجت عن أصلين كتاب الله وسنة رسوله. ولا سبيل إليهما إلا بمعرفة لسان العرب. وقد بذل أبو الفضل جهده في ذلكم التكوين الذي لم يعرف فيه كسلا ولا مللا إلى أن صار شخصية بارزة يشار إليها بالبنان في المشرق والمغرب.

مثل بين يدي أشياخه معتكفا على الأخذ بجد واجتهاد فكان من جملة من أخذ عنهم في علم التفسير الشيخ المقرئ أبو القاسم خلف بن إبراهيم (تـ 511 هـ ـ 1117 م) قرأ عليه تفسير النقاش المسمى بشفاء الصدور. وكان خلف هذا زعيم المقرئين بقرطبة وإليه كانت الرحلة في علم القراءات في وقته. كما أخذ بالأندلس عن القاضي الشهيد الحافظ أبي علي الحسين بن محمد الصدفي المعروف بابن سكرة (تـ 514 هـ ـ 1120 م) كتاب الناسخ والمنسوخ لهبة الله. وعن أبي محمد عبد الرحمان الجزامي (تـ 520 هـ ـ 1126 م) كتاب الناسخ والمنسوخ للمقرئ أبي محمد مكي. وتفسير عبد الرزاق سماعا لبعضه وإجازة لما فاته منه. وعن أبي الأصبغ عيسى بن محمد الزهري المتوفى سنة (530 هـ ـ 1135 م) كتاب معاني القرآن لابن النحاس. قال في أزهار الرياض: قال الملاحي (تـ 619 هـ ـ 1222 م) كان القاضي عياض ـ رحمه الله ـ بحر علم وهضبة دين وحلم. احكم قراءة كتاب الله بالسبع وبلغ من معرفته الطول والعرض. وبرز في علم الحديث وحمل راية الرأي ورأس في الأصول. وحفظ أسماء الرجال وثقب في علم النحو وقيد اللغة وأشرف على مذاهب الفقهاء وأنحاء العلماء وأغراض الأدباء (هـ).

ويجدر أن نذكر هنا قطعة مختارة من الشفا ذكرها المقري في الأزهار منقولة من إعجاز القرآن ذكرها حينما كان يتكلم عن ميزات أسلوبه في النثر وأنه في الدرجة الأولى من الفصاحة.

وأخذ الفكرة من الأديب العلامة عبد الرحمان بن أحمد الغرناطي (ت 576 هـ - 1180 م) وبالتالي نستدل بها نحن على أنها قطعة تعطينا نظرة على أن أبا الفضل كان له نظر خاص في ماهية القرآن وأسلوبه قال في الشفا : اعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه أولها : حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب. وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد حظوا من البلاغة والحكم ما لم يحظ به غيرهم من الأمم وأوتوا من درابة اللسان ما لم يوت إنسان ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة وفيهم غريزة وقوة ياتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب ويخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويمدحون ويتوسلون ويتوصلون ويضعون ويرفعون. فياتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من السمط اللآل فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ويذهبون الإحن ويهيجون الدمن ويجرئون الجبان ويبسطون يد الجعد البنان ويصيرون الناقص كاملا ويتركون النبيه خاملا. منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهري والمنزع القوي ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية. وكلا البابين فلهما في البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة والقدح الفالج والمهيع الناهج لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها ودخلوا من كل باب من أبوابها وعلوا صرحا لبلوغ إيبابها فقالوا في الخطير والمهين وتفننوا في الغث والسمين وتقاولوا في القل والكثير وتساجلوا في النظم والنثر

فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. أحكمت آياته وفصلت كلماته وبهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول وتضافر إيجازه وإعجازه وتظاهرت حقيقته

ومجازه وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه واعتدل مع إيجازه حسن نظمه وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه. وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب سجالا وأشهر في الخطابة رجالا وأكثر في السجع والشعر سجالا وأوسع في الغريب واللغة مقالا بلغتهم التي بها يتحاورون ومنازعهم التي عنها يتناضلون صارخا بهم في كل حين ومقرعا لهم بضعا وعشرين عاما على رؤوس الملأ أجمعين (أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله) إلى قوله : (ولن تفعلوا) و (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن) الآية. و (قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات) وذلك أن المفترى أسهل ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب ولهذا قيل: فلان يكتب كما يقال له؛ وفلان يكتب كما يريد وللاول على الثاني فضل وبينهما شأو بعيد. فلم يزل يقرعهم (ص) أشدالتقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم واياهم ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماتلثه يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والإغراء بالافتراء (هـ)

هكذا كان ينظر العلماء إلى هذه الشخصية البارزة من كل وجه من حيث كونه مفسرا محدثا متكلما أصوليا فقيها لغويا نحويا فصيحا بليغا. فهذه القطعة السهلة المتمنعة تنبىء بلا شك على ألا تقعر ولا تنافر ولا تعقيد ولا ضعف تأليف. فرحم الله عياضا ورضي عنه.

عيـــاض المحـــــدث

ما طريقته في علم الحديث ؟

من المعلوم أن لعلم الحديث طريقتين علم الحديث رواية. وعلم الحديث دراية. فعلم الحديث رواية: هو نقل ما أضيف إليه (ص) قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة. وعلم الحديث دراية: هو علم يعرف به أحوال الراوي والمروي من حيث

القبول والرد. لنترك الجواب أولا: للموسوعة الحديثية (الشفا) وثانيا: (للإلماع) فكتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع. اشتمل على 19 بابا من أبواب الحديث إلا ويرشد بدقة إلى العلمين معا.

دراسته للفن

أفاد في الغنية أنه سمع موطأ الإمام عن أجل شيوخ سبتة أبي عبد الله محمد ابن عيسى التميمي (تـ 505 هـ ـ 1111 م) برواية يحيى بن يحيى الليثي. قال: وقد سمعت جميع الموطأ من هذه الرواية على جماعة من شيوخنا منهم الفقيه الشيخ أبو محمد ابن عتاب. وقرأت جميعه أيضا وسمعته بقراءة غيري على الفقيه أبي إسحاق ابراهيم بن جعفر اللواتي المتوفى سنة (513 هـ ـ 1119 م). وسمعت جميعه يقرأ على الفقيه القاضي بقرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين (تـ 508 هـ ـ 1114 م) وحدثني به أيضا الفقيه أبو بحر سفيان ابن العاصي الأسدي (تـ520هـ ـ 1126 م) وبعدما ذكر أسانيد هؤلاء في الموطإ. قال: ولهؤلاء وغيرهم من شيوخنا أسانيد أخر اختصرناها اكتفاء بما ذكرنا (2) صحيح البخاري وسماه في الغنية بالمسند الصحيح المختصر من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: حدثني به القاضي أبو عبد الله محمد التميمي قال: وسمعت أنا البخاري وقرأته على غيره من شيوخنا فقرأت جميعه على الفقيه أبي محمد ابن عتاب وسمعت جميعه على القاضي الشهيد أبي علي الحسين بن محمد الصدفي المعروف بابن سكرة (تـ 514 هـ ـ 1120 م) وعندما نذكر الإمام الصدفي ينبغي أن نعطي نظرة خاطفة عن حياته لأنه السبب الوحيد في رحلة القاضي أبي الفضل للأندلس. ولموقفه الشريف معه لما حل بذلك القطر ـ في الغنبة 193 ـ القاضي الشهيد الحافظ أبو علي الحسين بن محمد بن فيرة بن حيون الصدفي المعروف بابن سكرة أصله من سرقسطة من قرية على أربعة أميال منها ومولده بحاضرتها في نحو (454) ثم ذكر شيوخه وقال:

وقد جمعت شيوخه في كتاب المعجم الذي ضمنته ذكره وأخباره وشيوخه وأخبارهم وهم نحو مائتي شيخ. ووصل الأندلس فرحل الناس إليه وكثر الأخذ عنه ودخل بلدنا كرتين. فأخذ عنه إذ ذاك جماعة من شيوخنا وأصحابنا وحضرت أنا بعض ما قرأ عليه ولم أحصله حينئذ. واستوطن مرسية وسمع منه الناس كثيرا وسمع منه من هو في عدد شيوخه وممن سمع هو منه قبل كأبي داوود المقري وغيره وكان عارفا بالحديث قائما به حافظا لأسماء الرجال عارفا بقويهم من ضعيفهم ذا دين متين وخلق حسنة وصيانة من أجل من لقيناه ولي القضاء بمرسية سنة 505هـ فحمدت سيرته واشتدت في الحق شكيمته ثم استعفى فلم يعف فاختفى وغيب وجهه مدة شهور إلى أن أعفي عنه سنة 508 فتوفر على ما كان بسبيله من الاستماع والتفقه. وطلب بعد ذلك لقضاء إشبيلية فامتنع ولم يخرج إليها حتى عفي وخرج للغزو سنة514هـ مع الأمير ابراهيم هو وقرينه في الفضل القاضي أبو عبد الله ابن الفرج. وحضرا (يوم قتندة) المشهور بالثغر الأعلى يوم الخميس لست بقين من ربيع الآخر من السنة وحقت على المسلمين الهزيمة فكانا فيمن فقد -رحمهما الله-وختم لهما بالشهادة. رحلت إليه غرة محرم سنة 8 فوجدته في اختفائه ثم خرج فسمعت عليه خبرا كثيرا والحمد لله (هـ).

ولم يذكر القاضي كيفية لقائه بالشيخ الصدفي ولا مبدأ رحلته من سبتة وذكر ذلك ولده في التعريف فقال بعد أن ذكر أشياخه ببلده. ثم رحل إلى الأندلس وكان خروجه من سبتة يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة 507 فوصل قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الأخيرة بعده. فأخذ بها عن ابن عتاب وابن حمدين وابن الحاج وغيرهم ثم خرج إلى مرسية يوم الإثنين لخمس بقين من المحرم سنة508هـ من التاريخ فوصل مرسية يوم الثلاثاء الثالث من صفر بعده فوجد أبا علي الحافظ الحسين بن محمد الصدفي مختفيا فأقام بقية صفر وربيع الأول يقابل كتبه أثناء ذلك بأصول الحافظ أبي علي إلى أن وصل كتاب قاضي الجماعة أبي محمد بن منصور بحل القاضي أبي علي عن القضاء ووصل كتابه إلى أبي-رحمة الله على جميعهم- معلما له بذلك إذ كان يكرم عليه وعلم برحلته

إليه فخرج أبو علي من اختفائه وجلس للتسميع. فسمع عليه كثيرا ولازمه وكان له به اختصاص فحصل له مسموع كثيرٍ في مدة يسيرة. حكى أبي رحمة الله عليه أن القاضي أبا علي-رضي الله عنه-قال له: لولا أن الله يسر خروجي بلطفه لكنت عزمت أن أشعرك بموضع يقع عليه الاختيار من بلاد الأندلس لا يأبه لكوني فيه ترحل إليه وأخرج مختفيا إليه بأصولي فتجد ما ترغب. لما كان في نفسي من تعطيل رحلتك واخفاق رغبتك (هـ).وفي الديباج - نقلا عن القاضى عياض قال : قال القاضي أبو علي بن سكرة لبعض الفقهاء خذ الصحيح فاذكر أي متن أردت أذكر لك سنده وأي سند أردت أذكر لك متنه(هـ). وما أشبه هذه القضية بقضية الإمام البخاري. وذكر الدكتور محمد ابن شريفة في تعليق له عن التعريف أن رحلة القاضي عياض إلى الأندلس كانت موضع اهتمام ملحوظ واعتناء خاص من قبل أمير المسلمين علي ابن تاشفين وأصحاب دولته في مراكش فأمير المسلمين يكتب في شأنه إلى ابن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة، ووزيره أبو القاسم ابن الجد يكتب في جانبه إلى القاضي المذكور ومما جاء في كتاب أمير المسلمين إلى ابن حمدين في أمر أبي الفضل عياض. وفلان (يعني عياض) أعزه الله بتقواه وأعانه على ما نواه ممن له في العلم حظ وافر ووجه سافر وعنده دواوين أغفال لم تفتح لها عن الشيوخ أقفال. وقصد تلك ليقيم أود متنها ويعاني رمد عيونها وله إلينا مادة مرعية أوجبت الإشادة بذكره والاعتناء بأمره. وله عندنا مكانة حفية تقتضي مخاطبتك بخبره وانهاضك إلى قضاء وطره وأنت-إن شاء الله- تسدد عمله وتقرب أمله وتصل أسباب العون له إن شاء الله (هـ) (نقلا عن القلائد ص 111. وفي طبعة أولى التقدم بمصر ص 116).

ولعلي أمير المسلمين في التاريخ شهرة طبقت الآفاق بعنايته بالعلم والعلماء حتى قيل: إنه اجتمع عنده بمراكش العاصمة المغربية من العلماء ما لم يجتمع لغيره من الملوك. وفي المعجب ص 102: واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء. فكان إذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرا ولا يبت حكمه في صغير من الأمور ولا

كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء. فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم كبيرها وصغيرها موقوفة عليهم طول مدته(هـ).ومن الملاحظ في ترجمة الإمام الصدفي علاوة على حفظه أنه كتب الكثير من الكتب ومن بينها وأجلها نسخة صحيح الإمام البخاري التي هي الأصل لنسخة تلميذه ابن سعادة الشيخة المغربية الشهيرة. وكانت هذه من مناقب الصدفي ومآثره القيمة رحمه الله. وذكر الموقت في السعادة بأن الصدفي دفن بدمشق لا الذي بمراكش كما يعتقده من لا معرفة له بعلم التاريخ. ويزعم أن المدفون بمراكش صدفي آخر دون أن يأتي بحجة على ذلك وقال : وعرف به القاضي عياض في فهرسته ولم يذكر وقت وفاته على أن عياضا ذكر وفاته 514هـ. وقال : وترجمته في الديباج : ثم عاد أنه لم يذكر وقت وفاته وذكر بعد هذه الفقرة. قال:غير أنه قال في الديباج:ثم عاد إلى الأندلس واستقر بمدرسة مرسية إلى أن قال : واختفى فلم يوقع له على خبر ظنا منه أن هذا الاختفاء وفاته. على أن المراد اختفاؤه بعد فراره من القضاء. وتلك عادة الموقت في كثير من أنقاله فعلى من ينقل عنه أن يراجع مصادر نقله حتى لا يقع في مصيدة أغلاطه. وفي فهرس الفهارس (ج 2 ص 110) قال : وفي (درر الحجال في مناقب سبعة رجال) للعلامة الأفراني المراكشي وأهل مراكش الآن كثير منهم يزعم أن أبا علي الصدفي دفين مراكش وأن قبره برحبة موسى ابن غازي وهناك قبر يزورونه بتلك النية وذلك باطل لأن أبا علي توفي في وقعة قنطرة وكانت سنة 514هـ وكانت الهزيمة على المسلمين ففقد أبو علي ولم تظهر جثته كما في الغنية وغيرها (هـ). وفي الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية للعلامة المؤرخ السيد محمد المكي بن موسى الناصري الذي كان حيا سنة1158هـ قال: ومن المزارات بمراكش ضريح الإمام المحدث بالمغرب حامي دمار الدين وعاضده وقاطع ضرر المعتدين وحاضره. أبو علي الصدفي -رحمه الله- ثم نقل ترجمته من الغنية وقال: قلت فعلى هذا لا يكون هو المقبور بمدينة مراكش إلا أن يكون نقل جسده بعد زمان إذ لو كان بها لأخبر به عياض وقد زرته والأعمال

بالنيات. وأهل مراكش مشهور عندهم أنه قبر أبي علي الصدفي ولم أقف له على نص (هـ). وفي كتاب المزايا للشيخ الإمام شيخ الجماعة بفاس في وقته الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري المتوفى (1239هـ - 1823م) كلام يتعلق بتعريف نسخة الأصل التي كتب منها ابن سعادة نسخته الشهيرة. انقله من المزايا المذكورة لعلاقة أكيدة بينه وبين الموضوع ولما فيه من الإشارة إلى اعتناء دولتنا العلوية المباركة أعلى الله منارها وأعز رايتها. قال بعدما تكلم عن ابن سعادة ونسخته. ولقد عثرت على أصل شيخه الحافظ الصدفي الذي طاف به البلاد بخطه بطرابلس في جزء واحد مدمج لا نقط فيه أصلا على عادة الصدفي وبعض الكتاب إلا أن بالهامش منه كثرة اختلاف الروايات والرمز عليها. وفي آخره سماع عياض وغيره من الشيخ بخطه. وفي أوله كتابة لابن جماعة الكناني والحافظ الدمياطي وابن العطار والسخاوي قائلا هذا الأصل هو الذي ظفر به شيخنا الحافظ ابن حجر العسقلاني وبنى عليه شرحه الفتح واعتمد عليه لأنه طيف به في مشارق الأرض ومغاربها الحرمين ومصر والشام والعراق والمغرب فكان أولى بالاعتماد. كراوية تلميذه ابن سعادة.

قال بعد : ولقد بذلت لمن اشتراه من أهل طربلس بالمغرب في عدة كتب باسطنبول بثمن تافه صرة ذهب فأبى من بيعه وبقي ضائعا في ذلك القطر فلا حول ولا قوة إلا بالله. ثم حملتني الغيرة على العلم والمحبة فيه أن أبلغت خبره لإمامنا المنصور بالله أبي الربيع سليمان بن محمد-أدام الله ملكه وأنجح أمره فوجه إلى صاحبه حسب ما شافهني به (ألف مثقال أو ريال) الشك مني فأجابه بأنه يقدم به إلى حضرته وما منعه إلا فتنة الترك فيما بين تونس والجزائر ثم لما طال الأمر أعاد الكتب بذلك وإلى الآن لم يظفره الله به.

ولقد داعبته ذات يوم فقلت له في شأن سماع الصدفي المذكور: وماذا لمبلغ خبر هذه الخطوة؟ فوعدني أنه إن ظفر به يجدد منه فرعا ويعطيني أحدهما على اختياري وكان من مدح ابن العطار له عليه بخطه ما نصه :

قد دام بالصدفي العلم منتشرا وجل قدر عياض الطاهر السلف

ولا عجب إذا أبدى لنا دررا ما الدر مظهره إلا من الصدف (هـ)

ونقل في فهرس الفهارس ما في المزايا وشفعه بنقل ما في الرحلة الحجازية للفقيه أبي العباس أحمد بن محمد الفاسي وفيها زيادة تعريف للكتاب. ومما عرف في الفهارس المغربية أن نسخة ابن سعادة أفضل من رواية ابن حجر. قال العلامة القادري في فهرسته: واعلم أن رواية ابن سعادة هذه هي المعتمدة عندنا بالمغرب وهي مسلسلة عندنا بالمغرب بالمالكية وقد نص على جودتها غير واحد من العلماء كابن الأبار القضاعي وابن خاتمة وغيرهما. وكان الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي (تـ 1091هـ ـ 1680م) يقول: رواية ابن سعادة هذه هي أفضل من الروايات التي عند حافظ بن حجر العسقلاني وأن ابن حجر لم يعثر عليها. ولما ذكر رواية عياض عن الصدفي قال: وهذه الرواية. قال العلامة المحدث مولاي إدريس العراقي (تـ 1184هـ ـ 1770م): هي أفضل من رواية موسى ابن سعادة عن الصدفي كما نقل ذلك عنه تلميذه الشريف العلامة المؤرخ النسابة سيدي عبد السلام بن الخياط القادري في تأليفه الذي ألفه في شرفاء أهل وزان ونص المقصود منه وراوية موسى ابن سعادة عن الباجي عن أبي ذر قال فيها بعض الطلبة من المغاربة: هي أفضل من الرواية التي شرح عليها ابن حجر العسقلاني وأن ابن حجر لم يعثر عليها. قال الحافظ المحدث مولاي إدريس بن الإمام النحوي سيدي محمد العراقي الحسيني، على هذا الكلام: هذا باعتبار ما ظهر له وإلا فرواية عياض عن أبي علي الصدفي أفضل من رواية موسى ابن سعادة عن الصدفي وعن الباجي كليهما عن أبي ذر. قال عبد السلام القادري: قلت وقد وقفت على نسخة رواية عياض عن الصدفي المشار إليها عند مولانا إدريس المذكور وسمعت عليه جلها وانا نقابل معه عليها نسخة ابن سعادة المشار إليها. فباعتبار ما ظهر لنا من النسختين أن قول شيخنا مولاي إدريس صحيح والله أعلم(هـ).وقد أطال أصحاب الفهارس القول حول النسختين كالشيخ محمد القادري والكتاني في فهرس الفهارس

والعلامة محمد الحجوي في مختصر فهرسته (العروة الوثقى). والظاهر ما صححه عبد السلام القادري عن شيخه إدريس العراقي.

قال القاضي في (مشارق الأنوار على صحاح الآثار). وأما الكتاب الجامع المسند الصحيح المختصر من آثار رسول الله (ص) فقد وصل إلينا من رواية أبي عبد الله محمد بن يوسف الفربرى وأكثر الروايات من طريقه ومن رواية ابراهيم ابن معقل النسفي عن البخاري ولم يصل إلينا من غير هذين الطريقين ولا دخل المغرب والأندلس إلا عنهما على كثرة روايات البخاري عنه لكتابه. فقد روينا عن أبي اسحاق المستملي أنه قال عن أبي عبد الله الفربري أنه كان يقول: روى الصحيح عن أبي عبد الله تسعون ألف رجل ما بقي منهم غيري فأما رواية الفربري فرويناها من طرق كثيرة منها (طريق الحافظ أبي ذر عبد الله بن أحمد الهروي) (تـ 434 هـ ـ 1042 م) على الصحيح وطريق (أبى محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي). (392هـ ـ 1001م). وطريق أبي الحسن علي بن خلف القابسي. تـ (403 هـ ـ 1012م) (وطريق كريمة بنت محمد المروزية) (463 هـ ـ 1070م) وطريق أبي علي سعيد بن عثمان ابن السكن البغدادي (353هـ ـ 964م) وطريق أبي علي اسماعيل بن محمد الكشاني (تـ 391هـ ـ 1000م) كل هؤلاء من فحول رجال الحديث لهم تآليف مذكورة في تراجمهم يرويها هذه الطرق في المشارق (جزء 1 ص 9).

3) المسند الصحيح المختصر من السنن لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (تـ 261 هـ ـ 874 م) قال في الغنية حدثني به القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي قراءة مني وسماعا إلا ما فاتني منه فأجازنيه قال وقد قرأت هذا الكتاب وسمعته أيضا على غير واحد من أشياخي منهم القاضي الشهيد الحافظ أبو علي الصدفي وسمعت جميعه يقرأ عليه في جامع مرسية سنة (508 هـ ـ 1114 م) وقرأت جميعه على الفقيه أبي محمد بن أبي جعفر الخشني. وسمعت جميعه يقرأ على الفقيه أبي بحر سفيان ابن العاصي

بقرطبة سنة (507 هـ ـ 1113 م) قال: ولم يصل إلى هذه البلاد كتاب مسلم إلا من طريقي القلانسي وأبي سفيان.

وقال في المشارق: وأما كتاب المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الدار. فإنه وصل إلينا من روايتين أيضا رواية أبي اسحاق ابراهيم بن سفيان المروزي، ورواية أبي محمد أحمد بن علي القلانسي، قال: ولم يصل إلينا من غير هاتين الروايتين وطرق هاتين الروايتين كثيرة. فأما رواية القلانسي فحدثني بها الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي جعفر الخشني بقراءتي عليه لجميع الكتاب بمرسية سنة (508 هـ ـ 1114 م) وأما رواية ابن سفيان فقرأناها وسمعناها على جماعة من شيوخنا بطرقها المختلفة. فممن سمعتها عليه الفقيه الحافظ أبو علي الصدفي، والشيخ الراوية أبو بحر سفيان ابن العاصي الأسدي قالا: حدثنا بها أبو العباس أحمد بن عمر العذري، وحدثني بها أيضا سماعا وقراءة وإجازة القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي (هـ). وترى أسانيد هذه الطرق بالمشارق (ج 1 ص 10 ـ 11).

4) مصنف السنن لأبي داوود سليمان ابن الأشعث السجستاني (تـ 275 هـ ـ 888 م) قال: سمعت أكثره على القاضي أبي عبد الله التميمي وقرأت جميعه على الفقيه أبي الوليد هشام بن أحمد يعرف بابن العواد سمع منه القاضي بقرطبة أفاد بأنه لم يبلغهم مصنف السنن هذا إلا من طرق أربع.

1) رواية أبي بكر ابن داسة.

2) رواية أبي سعيد، ابن الأعرابي.

3) رواية أبي عيسى الرملي.

4) رواية أبي علي محمد بن أحمد اللؤلؤي وفي الغنية ص 108 وريء له في ترجمة شيخه الصدفي دراسات في غير هذه الكتب الأربعة كشهاب الأخبار في الحكم والآمثال والآداب من الأحاديث النبوية للقاضي أبي عبد الله محمد ابن سلامة القضاعي الشافعي (تـ 454 هـ ـ 1062 م) وقد خرج أحاديثه العلامة

المحدث الشريف محمد الحجوجي الفاسي (تـ بدمنات سنة 1370 هـ ـ 1950 م) والجامع لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (تـ 279 هـ ـ 892 م) قال: قرأت جميعه عليه وذكر سنده إليه وكتاب شمائل النبي عليه الصلاة والسلام له قرأته عليه وذكر سنده فيه. ودرس عليه (كتاب الاستدراكات) على البخاري ومسلم أو (كتاب التتبع)، تأليف أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني (تـ 385 هـ ـ 995م) وكتاب الإلزامات لهما للدارقطني أيضا حدثه الصدفي بهما معا بالسند المذكور في الغنية هـ. قلت قال النووي في مقدمة شرح البخاري: هذا الاستدراك مبني على قواعد لبعض المحدثين ضعيفة جدا مخالفة لما عليه الجمهور من أهل الفقه والأصول وغيرهم فلا تغتروا بذلك. والإلزامات بمعنى المستدرك لأنه ألزم الشيخين بذكر ما وجده على شرطهما ولم يخرجاه. وكتاب أوهام الحاكم في المدخل تأليف أبي محمد عبد الغني بن سعيد قرأته عليه وذكر سنده فيه وقال: وأنا أشك في صحة هذا السند. أما المدخل فهو للنيسابوري وما فيه من الأوهام استخرجها ابن سعيد المذكور. وقد أوضح القاضي ذلك في الإلماع ص 288 فقال: أخبرنا القاضي أبو علي أخبرنا ابن أبي نصر قال : قرأت على أبي البركات الحسين بن ابراهيم بن الفرات قال أخبرنا أبو محمد عبد الغني بن سعيد قال: حمل إلي عمر بن داوود النيسابوري كتاب (المدخل إلى معرفة الصحيح) الذي صنعه أبو عبد الله بن الربيع النيسابوري (تـ 405 هـ ـ 1004 م) فوجدت فيه أغلاطا فأعلمت عليها وأوضحتها في كتاب فلما وصل الكتاب إليه أجابني على ذلك بأحسن جواب وشكر عليه أتم شكر. وذكر في كتابه إلي أنه لا يذكر ما استفاده من ذلك أبدا إلا عني هـ.

ولننتقل إلى لونين آخرين تمس حاجة المحدث لهما أولا : (المؤتلف والمختلف) ثانيا : (غريب الحديث) وكان لأبي الفضل كبير عناية بهما. عرف بهذا الفن الابياري في (سعود المطالع) (ج 1 ص 114) فقال: هو فن يبحث فيمن تشتبه اسماؤهم أو كناهم فلا يفرق بينهم إلا النقط وذلك كالنصري بالنون والمهملة والبصري بالموحدة قبلها وأبي حمزة بالمهملة ثم الزاي وأبي جمرة بجيم ثم راء

أو الشكل كحجر كقفل بجيم بعد الحاء المهملة وحجر بالتحريك ويقال لذلك النوع: مؤتلف مختلف وهو ما يتفق في الخط دون اللفظ. قال في «التقريب» وهو فن جليل يقبح جهله بأهل العلم لا سيما أهل الحديث ومن لم يعرفه يكثر خطأه ويفتضح بين أهله(هـ). وقسمه إلى سبعة أقسام ونظم ما جاء منه في الصحيحين في منظومة تشتمل على مائة وسبعة ابيات وقد شرحها أيضا.

درس القاضي هذا الفن على شيخه أبي بكر محمد ابن العربي المعافري قال في الغنية (ص 135)وتوفي رحمه الله في شهر ربيع الأول من سنة543هـ منصرفه من مراكش من الوجهة التي توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة. بعد دخول مدينة اشبيلية فحبسوا بمراكش نحو عام ثم سرحوا في هذا الحين فأدركته بطريقه منيته على مقربة من فاس لمرحلة وحمل ميتا الى مدينة فاس ودفن بباب الجيشة (هـ).

وفي (سلوة الأنفاس)ما يتعلق بسبب موته ودفنه وما قاله المؤرخون في ذلك (ج 3 ص 198) درس عليه القاضي في هذا الفن كتابين افاد بأنه اجتاز سبتة عند انصرافه من المشرق وكتب عنه فوائد من حديثه وناوله (كتاب المؤتلف والمختلف) للدارقطني وحدثه به كما حدثه بكتاب الإكمال في المؤتلف والمختلف للأمير الحافظ أبي نصر علي بن هبة الله بن ماكولا (تـ 487 هـ - 1094م) وسمع على شيخه الصدفي (كتاب مشتبه النسبة) و(كتاب المؤتلف والمختلف (لعبد الغني بن سعيد (تـ 409 هـ - 1018 م) و(كتاب المؤتلف والمختلف) لأبي الحسن الدارقطني وقال: عارضته بأصله.

ثانيا: غريب الحديث هو ما وقع في متن الحديث من الألفاظ الغامضة البعيدة من الفهم لقلة استعمالها أو لدقة معناها. وغريب الحديث من المهمات المتعلقة بفهم الحديث والعلم والعمل به. لا بمعرفة صناعة الإسناد وما يتعلق به وهو فن جليل له خطره في معرفة الحديث وروايته ويتطلب من طالب الحديث اتقانه. ويجب أن يتثبت فيه أشد التثبت. وقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل (تـ 241 هـ - 855 م) أنه سئل عن حرف من غريب الحديث فقال: سلوا أصحاب

الغريب فإني أكره أن أتكلم في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظلم فاخطأ. لذلك قال المحدثون الخوض فيه صعب فليتحر خائضه هـ. أفاده محقق كتاب غريب الحديث لا بن قتيبة الدكتور عبد الله الجبوري.

درس القاضي (غريب الحديث) عن شيخه أبي عبد الله . التميمي قال في الغنية (ص 109) شرح غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام: قرأت جميعه على القاضي أبي عبد الله. وقرأت جميعه أيضا على الفقيه أبي اسحاق بن جعفر (تـ222هـ ـ 836م) يقال: إن ابن سلام أول من وضع علم غريب الحديث مكث في تصنيف هذا الكتاب 40 سنة ولما وضعه عرضه على عبد الله بن طاهر فاستحسنه وقال: إن عقلا بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيق ألا يحوج إلى طلب المعاش وأجرى عليه عشرة آلاف في كل شهر.

كما درس على شيخه المذكور (كتاب اصلاح) الغلط على أبي عبيد تأليف أبي محمد ابن قتيبة (تـ 276 هـ ـ 889 م) وكتاب اصلاح الغلط هو الأثر الثاني من آثار ابن قتيبة واسمه الكامل اصلاح) غلط ابي عبيد في غريب الحديث (ذكر فيه الأحاديث التي وقع فيها زلل) فنبه ابن قتيبة عليه. قال في الغنية: قرأته على القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى. كما سمع عليه (كتاب غريب الحديث لأبي سليمان احمد بن محمد البوستي الخطابي. وفي (الرسالة المستطرفة) ان اسمه حمد بفتح المهملة واسكان الميم وسماه بعضهم احمد وهو غلط. وللحافظ ابن كثير في (البداية) أبو سليمان حمد ويقال: أحمد المتوفى 388 هـ ـ 998 م وعند الخولي في مفتاح السنة، 378 هـ وهو غلط. كما سمع هذا الكتاب أيضا عن الحافظ الوزير ابي الحسن سراج ابن عبد الملك بقرطبة. قال في الغنية: رحلت إليه إلى قرطبة سنة 507هـ فسمعت عليه ما يسره الله بمنه. ثم رجعت إليه بعد رحلتي من شرق الأندلس فوجدته مريضا مرضه الذي توفي فيه سنة 508 هـ ـ 1114م. قال: فمما أخذت عليه قراءة وسماعا (كتاب غريب الحديث) لأبي سليمان الخطابي. وقرأت عليه (كتاب الغريبين) لأبي عبيد الهروي وصححته عليه توفي أبو عبيد سنة 401 هـ ـ 1010 م. وكتابه هذا جليل القدر كان الناس قبله يعتمدون على الكتب

السابقة. فلما ظهر هذا الكتاب الذي جمع فيه أبو عبيد بين غريب القرآن وغريب الحديث، ورتبه ترتيبا لم يسبق إليه، فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها وأثبتها في حروفها مرتبا لها على حروف المعجم، ولم يفعمه بالأسانيد والمتون والرواة، عكف الناس عليه وتركوا غيره، ومما درسه على شيخه المذكور أبو عبد الله التميمي (كتاب علوم الحديث) لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري وقد اشتمل على اثنين وخمسين نوعا من علوم الحديث.

وبالجملة فإذا نحن رأينا دراسة القاضي لهذه الكتب الفنية بتلك العناية الفائقة وتصورناها بكامل الدقة في شخصيته، نصل يقينا إلى ما كان عليه من كامل المعرفة بعلوم الحديث تلكم المعرفة التي برهن عليها كتاباه (المشارق) و(الإلماع) حتى قال بعضهم: إنه كان يعتمد على تلك الكتب السالفة ولما ظهر (كتاب المشارق) اغناه عن جميعها إذ جمع فيه بين ضبط الألفاظ واختلاف الروايات وبيان المعنى.

ولنختم هذه اللمحة المتواضعة عن عياض المحدث بكلمة عن فضيلة كتابه الرائع (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) فالجدير بكتاب الشفا أن يكون المقدم والإمام في صف الباحثين والكاتبين عن حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. ولو رأى المطلع المنقب اعتناء علماء الإسلام به شرقا وغربا وأحصى ما كتبه أولئك عنه من الشروح والحواشي لوصل إلى معرفة قيمة الكتاب في الخزانة الإسلامية.

ومن نزعات الدخيل بروكلمان ما قاله حوله حيث قال! (كتاب الشفا في تعريف حقوق المصطفى) عن واجبات المسلم نحو الرسول وهو كتاب نسبت إليه صفات تتجاوز حدود الطبيعة هـ. (ج 6 ص 267).

أما عن تاريخ تدوين كتاب الشفا، فذلك شيء لا يستطاع الوصول إليه. وقد رأيت لبعض من كتب حول الشفا بعض التلميحات التي ليس تحتها كبير جدوى في تحقيق تاريخ تصنيف الشفا، وتحقيق ذلك بالطريقة التي سلكها الكاتب لا يعقل وهو بعيد عن التحليل وما كل تحليل يوصل لحقائق الأشياء، وغاية ما يقال أن كتابا مثل (كتاب الشفا) بالنسبة إلى ما اشتمل عليه من المباحث السامية، لا بد

وأن يستغرق أعواما في كتابته. ومن المعلوم في ترجمة القاضي عياض أنه قتل في عهد عبد المومن الموحدي بإيعاز منه بعد التهمة التي الصقوها به-رضي الله عنه-من أنه لا يخرج يوم السبت. وقد ذكر مترجموه علة عدم خروجه بأنه كان معتكفا على تدوين (كتاب الشفا) ولا ريب أن ذلك كان قرب وفاته. وكانت سنة 544 هـ فعلى ذلك تأخرت كتابته إلى هذا العهد. أما اثبات البداية فهو عسير والله أعلم قال المقري لدى كلامه على تآليف أبي الفضل: أما ما كمل من تآليفه-رضوان الله عليه-كتاب الشفا الذي بلغ فيه الغاية القصوى وكان فيه لضرب الأحيان مرتشفا وبز فيه مؤلفين وأربا. وحاز قصب السبق به دونهم وطار صيته شرقا وغربا. وقد لهجت به الخاصة والعامة عجما وعربا. ونال به مؤلفه وغيره من الرحمان قربا. سمعت غير ما مرة شيخنا الامام علم الأعلام المفتي عنا سيدي سعيد بن احمد الحموي المقري-رحمه الله-يقول: ما ألف في الملة الأحمدية مثل (كتاب الشفا) للقاضي عياض. و(حرز الأماني) للشيخ أبي القاسم الشاطبي (تـ 590 هـ - 1193 م). وفضائل هذا الكتاب لا تستوفى. وذكر بعد ما قاله العلماء من نظم وشعر في مدح كتاب الشفا ومؤلفه مما جمع في 265 بيتا هـ. وممن له الفضل في تحريك همم وقرائح العلماء إلى ما قيل فيه من الأشعار هو الإمام العلامة المحدث الرحال الخطيب أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن مرزوق (تـ 781 هـ - 1379 م) وذلك أنه لما شرح الشفا كما في الأزهار (ج 4 ص 296) استمطر أنواء قرائح اعلام عصره. في قطع وقصائد يليق ذكرها في ديباجة الشرح وبدأ بمقطوعة نقلها من خط ابن الخطيب (تـ 776 هـ - 1374 م) الذي قال في الإحاطة (ج 3 ص 126) في ترجمة ابن مرزوق المذكور: ولما شرح كتاب الشفا للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض-رحمه الله-واستبحر فيه. طلب أهل العدوتين بنظم مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور واطراء مؤلفه فانهال عليه من ذلك الطم والرم. بما تعددت من الأوراق واختلفت في الإجادة وغيرها الأرزاق إيثارا لغرضه ومبادرة من أهل الجهات لإسعاف أربه. وطلب مني أن ألم في ذلك بشيء فكتبت في ذلك. وذكر قطعة همزية

وقصيدتين ضادية وحائية، وعلى هامش ذكر شرح ابن مرزوق. قال شيخ الإسلام شهاب الدين الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر في الدرر الكامنة (ج 3 ص 320) بعد ذكر ترجمة ابن مرزوق: وقد قدم علينا حفيده محمد بن أحمد وكان قد وقع لي شرح الشفا بخط جده فأتحفته به وسر به سرورا كثيرا (هـ).

ومن القطع التي قيلت في الشرح المذكور القطعة التي صدر بها المقري في الأزهار لأبي القاسم عبد الله بن يوسف النجاري (ت 733 هـ ـ 1332 م):

سل بالعلا وسنا المعارف يبهر ... هل زانها إلا الأئمة معشر
وهل المفاخر غير ما شهدت به ... آي الكتاب وخلدته الأعصر
هم ما هم شرفا ونيل مراتب ... يوم القيام إذا يهول المحشر
ورثوا الهدى عن خير مبعوث به ... فجزاهم الله العظيم الأكبر
وعياض الأعلى قداحا في العلا ... منهم وحق له الفخار الأظهر

وهذه القطعة من قصيدة ذكرها ابن الخطيب في الإحاطة في ترجمته (ج 3 ص 449) في عشرين بيت. ومنها قطعة لسان الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماني:

شفاء عياض للصدور شفاء ... وليس بفضل قد حواه خفاء
هدية بر لم يكن لجزيلها ... سوى الأجر والذكر الجميل كفاء
وفى لنبي الله حق وفائه ... وأكرم أوصاف الكرام وفاء
وجاء به بحرا يقول بفضله ... على البحر طعم طيب وصفاء
وحق رسول الله بعد وفاته ... رعاه وإغفال الحقوق جفاء
هو الذخر يغني في الحياة عتاده ... ويترك منه للبنين رفاء
هو الأثر المحمود ليس يناله ... ذثر ولا يخشى عليه عفاء
حرصت على الاطناب في نشر فضله ... وتمجيده لو ساعدتني فاء

ويفيد ابن الخطيب-رحمه الله-في هذه القطعة أن عياضا وفي حق الرسول (ص) وليس كذلك إذ لا يلائم مثلا قول البوصيري وغيره ممن يحوم حول القول في هذا الجانب العظيم :

إنما مثلوا صفاتك للنـــــــــا س كما مثل النجوم المـــاء

ويحفظ لابن الخطيب نفسه قوله :

يروم مخلوق ثناءك بعدمـــــا أثنى علــى أخلاقــك الخـــلاق

ومن المقطوعات في الموضوع للحافظ العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد المقري المراكشي الذي التقى في رحلته بمراكش بأربعة عشر عالما. قال مؤرخ الدولة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في تصديره لروضة الآس: وبمراكش تعرف المقري أيضا على طائفة من العلماء والأدباء الذين كانت تعج بهم تلك الحاضرة وتزدان وروى عنهم الأشعار والنثار واستجازهم وأدلى بدلوه بين دلائهم فيما كان يروج بينهم من مساجلات ومداعبات وقضايا علمية. وملأ رغبته بمجموعة نفيسة من الكتب اقتناها أو أهديت إليه. ونقل بعضها فيما بعد إلى مسقط رأسه. فكان أول من أدخلها إليه هـ. وتوفي المقري-رحمه الله-سنة 1041 هـ - 1631 م وكانت مقطوعته المشار إليها كذيل لبيت من قصيدة الأديب محمد الوجدي المعروف بالغماد (تـ 1033 هـ - 1023 م) مطلع القصيدة :

للنفس مني طموح ليس يـتـنـيها عما تؤمل من أقصى تمـنـيـها

والذيل قوله :

ولي بمراكش شوق أكابـــــده لو أسعد الدهر في مرأى مغانيهـــا
مثوى عياض أبي الفضل الذي بسقت أفنانه فحلت طعما لجانيهـــا
فكم له من تآليف قد اشتهـــرت ألفاظهـا رائقـات مع معانيهــــا
حازت مشارقه خصل السبـاق كمـا شفا النفوس شفاه من تعنيهـــا
كنوز عرفانه والفضل شيمتـــه تولي نفوس الورى علما فتغنيهـــا

انتهى المراد منها. وبما أن رضى الناس غاية لا تدرك نجد من يحاول تعكير صفو هذا الجو. ولكن بدون جدوى. فالزمخشري العلامة المحدث الشهير محمود بن عمر (ت 538 هـ - 1143 م) لما استجازه القاضي أبى أن يجيزه. ومن هنا ربما يأخذ بعض المبتلين بالانتقاد. أن عدم تلبية الزمخشري لرغبة الإمام عياض. دليل على قصوره بحيث لو كان بالدرجة الأولى للبى دعوته. ويجد ذلك ذريعة لمبتغاه حول عياض. ولا يقال إنه استصغره لأن الزمخشري لم يتقدم عليه في الولادة إلا بتسعة أعوام فقط ولعل ذلك الامتناع كان نتيجة حسد. (حسد فتى إذ لم ينالوا سعيه) ولما بلغ القاضي امتناع الزمخشري من إجازته قال الحمد لله الذي لم يجعل يدا لمبتدع أو فاسق.

قلت : ومن المعلوم عند المحدثين أن من يتظاهر ببدعته لا تجوز الرواية عنه. روى القاضي في الإلماع بسنده للإمام مالك أنه قال لا تأخذوا العلم عن أربعة وخذوا ممن سواهم. لا يؤخذ من سفيه معلن بالسفاه وإن كان أروى الناس. ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه. ولا من كذاب يكذب في أحاديثه الناس وإن كنت لا تتهمه بكذب على رسول الله (ص) ولا من شيخ له عبادة وفضل إذا كان لا يعرف الحديث (هـ).

وابن تيمية أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت 728 هـ - 1327 م) ينقل عنه قوله لما رأى الشفا. غلا هذا الميغربي. قال أبو عبد الله محمد الرصاع في فهرسته (ت 894 هـ - 1488 م): ولما ذكر لابن عرفة الشيخ الإمام محمد بن محمد (ت (803 هـ - 1400 م) أن ابن تيمية قال في صاحب الشفا: (انه غلا) قال الشيخ ابن عرفة يتمه الله ما زال يقدح في العلماء والأولياء. قال الرصاع/ قال شيخنا رحمه الله : لعل قوله في كلام صاحب الشفا (غلا هذا المغيربي). إنما انكاره على تسميته في قوله وسميته (بكتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى) لأن قوله التعريف فيه مناقشة لأن الذي يعرف هو الأمر الخفي أما ما كان وجوده في الأذهان أشهر من نار على علم فلا يصح فيه ذكر ذلك ولما بلغ ذلك بعض الشيوخ قال إنما يصح تأويله عنه لو صححنا اعتقاده. واعتقاده فاسد لأنه يقول هذا

وأشد منه ألا ترى إلى ما ذكر عنه في حديث النزول هـ. وفي الأزهار عن أبي العباس أحمد بن محمد البسيلي تلميذ ابن عرفة مما التقطه من كلام شيخه ابن عرفة أن تقي الدين بن تيمية قال: لما رأى شفاء القاضي أبي الفضل عياض، غلا هذا المغيربي وإلى الرد عليه أشار بقوله :

شفاء عياض في كمال نبينــــا	كواصف ضوء الشمس ناظر قرصهــا
فلا غرو في تبليغه كنه وصفـــه	وفي عجزه عن وصفه كنه شخصهـا
وان شئت شبهه بذكر امـــارة	بأصل ببرهان مبيـــن لنقصهـــا
وهذا لقول قيل عن زائـــغ غـــلا	عيـاض فتبـت ذاتـه عـن محيصها

انتهى أزهار الرياض (ج 5 ص 9).

ونقل عن الإمام أبي عبد الله محمد بن احمد الذهبي (تـ 748 هـ ـ 1346 م) ما نقله الخفاجي في شرحه نسيم الرياض عنه. فقال واعلم أن في الشفاء بعض أحاديث ضعيفة، وقليل مما قيل أنه موضوع. وقد نبه على ذلك كله الجلال السيوطي في كتابه (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا)، ولم ينصف الذهبي في قوله أنه محشو بالأحاديث الموضوعة والتأويلات الواهية الدالة على قلة تفقد مما لا يحتاج إليه قدر النبوة، وهو تحامل منه لا ينبغي. وقال ابن جعفر في الرسالة المستطرفة) : ولم ينصف الذهبي فيقوله محشو بالأحاديث الموضوعة (هـ). في أما ما نقل عن السلطان الأعظم المولى محمد بن عبد الله، فقد كانت له-رحمه الله-فكرة خاصة ترجع إلى الإصلاح من حيث النظر في تثقيف الطلبة وليس كل شفا. بل كان عنده كتاب الشفا بالمكان الأسمى، إلا ما كان من مسائل لم ترقه وليست في خصوص كتاب الشفاء بل غيرها من الكتب وذلك كالربع الأخير منها وحديث الإفك من البخاري، أما المنطق والكلام والفلسفة وكتب غلاة الصوفية والقصص، فمنع قراءتها في المساجد خشية إضلال طلبة البادية. أفاد العلامة محمد المدني() بن الحسني الرباطي (تـ 1378 هـ ـ 1959 م) في ترجمة المولى محمد بن عبد الله المذكورة في أول الفتوحات الإلهية في أحاديث خير البرية للسلطان

المذكور. وذكر العلامة البحاثة محمد بن تاويت الطنجي فيما ذكر عن عياض أول المدارك. وأعني (المولى محمد بن عبد الله) بقراءة كتاب الشفا ولم تعجبه التفاصيل واستقصاء الجزئيات في قسم (حكم من سب رسول الله (ص)) فانتقد عياضا وبعث بانتقاده إلى علماء مصر يسألهم عن رأيهم فأجابه من علماء الأزهر الشيخ الأمير والشيخ عبد المعطي الحريري يؤيدان وجهة نظره (هـ).

ومن الوثائق الغريبة رسالة ذكرها صديقنا العلامة المؤرخ محمد داوود التطواني بتاريخ تطوان قسم 1 مجلد (ج 7) نقلا عن كناش عتيق بعث به إليه المؤرخ عبد السلام بن سودة صاحب الدليل. والرسالة كتب بها الشيخ التاودي بن الطالب بن سودة (ت 1209 هـ - 1794 م) يلفت فيها نظر أمير المؤمنين إلى أن يرجع عما انتقد به خليلا والسبكي وعياضا. ثم رد عليه الأمير المذكور برسالة يبين له فيها وجهة نظره حول أولئك الأعلام. وهي مهمة تراجع في الكتاب المذكور. وإنما أذكر منها ما تمس حاجتنا إليه قال المولى محمد دفاعا عن فكرته: وأما كتاب الشفا لعياض فالثلاثة الأرباع الأولى من أحسن ما يكون مقبولة عند جميع العلماء والربع الأخير وقع فيه للعلماء كلام كثير لما فيه من حكايات الأقوال التي تمجها الأسماع وتنفر منها الطباع حتى أنه وقع الاتفاق من المحققين على عدم قراءته وحين يقرأون الثلاثة الأربع الأولى يختمون الكتاب (هـ).

العناية بالشفا في الأوساط المغربية

وما يلفت النظر حول هذه النقطة. عناية علماء المغرب بشرحها وقراءتها وقد عد ممن شرحها بالمغرب 15 عالما ومن بحث وجد أكثر من ذلك بكثير. بعهده وتكتب هذه الحسنة المقبولة في صحفه. فلقد أمر جلالة الملك حياه الله وأيده بطبع ترتيب المدارك هـ. بتصرف في البعض مما نقل.

وعنايتهم بها من هذه الناحية أكثر من عنايتهم بغيرها من كتب الحديث وما من شارح شارح إلا ويذكر سنده إلى مؤلفها. وما ذلك إلا بعد قراءتها الفينة بعد الفينة ونرى أيضا في الفهارس المغربية. ما للعلماء من ولوع بقراءتها فيذكرون أسانيدهم فيها بإزاء أسانيد الموطأ والبخاري ومسلم.

وحيث كان الناس على دين ملوكهم كما يقال. ومن المعلوم أن ملوك المغرب من عهد مؤلف الشفا إلى الآن كانت لهم التفاتة كبرى لعياض وكتبه فلا غرو حينئذ أن يكون للمغاربة هذا الاتجاه المحبوب لديهم لكتاب الشفا. أما بالنسبة لدولتنا العلوية المباركة. أعز الله مناهجها وخلد في الصالحات ذكرها. فقد طرق الأستاذ المؤرخ محمد ابن تاويت الطنجي في تقديمه المدارك (جزء 1 ص ل) حيث قال: وبعد فلأبي الفضل عياض ولكتبه مكانة خاصة في نفوس الأسرة العلوية المالكة منذ القديم. ثم ذكر المولى محمد بن عبد الله وأنه كان شديد العناية بكتب عياض توفي المولى محمد بن عبد الله سنة (1204هـ - 1789 م) ثم ذكر أن المولى عبد العزيز قدس الله روحه (تـ 1362 هـ - 1943 م) قد أنشأ قراءة الشفا للقاضي عياض في الضريح الإدريسي بفاس عند شروق كل يوم. وعين لذلك جماعة من العلماء وخصص لكل واحد منهم راتبا يوميا مقابل القيام بعمله. ثم ذكر عناية السلطان مولاي عبد الحفيظ أسكنه الله رضوانه (تـ 1356 هـ - 1937 م) ذاكرا أن عنايته بعياض معروفة فقد طبع على نفقته كتابه (مشارق الأنوار وأعزم على طبع المدارك، بمصر إلا أنه لم يتم له ذلك. وقال بعد وحدثني بعض المقربين إلى حضرة جلالة الملك الخالد الذكر مولانا محمد الخامس أنزله الله مقعده الصدق عنده. أن جلالته قد عزم على طبع ترتيب المدارك وأنه أمر بجمع نسخه لهذا الغرض. غير أن هذه الأمنية الغالية لم يكتب لها أن تتحقق إذ ذاك. وأبت الأقدار الإلهية حين حالت مرارا دون أن تحقق رغباتهم الكريمة. وحين اختارت لتنفيذها وتحقيقها حضرة **صاحب الجلالة مولانا أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله**، إلا أن تقرن هذه المأثرة العلمية الخالدة

قلت: وبقي عليه أن يذكر ما كان من ذلك على عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن المولى هشام (تـ 1276 هـ 1859 م) ذكر مولاي عبد الرحمان بن زيدان (تـ 1365 هـ - 1945 م) في الإتحاف (جزء 5 ص 414) بترجمة مولاي العباس بن مولاي عبد الرحمان العلامة الجليل أنه درس بجامع المنصوري من الحضرة المراكشية وأصدر أباه الأمر لطلبة العلم بالحضور عنده. انتهى.

وكان من جملة من يحضر مجلسه العلامة الأديب عبد الله بن محمد الكنسوسي (تـ 1317 هـ - 1899 م) ودروس مولاي العباس المذكور كانت في شفاء القاضي عياض وحينما ختمها، أنشد عبد الله المذكور قصيدة تتضمن الشفا ومؤلفها ومدرسها.

عبقت شذى كالمسك أو كالآس ... وتضوعت بأطايب الأنفاس
هاذي المحافل بالنبي محمد ... وحديثه المروي بين الناس
تجلى علينا الحور من أوصافها ... فكأننا في نزهة الأعراس
وتدار بين الجالسين شمولها ... فتميل سكرا جملة الجلاس
فهي الشفاء لمن تعاضل داؤه ... لكنها تنقي من الأدناس
وهي المراد لمن يحاول روضة ... يجني به ثمرات عز رأس
وهي الزلال العذب دون حراسة ... فاشرب بها هنيت حلو الكأس
واشكر أبا الفضل الذي قد صاغها ... صوغ النظار وحلية الأكياس
عياضا القاضي الذي خضعت له ... أهل النهى من سائر الأجناس
ذاك الذي لولاه كانت غربنا ... في غربة من فضلها وتناس
ذاك الذي أضحت به مراكش ... تزهى وترفل في بهي لباس
حياه رب العالمين ولم تزل ... سحب الرضى تسقيه سقي غراس
وكذاك فاشكر من أفادك علمه ... شرح المتون وكان غلقا قاس
وأجال في ميدان كل عويصة ... فكرا يضيء إضاءة النبراس

حتى أبان لك الذي املتـــه — من فهم هذا الوضع فعل مـــواس
ذاك الهمام العالم البحـر الـــذي — فاضت معارفه بغير قيـــاس
الفارس البطل الممجـد مـن لـه — في الفخر بيت ثابت الأســـاس
بيت النبوءة والخلافـة ركنـه — نأوي إليه من الردى والبـــاس
وإذا نخاف من الضلالة لم نجـد — هربا لغير السيـد العبـــاس
شبل الملوك الغر وابن إمامنـا المـ — ـنصـور سيـف اللـه حيـن عمـاس
خير السلاطين الكرام فمـا لـه — شبـه سقـارب مـن بنـي وطـاس
كلا ولا لبنـي أميـة مثلـه — في المكرمـات ولا بنـي عبـاس
أيامـه صـدرت برحمـة ربنـا — عمت جميـع النـاس بالإينـاس
واستبشـرت كل الورى في ظلـه — بالأمن من جهد ومن إفـــلاس
لا زال منصور البنود مظفـــرا — تعنو له الآساد في الأخيـــاس

وفي الجزء الثالث من (الاتحاف) بترجمة العلامة الرياضي الكبير أمير المومنين المولى محمد بن المولى عبد الرحمان نقلا عن الاستقصا. وفي إحدى وثمانين ومائتين وألف، كمل بناء القصر المحمدي الذي أنشأه بالثغر الرباطي، واستدعى لوكيرته علماء العدوتين سلا والرباط خصص لكل يوما فختموا فيه صحيح البخاري وشفاء القاضي عياض. قال صاحب الاستقصا: فدخلنا من جملتهم وتقصينا منازلها ومقاعدها فرأينا ما ملأ أبصارنا حسنا وإتقانا وعجيب صنعة (هـ). ولم يذكر الشفا في الاستقصا وكان حاضرا ومولاي عبد الرحمان ذكره وكان اكثر اطلاعا على تاريخ القصور الملكية. إلا أن يقال. إن الرباطيين قرأوا الشفا دون السلويين.

وفي عهد المولى محمد هذا. كان حفل كبير بدار عامل مراكش محمد بن داوود ختم فيه كتاب الشفا حضره علماء مراكش وأعيانها وألقى الأديب المذكور العلامة عبد الله الكنسوسي قصيدة نونية رائعة في 46 بيتا لولا خوف الإطالة لأثبتها لحسنها مطلعها :

حب الحديث علامة لإيمـــان وشفا الصدور من الرد والـــران

ومنها أبيـــات :

وأهيلـه أهـل الرسول حقيقـــة بلغـوا بـه فضـلا بكـل مكـــان
ذاذوا بسيـف الحـق عن حرماتـــه أهـل الهـوى والزيـغ والخـــذلان
فجزاهم الرحمـان فـــردوس جنـــة دار الرضى والـروح والريحـــان
وبمثلـه عيـاض روض معـــــارف وعـــوارف جلـت عن الحسبـــان
لولاه ما ذكرت مفاخـر غربنــــا بمشـارق الأنـوار ذات بيـــان
أمـا الشفـاء فمـا لهـا من مشبـــه هيهـات ما لمـس السمـا ببنـــان
عقلت عبارتهـا العقـول برقـــة وبلاغـة عفـت علـى سحبـــان
فترى أبا الفضل المفدى ناصبـــا شرك العقول بصحة الإتقـــان
فسقى الإله ثراه شآبـــوب الحيـــا يهمي له بمواهب الرضـــوان
وبجاهـه نرجـو لعاملنـا الرضـى والعز في الإســرار والإعـــلان
سعدت به هاذي البلاد وأسبلـــت ذيل الفخار بسائر البلـــدان

عياض في دراسته ما تبقى من الكتب

في علوم الفقه والكلام والتصوف والأدب المذكورة في الغنية. أطرق ذلك بصفة إجمالية. ففي الفقه ولا أعني بوصفه بالفقيه. المدلول المتعارف للفقيه المتعارف الآن ومنذ عشرات الأعوام الذي هو مجرد الحصول على ملكة يستطيع بها الدارس الأخذ من العلوم لا من حيث القبول والرد. بل أعني المدلول المتعارف عند رجال المدارك والمعروف في كتب الأصول. وسبق لنا بأن عياضا بلغ درجة الاجتهاد. ومع ذلك لم يتنطع وحافظ على مقام مقلده الإمام. وعفا الله عن المتنطعين. وفي الغنية أنه لازم أبا عبد الله التميمي كثيرا للمناظرة في المدونة. وسمع من ابن رشد بعض كتابه في اختصار المدونة. كما لازم شيخه أبا عبد الله

الأموي وناظر عليه في المدونة مدة طويلة وهكذا كانت دراسته في الفقه على جميع أشياخه.

ويكفينا أن نتعرف من خلال كتابه (التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة) على ما له من الباع الطويل في هذا العلم. بعدما ذكر المقري في الأزهار ان لتدريس المدونة اصطلاحين عراقي وقروي. قال: وقد سلك القاضي في تنبيهاته مسلكا جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين وذلك لقوة عارضته(هـ). وعلى هذا الكتاب كان المعول في حل ألفاظ المدونة وحل مشكلاتها وتحرير رواياتها وتسمية رواتها ويرجع السبب في ذلك إلى أنه جمع بين شرح المعاني وإيضاحها وضبط الألفاظ وذكر من رواها من الشيوخ والحفاظ. وفي الأزهار أيضا (جزء 4ص 247) ومن تواليفه رحمه الله كتاب المستنبطة في شرح كلمات مشكلة وألفاظ مغلطة مما وقع في كتاب المدونة والمختلطة. (عشرة أجزاء) ولم يؤلف في فنه مثله وقد غلب على تسميته ببلاد افريقية وغيرها (التنبيهات) هـ. ولما رجع من رحلته العلمية من الأندلس سنة 508هـ كان أول مافعل أن جلس للمناظرة في شتى الميادين العلمية وعمره حينئذ 32 سنة واجلس للشورى إلى أن ولي قضاء سبتة سنة 515هـ فيكون قضىفي المناظرة ومجلس الشورى 7 أعوام إلى أن استدعي لقضاء غرناطة فنقل إليها سنة 531 هـ ومكث فيها محمود السيرة سنة واحدة.

وفي علم الكلام لم يذكر في الغنية كتابا درسه في علم الكلام سوى كتاب واحد قال في ترجمة شيخه أبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي (تـ 520 هـ - 1126 م): انه كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظار أهل السنة عارفا بالنحو والأدب وله في ذلك تصانيف مشهورة وسكن بلدتنا مدة وتردد بالأندلس والمغرب وكان آخر المشتغلين بعلم الكلام بالمغرب وقرأت عليه أرجوزته الصغرى التي ألف في الاعتقاد هـ. وفي الأزهار (ج 3 ص 161) أن أصل أبي الحجاج من سرقسطة وسكن مراكش وبها توفي سنة 520 هـ قال: وهو من تلامذة أبي الحسن المرادي الحضرمي (تـ 489 هـ - 1086 م) وفي الغنية ص 487: والمرادي هذا هو أول من أدخل علم الاعتقاد إلى المغرب الأقصى وسكن بأغمات.

فلما توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء حمله وولاه القضاء فمات بأركر وفي الغنية بأزكي فخلفه أبو الحجاج يوسف في علوم الاعتقادات(هـ).وعلى أن المرادي هو أول من أدخل هذا العلم للمغرب يكون أبو الفضل من السابقين الذين درسوا علم الكلام لأول مرة بالمغرب، إذ لم يكن علم العقائد معهودا في المغرب إلا في هذا العهد. وقد فند العلامة الناقد ابن تاويت في مقدمته للمدارك دعوى ابن تومرت بأن أهل المغرب لم يكن عندهم علم بعلم العقائد وذكر ألعوبته الشنيعة التي خلدها عليه التاريخ. أقول وكون المرادي أول من أدخل علم الاعتقادات للمغرب وكونه سكن بأغمات نفهم من ذلك أن دراسة هذا الفن كانت لأول مرة بمراكش العاصمة المغربية قبل غيرها من البلاد.

وفي علم التصوف، نرى له في هذا الميدان-رضي الله عنه-مواقف مرضية حميدة حول التصوف والصوفية وقد ذكر ولده في التعريف أن أباه كان ذاكرا لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار الصوفية ومذاهبهم(هـ). وفي تراجمه لهم دليل قاطع على أنه يحب التصوف وأهله، وفي الغنية قال في ترجمة شيخه أبي عبد الله محمد ابن خميس الصوفي: لم يذكر مترجموه وفاته قال عياض: كان من أهل غرب الأندلس وكان ملازما بإشبيلية كثيرا ويضرب في الأرض يبتغي فضل الله برأس مويل معه. وكان من أهل التقشف التام والصلاح والفضل والاستقلال بعلم آفاق الأعمال والإخلاص والرقائق والتكلم على كتب حارث المحاسبي وطبقته والحفظ لكلامهم قال: وله تأليف سماه (المنتقى من كلام أهل التقى) سمعت منه بعضه من لفظه وجالسته كثيرا - رحمه الله - وأخبرني (كتاب الرعاية) لحارث المحاسبي ولا أذكر سنده فيها (هـ).

ومن أراد أن يعلم مدى تأثر عياض بتصوف ابن خميس وشيخه المحاسبي فلينظر ترجمة المحاسبي في طبقات ابن سلام ص 56 ورسالة القشيري ص 13 ليقف على الأفكار الرائعة الصادرة من أعماق قلب مليء بالإخلاص والثقة بالله. وقال في ترجمة مجيزه أبي سعيد حيضر ابن يحيى: إنه مجاور بمكة موصوف بصلاح وخير وكان من خيار الخراسانيين وكان ممن سمع واشتغل بخدمة

السلطان واتسع في الدنيا ثم تزهد وتصوف. كان يصوم أكثر الدهر وأخبرني بعض من صحبه أنه كان يعتمر كل يوم عمرة ولا يكلم في رمضان أحدا قال: وما رأيت أحدا أصبر على الطواف منه هـ. وروى عن مجيزه علي ابن المشرف مسلسلا في السبحة التي هي شعار الصوفي قال: وأخبرنا ـ رحمه الله ـ فيما كتبه لنا قال: سمعت أبا الحسن ابن المرتفق الصوفي يقول: سمعت أبا عمرو بن علوان وقد رأيت في يده سبحة فقلت: ياأستاذ مع عظيم اشارتك وسنى عبارتك وأنت مع السبحة ؟ فقال لي: كذا رأيت الجنيد بن محمد وفي يده سبحة فسألته عما سألتني عنه فقال لي: كذا رأيت أستاذي بشر بن الحارث وفي يده سبحة فسألته عما سألتنى عنه فقال لي: كذا رأيت عامر بن شعيب وفي يده سبحة فسألته عما سألتني عنه فقال لي: كذا رأيت أستاذي الحسن بن أبي الحسن البصري وفي يده سبحة .

فسألته عما سألتني عنه فقال لي: يابني هذا شيء كنا استعملناه في البدايات ما كنا بالذي نتركه في النهايات. أحب أن أذكر الله تعالى بقلبي ويدي ولساني(هـ). وفي السبحة لرجال العلم كلام طويل الذيل. وقد تصدى لذلك جلال الدين السيوطي (تـ 911 هـ ـ 1505 م) في كتابه (المنحة في السبحة) وهو في مجموعة الحاوي للفتاوي (ج 2) وقد عرف به الأستاذ النابغ المتخرج من الجامعة اليوسفية السيد أحمد الشرقاوي اقبال في كتابه القيم (مكتبة الجلال السيوطي) ص 357 رقم 653 وقد تعرض للكلام على السبحة العلامة المحدث محمد بن المعطي الرعيني العمراني المراكشي (تـ1296هـ ـ 1978م) في فهرسته (حديقة الأزهار في ذكر معتمدي من الأخيار) مخطوط خاص. وقد نقل المسلسل المذكور عن القاضي عياض من الغنية ونرى القاضي أيضا يروي كلام التستري (تـ 283 هـ ـ 896 م) بسنده إليه قال: قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: الدنيا كلها جهل وموات إلا العلم والعلم كله حجة إلا العمل والعمل كله هباء إلا الإخلاص والإخلاص له خطر عظيم حتى يختم به انتهى (التعريف ص 47) هكذا كان ميول أبي الفضل ـ رضي الله عنه ـ إلى التصوف الطاهر النقي.

وفي التاريخ وبحسب ما عند مترجميه كانت له جولات في التاريخ وألف فيه عدة كتب لم يظهر للوجود منها إلا ترتيب المدارك في طبقات المالكية والفهرس المسمى بالغنية. وما ذكر له من غيرها كأخبار القرطبيين وتاريخ المرابطين والجامع في التاريخ والعيون الستة في أخبار سبتة. والمعجم. ذكره في الغنية بترجمة شيخه الصدفي قال: وقد بسطت أخباره وأخبار شيوخه في كتابنا المعجم. وهذه الكتب الخمسة تعتبر مفقودة بحيث لو عثر عليها لعلمنا منها مناهجه في البحث عن الحياة السياسة والاجتماعية والاقتصادية كما علمنا ذلك في بحثه عن الحياة العقلية (بالغنية) و (ترتيب المدارك) وإن كنا قد نجد بعض مسائل اجتماعية فيه في أثناء التراجم ولكن ما دام الكتاب تغلب عليه الحياة الدينية والعلمية لا يفيد ككتاب دولي تتبع الحوادث وتقلبات الأحوال من قبل الملوك وشعوبها ولا أدري ما يقال عن سبب فقدان هذه الكتب. قال في التعريف: كان عالما بأخبار الملوك وتنقل الدول وأيام العرب وسيرها وحروبها ومقاتل فرسانها. ذاكرا لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار الصوفية ومذاهبهم.

وفي الأدب كانت دراسته في الأدب بالمعنى الشامل لعلوم اللسان العربي المجموعة في قول القائل:

صرف بيان معاني النحو قافيــــة   شعر عروض اشتقاق خط إنشــــاء
محاضرات وثاني عشرها لغـــة   تلك العلوم لها الآداب أسمـــاء

وقد عرف الأدب في المصباح نقلا عن أبي زيد الأنصاري بقوله: (كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل) وبهذا الاعتبار تتسع دائرة الأدب إذ ما من فن إلا وهو فضيلة. وهذه نظرية صاحب حديث الأربعاء. أما القاضي عياض الأديب فقد حلاه ولده في التعريف بقوله: كان ريانا من الأدب شاعرا مجيدا يتصرف في نظمه أحسن تصرف ويستعمل في شعره الغرائب من صناعة الشعر. مليح القلم من أكتب أهل زمانه خطيبا فصيحا حسن الإيراد لا يخطب إلا بما يصنع خطبته فصيحة ذات رونق عذبة الألفاظ. سهلة المآخذ.

أما كتب دراسته في هذا الفن (الكامل) لمحمد بن يزيد بن عبد الكبير المبرد (تـ285هـ ـ 898م) وكتابه أحد الكتب الرئيسية في الأدب. قال ابن خلدون : سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين وهي كتاب الكامل للمبرد. وأدب الكاتب لابن قتيبة. وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها (الأمالي) لأبي علي اسماعيل بن القاسم البغدادي القالي نسبة إلى قالي قلا. بلد من أعمال أرمينية توفي سنة (316 هـ ـ 928 م). شرحه العلامة الأديب الوزير أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري الشلطيشي نسبة إلى بلدة صغيرة في غرب اشبيلية (ت 480 هـ ـ 1087 م).

(أدب الكاتب) لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي المتوفى (276 هـ ـ 889 م) شرحه العلامة الأديب النحوي اللغوي أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد بكسر السين البطليوسي (تـ 521 هـ ـ 1127 م) وسمى شرحه بالاقتضاب في شرح أدب الكتاب ورأيت في التكملة لكتاب الصلة بترجمة أبي العباس أحمد بن بلال أنه الذي شرح أدب الكتاب بالاقتضاب. والذي نسب ذلك لابن بلال هو أبو عبد الله ابن خلصة النحوي في رسالة ناقض فيها البطليوسي وكتبه. وذكر أنه أغار عليه وانتحله على أن جميع المترجمين للبطليوسي ينسبون الكتاب له. ولم نر لعياض فيما رأيت أنه درس البيان والتبيين رابع أصول فن الأدب لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ (تـ 255 هـ ـ 868 م). مع أن الكتاب لا يقل أهمية عن باقي الأصول الأربعة. يترك الأمر لنظر القاضي واختياره (كتاب فصيح الكلام) قال في كشف الظنون : اختلف في مؤلفه. فقيل للحسن ابن داوود وقيل لابن السكيت. والأصح أنه لأبي العباس أحمد بن يحيى الكوفي النحوي المعروف بثعلب (تـ 291 هـ ـ 903 م) وشرحه الكثير من العلماء كما في الكشف (ومختصر العين) لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (تـ 379 هـ ـ 989 م) (إصلاح المنطق) للأديب الكبير اللغوي الشهير بابن السكيت (تـ 244 هـ ـ 858 م) وهو من الكتب المختصرة الممتعة في الأدب قال في الكشف ولذلك

تلاعب الأدباء بأنواع من التصرفات فيه وذكر له عدة شروح (وكتاب الحماسة) لأبي الفتح ثابت بن محمد الجرجاني هكذا نسب له الحماسة في الغنية، وذكر في(هدية العارفين) أن من جملة كتب أبي الفتح شرح أشعار الحماسة لأبي تمام. وفي الكشف لم يذكره في جملة من شرح الحماسة وتوفي أبو الفتوح سنة (431 هـ ـ 1039 م)، والظاهر أن ما له شرح حماسة أبي تمام (الجمل الكبيرة في النحو) لأبي القاسم عبد الرحمان بن اسحاق الزجاجي المتوفى سنة (339 هـ ـ 950 م) اعتنى العلماء به فشرح شروحا كثيرة ذكرها في الكشف.

(الإيضاح)، للشيخ أبي علي حسن بن أحمد الفارسي (تـ 377 هـ) قال في الكشف:وهو كتاب متوسط مشتمل على 190 بابا منها إلى 166، نحو والباقي إلى آخره تصريف وللعلماء به أيضا عناية كبيرة فشرح عدة شروح مذكورة هناك.

(الكافي في النحو) لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوي (تـ 338 هـ ـ 949 م).

(الواضح في النحو) لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي مؤلف طبقات النحويين واللغويين المتقدم.

(المقتضب) قال في الكشف المقتضب في الخطب للمبرد هكذا في المطبعة القديمة وقال في شرحه الرماني وعلق على مشكلات أوائله أبو القاسم سعيد بن سعد الفارقي وفي المطبعة الجديدة المقتضب في النحو وهو نظير الكتاب وجعله بين قوسين. بعد ذكر المقتضب في الخطب فيكون للمبرد حينئذ كتابان كل منهما يسمى مقتضبا ويكون ما درسه عياض المقتضب في النحو حسب ما يظهر من سياق الغنية. ولما ذكر في الغنية الأديب الكبير الوزير عبد المجيد ابن عبدون قال : لقيته بسبتة وأقسم لي بأنه ما قصد سبتة إلا للقائي والاجتماع بي وسألني عن أشياء في نفسه وذاكرته في شيء وسمعت عليه قصيدته الرائية في الرثاء المشهورة المتضمنة من علم الحدثان ومهالك الأعيان. ما يعجز عن وصفه اللسان وأولها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

وسمعت عليه من كتابه في نصرة أبي عبيد (هـ).

بهذا الشكل كانت دراسة أبي الفضل للأدب. الذي تأثر به منذ نشأته قال في ترجمة مروان بن عبد الملك اللواتي، لاقيته بسبتة أول طلبي للأدب في بعض جيئاته إليها وحضرت مجلسه وسألني عن مسائل من الأدب وأجبته (هـ).

هذه هي المصادر التي تخرج بها القاضي عياض من مدرسته وهو يمثل امام أشياخه من فحول العلماء الممتازين المذكورين فيما يلي :

1) أبو عبد الملك مروان بن عبد الملك اللواتي (تـ 499 هـ - 1097 م) الغنية ص 258.

2) الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله الجزيري توفي في حدود 500 هـ كما في الغنية ص 146.

3) شيخ سبتة في النحو أبو علي الحسن بن علي ابن طريف النحوي التاهرطي (تـ سنة 501 هـ - 1107 م. الغنية ص 204.

4) أبو الحسن سراج بن عبد الملك الأموي الوزير اللغوي الحافظ (تـ 507 هـ - 1113 م) الغنية ص 260.

5) أبو بحر سفيان بن العاصي الأسدي الفقيه الراوية (تـ 520 هـ - 1126 م) الغنية ص 265.

6) الأديب الراوية أبو عبد الله محمد بن سليمان ابن أخت غاني (تـ 525 هـ - 1130 م) الغنية ص 127.

7) الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابوري (تـ 527 هـ - 1132 م). الغنية ص 234.

8) أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف المقري النحوي المعروف بابن البيدش (تـ 528 هـ - 1133 م) الغنية 238 هـ.

نظرة عن أخلاقـــه

قد اتصف عياض ـ رحمه الله ـ بأخلاق كريمة يمثل فيها تلك الوراثة النبوية (العلماء ورثة الأنبياء) وفي الأزهار ما حكاه عن عبد الرحمان بن القصير الغرناطي (تـ 576 هـ ـ 1170 م) إذ قال: دخلت مجلس القاضي أبي الفضل عياض ـ رحمه الله ـ إذ كان قاضيا عندنا بغرناطة.وبه جماعةمن الطلبةوالأعيان يسمعون تأليفه المسمى بالشفا. فلما وصل القارئ إلى هذه الكلمات (ومن قسم به قسط) قرأه ثلاثيا وكذلك كان في الأم التي كان يقرأ فيها فقلت للقاضي-وصل الله توفيقه-هذا لا يجوز في هذا الموضع. فقال : ما تقول ؟ قلت : إنما هو اقسط لأن المراد في هذا الموضع عدل. فالفعل منه رباعي كما قال الله تعالى (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) وأما قسط فإنما هو (جار) كما قال تعالى : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) فتعجب وقال لمن حضر : إن هذا الكتاب قد قرأه علي من العالم ما لا يحصى كثرة. ولا أقف على منتهى أعدادهم وما تنبه أحد لهذه اللفظة وفاه بلسان الإنصاف وشكر بفضله. وأبلغ ببراعة علمه في تحسين المناقب والأوصاف وأورثني ذلك عنده كرامة وفي التعريف قال: بلغني أن ابن زنباع اعترف له بالفضل وذم نفسه.

وفي التعريف قال : وبلغني أن زعيما من زعماء المطالبين له. كان يقول: هو والله خير منا فإننا نؤذيه ونطالبه فيصبر ويقضي حوائجنا. ويتلقاها بالبر والبشر.

وفي الأزهار (ج 5 ص 84) ومن مناقب عياض ما رأيت بخط محمد بن صعد التلمساني : حدثوا عن عياض. أنه لما توفي والده. وكان من عباد الله الصالحين وخيار أهل العلم ترك موروثا عنه سبعة عشر ألفا من الذهب فتنزه عنها القاضي أبو الفضل. وتركها لأخيه مع علمه بطيب وكسب والده ونزاهته وفي التعريف لابن عياض ما يخالف هذا حيث قال : ولما طالت مدته (أعني أباه) في

خطة القضاء. أتلف أكثر ما ورث عن أبيه حتى احتاج الى بيع بعض رباعه بمدينة سبتة. في ثمن ضيعة اشتراها بخارج مدينة مالقة. ومات-رحمه الله-وعليه دين خمسمائة دينار - صدق الشافعي حيث يقول: من ولي القضاء ولم يفتقر فهو سارق. وفي الأزهار (ج 3 ص 17) نقلا عن المرقبة قال : قلت وسكن القاضي أبو الفضل هذا بمالقة مدة وتمول بها أملاكا ونقله النباهي عن ولده في التعريف. ولم يكن في التعريف إلا ذكر ضيعة لا أملاك.(انظر المرقبة ص 101) ومن آثار عياض الدالة على كرمه وإحسانه ما ذكره في التعريف. أنه بنى الزيادة الغربية في جامع سبتة الذي كمل بها جماله و... بجبل الميناء الرابطة المشهورة. إلى غير ذلك من الآثار المحمودة. أما مواقفه في قضائه فكان ممن يضرب بهم المثل في العدل وفي إقامته الحد على صديقه ابن خاقان لأكبر دليل على ذلك. ولما ولي قضاء غرناطة عهد ولاية تاشفين بن علي. سار سيرة المعهود حيث اشتدت مراقبته عليه وعلى أتباعه فصار يشرد الأتباع والأصحاب عن الأعمال رغبة منهم في حسم الباطل والظلم مما ضاق به يوسف ذرعا. فسعى في إقصائه. وقد يقع هذا من تاشفين رغم ما وصف به من استقامة بعدما جرت أحكام القاضي القاسية ذيولها على جميع الدائرة. ولا بد أن يكون هنالك أصدقاء. تحمله صداقتهم على فعل ذلك ويكون ذلك هفوة من هفواته التي لا ينجو منها الإنسان ما دام بشريا. وإن كان محقق التعريف يتحامل على مؤلفه ويجعل نسبة ذلك لتاشفين من قبيل غرض شخصي.

الجانب الرباني في شخصية عياض

للأستاذ : أحمد العدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الجانب الرباني في شخصية عياض

تشاء عناية الله عز وجل أن يقام بهذه الحضرة المراكشية لقاء يجمع حملة الأمانة عن الأسلاف وورثة العلم عن صفوة الخلق وخاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. هذا اللقاء الذى يقام برسم «ندوة القاضي عياض» تكريما لشخصه وتشريفا لعلمه وتذكيرا بفضله وهذه مبرة عظيمة يعبر بواسطتها الأخلاف عن طاعتهم للأسلاف والقاضي عياض - رحمه الله - إن هو إلا نجم متألق من نجوم صلحاء هذه المدينة التي توصف عند أهل المعرفة منذ القدم بأنها تربة الأولياء.

نقل الفقيه سيدى محمد ابن الموقت - رحمه الله - عن أبي العباس السبتي - رحمه الله - أنه قال : «مراكش مدينة العلم والخير والصلاح» . ورحم الله لسان الدين ابن الخطيب فقد استحكمت هيبة هذه الأرض من قلبه واستحوذت على لبه عظمة المنار وتملكه سلطان العقيدة - وهو يشرف على هذه الحضرة في طريقه إليها - فانفجرت عواطفه الشعرية بالقطعة المأثورة :

ماذا أحدث عن بحر سبحت به ... من البحار فلا إثم ولا حرج
دحاه مبتدع الأشياء مستويا ... ما إن به درك - كلا - ولا درج
حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا ... صحت أبشري يا مطايا جاءك الفرج
قربت من عامر دارا ومنزلة ... والشاهد العدل هذا الطيب والأرج

ووصفها ـ رحمه الله ـ في مقاماته بأنها : «تربة الولي وحضرة الملك الأولى».

بهذه الكلمات أخلص إلى موضوع هذا العرض الذى وسمته بعنوان : «الجانب الرباني في شخصية القاضي عياض» ورسمت خطته في مقدمة ونبذة عن حياة القاضي تتضمن نشأته وحياته الدينية والخلقية والعلمية وختمت العرض بكلمة عن التراث العلمي كل ذلك بقدرما حضرني وقت تحريره من صفاء الذهن وما رزقني الله من التوفيق.

المقدمـــــة

كونوا ربانييـــــن

روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم. أنه قالّ : «ما من مومن ذكر أو أنثى حر ولا مملوك. إلاأوالله عز وجل عليه حق أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه. ثم تلا هذه الآية: **«ولكن كونوا ربانيين» الآية...** فالرباني منسوب إلى الرب يربي الناس بصغار العلم قبل كباره وكأنه يقتدي بالرب سبحانه في تيسير الأمور. هكذا روى الإمام القرطبي هذا المعنى عن أبي عباس رضي الله عنهما. فمدلول الكلمة ينطبق على العالم الذى يأخذ بنصيب وافر من العلم والحكمة والخبرة بالشؤون العامة للأمة.

وعلى هذا المعنى فسر مجاهد «الربانيين» بأنهم فوق الأحبار. واستحسن النحاس هذا التفسير وقال : «إن الأحبار هم العلماء والرباني الذى يجمع إلى العلم البصر بالسياسة». وتجمع كل المصادر التي تنقل كلام القاضي عياض في الحديث والفقه والتراجم على أن القاضي عياضا يتبوأ الصدارة إذا ذكر الربانيون.

نشأتـــــه

إن القاضي ـ رحمه الله ـ سرى بنفسه وينحدر من سلسلة السراة فهو إذا رضع السراء أفاويق ونترك الكلام في هذا الباب لولده القاضي أبي عبد الله محمد بن عياض في كتابه. الذي جمع فيه أخبار أبيه فقد نقل عن أبيه أن أجدادهم استقروا

في القديم بالأندلس ثم انتقلوا إلى فاس كما سبق لهم أن سكنوا القيروان وقال في حقهم عبد الله ابن حكم :

وكانت لهم بالقيروان مآثر   عليها لمحض الحق أوضع برهان

ويقول عن عمرون جده الأعلى: «إنه كان رجلا خيرا صالحا من أهل القرآن حج احدى عشرة حجة وغزا مع ابن أبي عامر غزوات كثيرة». ثم ذكر تاريخ ولادة أبيه القاضي عياض ونشأته فقال : «نشأ على عفة وصيانة مرضي الخلال محمود الأقوال والأفعال موصوفا بالنبل والفهم والحذق طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه معظما عند الأشياخ من أهل العلم كثير المجالسة لهم والإختلاف إلى مجالسهم إلى ان برع في زمانه وساد جملة أقرانه وبلغ من التفنن في فنون العلم ما هو معلوم.

هذه الصورة المشرفة عن نشأة القاضي عياض أنارت له السبيل في ما تبقى من أطوار حياته فانطلق يتسلق المراتب العليا حتى تسنم ذروتها.

طلبه وتحصيلـــه

ليس الغرض في هذا البحث الإستقصاء والإستيعاب وإنما المقصود ذكر فئة من شيوخ القاضي تمثل النموذج الأعلى والصفوة المثلى من أهل العلم والحكمة والصلاح الذين كان لهم - ولا شك - أثرهم البارز في التكوين العلمي والعملي عند القاضي عياض.

ونبدأ بالذين ذكرهم ولده أبو عبد الله في كتابه قال : «اخذ عن أشياخ بلده كالقاضي أبي عبد الله ابن عيسى والخطيب ابي القاسم والفقيه أبي اسحاق بن الفاسي وغيرهم ثم رحل إلى الأندلس فأخذ بها عن ابن عتاب وابن حمدين وابن الحاج ثم قصد مرسية فوجد بها أبا علي الحافظ الحسين الصدفي فسمع عليه كثيرا ولازمه وكان له به اختصاص فحصل له مسموع كثير في مدة يسيرة وأنهى الكلام في ذكر شيوخه بقوله : «انتهى أشياخه الذين ضم إلى فهرسته ممن سمعه أو أجازه واليسير منهم لقيه وجالسه ولم يسمع منه إلى مائة شيخ».

وقد خصص لهم في آخر الكتاب ترجمة رتب فيها أسماءهم ترتيبا معجميا ذكر من بينهم أمثال أبي الوليد ابن رشد ومحمد بن الوليد الطرطوشي والإمام المازري التميمي المهدوي فابن رشد أخذ عنه سمعا وإجازة والطرطوشي والمازري أخذ عنهما إجازة ومنهم أبو بكر ابن العربي أخذ عنه بالسماع وعبد الله بن محمد الخشني أخذ عنه بمرسية سماعا وإجازة.

انتقيت هؤلاء الأجلاء واقتصرت على ذكرهم وما اشتهر عنهم من العلم الغزير وبثه في صدور أهله. ولما حصل لتواليفهم من الإنتشار في أقطار المعمور فانتفع الناس بما جمعته من العلوم والمعرفة. ومن الراجح أن يوجد من بين الشيوخ الباقين من يضاهي هؤلاء في العلم والدين والمروءة والفضل ويوجد من بينهم من قصده القاضي بقصد التبرك وتكثير طرق الرواية وحصول شرف الإنتساب. ولم يعكف على تدوينهم وذكر مناقبهم الا تخليد فضلهم وفي هذا المضمار نسوق مثلا ما نقله القاضي في فهرسته عن شيخه الصدفي عند ترجمته لشيخه أبي الوليد الطرطوشي قال : «أخبرت أنه ـ أي الطرطوشي ـ إنما كان يطبخ ببيت المقدس في شقف» وقال غيره : «كان بعض الجلة الصالحين هناك يقول : «الذى عند أبي بكر من العلم هو عند الناس والذى عنده مما ليس مثله عند غيره دينه».

ولنا أن نستنتج من هذا الكلام أن القاضي يبدو منشرحا راضيا بما بلغه شيخه الطرطوشي في مرتبة الزهد والورع والقنع بشظف العيش في حياته فلا عجب أن ينعكس عليه أثر شيخه في التدين والتقلل حتى إنه خرج من الدنيا ولم يترك شيئا من المتاع.

ربانيتـــــــه

درج لقب القاضي على ألسنة الناس وأنساهم غيره من ألقاب التحلية كالإمام والشيخ والفقيه والرئيس وغير ذلك ولكن الكنية التي هي أبو الفضل ظلت محتفظة بمكانها ملاصقة لإسم حاملها عياض القاضي. ويظهر أنه كني بها منذ

صباه وصاحبته طول حياته وتسربل بجزيل ثوابها بعد مماته فقد أجمع المترجمون له على أن الله عز وجل أظهر فضله على أهل هذه الملة فقد وهب نفسه لنصرتها وألف للأمة الإسلامية كتبا عظيمة عم نفعها سائر الأنام فمنها ما هو في متناول العامة ميسر الفهم والإدراك ومنها ما هو خاص بأهل الدرس والتحقيق قال الشيخ محمد الصحراوى في كتابه «المجد الطارف والتالد» : «وانظر إلى عياض فلا ترى تأليفا معتبرا من تواليف أهل الحديث ولا أصحاب السير والفقهاء إلا وجدته مشحونا بكلامه مع أنه لم يرتحل إلى المشرق».

ويقف المطلع في كتب أصحاب الحديث والسير والفقه من أهل المشرق على كثير من النقول المعزوة إلى القاضي - عطر الله مثواه - وفي «فتح الباري» للحافظ ابن حجر ومواهب القطب القسطلاني أوضح دليل وأعدل شاهد. وثمة صلة وثيقة ومودة خاصة يشعر بهما الإنسان إذا كان يقرأ المواهب الدينية يتعرف من خلالهما على مدى الإتصال الروحي بين الرجلين. وإذا تأمل اللبيب في أسماء بعض كتبه فإنه يستروح منها - ولا شك - المعنى الالهي الذي يلمح إليه المؤلف وتطمح إليه نفسه. فهذه الأسماء : الإلماع - بغية الرائد - ترتيب المدارك وتقريب المسالك - الشفا - مشارق الأنوار - المقاصد الحسان... كلها تحمل معاني توحي بالذوق الذي لا يحصل إلا للعارفين وإذا لا يسع المنصف إلا أن يعد القاضي تاجا من تيجان العارفين ولمن كان رهيف القلب والسمع أن يتأمل ما جاء في أول «الشفا» وهو قول المؤلف : «أما بعد،أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين ولطف لي ولك بما لطف به لأوليائه المتقين الذين شرفهم الله عز وجل بنزل قدسه وأوحشهم عن الخليقة بأنسه وخصهم بمعرفته ومشاهدة عجائب ملكوته وآثار قدرته بما ملأ قلوبهم حبرة ووله عقولهم في عظمته حيرة فجعلوا همهم به واحدا ولم يروا في الدارين غيره مشاهدا فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يترددون وبالإنقطاع إليه يتعززون لهجين بصادق قوله : «قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون» فالتأمل في هذه الكلمات «الإشراق. والأنوار. واللطف. والاستيحاش. والأنس. والمعرفة. والمشاهدة. والحبرة. والوله

والهمة والجمال.والجلال. والانقطاع.والصدق. وذكر اسم الجلالة وهو الله. أقول : إن التأمل فيها يوحي بأنها رموز لا يحل مقفلها إلا المتخصصون ولغة لا يتخاطب بها إلا أهلها العارفون ونغمة لا يهيم بلحنها إلا المولعون.

ونرجع إلى ما قاله ولد القاضي في فضائل أبيه قال : وهو يعدد هذه الفضائل «ذاكرا لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار الصوفية ومذاهبهم».

ثم يضيف قوله : «كثير الصدقة والمواساة عاملا مجتهدا صواما يقوم ثلث الليل الآخر لجزء من القرآن لم يترك ذلك قط على أية حال حتى يغلب عليه. متدينا متورعا متواضعا متشرعا» وهذه الفضائل المعدودة لا يتحلى بها إلا المتبوئون مقامات اليقين وعلى من يطلب المزيد أن يقرأ ويعمل النظر في أذكاره ودعواته وتوسلاته ونبوياته في منثوره ومنظومه وفي كتاب «الشفا» مقنع لمن اكتفى «وكل الصيد في جوف الفرا» وصاحب «الشفا» من الذين عناهم الله بقوله: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» فخلد ذكرهم وأجرى على ألسنة الخلق الثناء عليهم فلهذا نرى كبار العلماء يقبلون على مناقبهم ويتتبعون آثارهم ويخصونها بالجمع والتأليف ويتطارحون على أبوابهم مقدمين بين أيديهم صدقات ودعوات وقصائد ورغبات قال العارف المقري في أزهارها إلى الرياض يمتدح القاضي :

فهو الإمام الذى سارت مآثــــره ... في الشرق والغرب سير الشمس والقمر
وكم له من تآليف قد اشتهــــرت ... بكل قطر فسل تنبئك بالخبـــر

ثم إن الله أظهر عليه سره فجعله من السبعة الكبار في هذه المدينة بل إنه من الممكن أن يعتبر عميدا لهم من الوجهة التاريخية أما باعتبار برنامج الزيارة فقد تواتر عن الناس تقديم الولي الصالح سيدى يوسف بن علي اليمني الأصل وبذلك عللوا تقديمه في الزيارة وهو تعليل هش فيما يظهر لأن القاضي يمني الأصل والمعدن كذلك.

وفي موضوع السبعة كلام يطول بسطه وبحسبنا هذه المقتطفات التي تخص جناب القاضي رحمه الله. قال الإمام اليوسي-رحمه الله-في قطعة له يذكر فيها السبعة الكبار بحسب ترتيب زيارتهم :

ونجل أبي عمران عياض الـــذي   إلى علمه في الكون تصغي المسامع

وقال سيدي محمد الدقاق في نفس الموضوع من قطعة له :

وثن بتاج العارفين عياضهـــــم   منور هذا الدين بحر الحقيقـــــة
ومن قد أزاح الجهل عنا شفـــاؤه   فكان شفاء للقلوب المريضـــــة

تبين لنا من النصوص التي نقلناها نثرا ونظما أن القاضي - رحمه الله - يعد من كبار الربانيين ومن أهل المقامات الواصلين ففي أي من هذه المقامات يمكننا أن نصنف القاضي ؟ إن المقامات عطاء وفضل من الله يوتيه من يشاء بغير حساب. وللعقل البشري أن يزن الأمور بمقايسة الظاهرة ومن هذه الوجهة يمكن أن نقرر أن القاضي عالم رباني قيضه الله لخدمة العلم الظاهر وشرح صدره للكتابة والدرس والجمع والشرح والإستنباط والإقتباس. وطوع لسانه للخطابة. وفصل القضايا. وربط على قلبه في مجابهة التحديات والفتن التي شاهدها عصره وأناط به حقوق المستضعفين فشغله من القضاء - وهو أعظم كلفة ربانية - لأن فيه استيفاء الحق للمظلوم من الظالمين. ثم أكرمه بلين الجانب ووطأة الكنف. وطيب نفسه للبذل والسخاء فأعطى بسيرته المثلى الدليل القاطع على أنه من الوارثين لمهام النبوة.

قال سهل بن عبد الله : «من أراد أن ينظر إلى محاسن الأنبياء فلينظر إلى محاسن العلماء» يجيء الرجل فيقول : إيش تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا فيقول : أطلقت امرأته. وهذا مقام الأنبياء فاعرفوا لهم ذلك. ومن هذا الكلام يمكن لنا أن نستخلص أن القاضي ذاق حلاوة الإيمان ودخل باب المحبة من قوله (ص) : «الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله».

وهناك عباد آخرون قربهم الله إليه بالإستغراق والمشاهدة والجدب والفناء وهذا الصنف من السادات العارفين يحظون لدى القاضي بالذكر الحسن والثناء الجميل. وإذا اقتضى الحال للقاضي أن يناقش كلامهم ويعرض على ظاهر الشرع آراءهم وأحوالهم فإن القارىء لكلامه يجده معتدل العبارة متزن الكلام سليم الجنان ولا يحاول أن يوقع الملامة والشتيمة بأحد إلا إذا كان ذلك على حساب العقيدة أو تقويض دعائم الشريعة أو تعطيل أحكامها وذلك ما فعله عند ذكر أصحاب الأهواء والمعتقدات السيئة. ومن حسن الآداب أن نمسك عن الكلام فيما وقع من المقارعة بينه وبين أنداده من علماء وقته أو من جاء بعدهم فلكل وجهته ومشربه كما قال تعالى : **«قد علم كل أناس مشربهم»** وكان الواحد منهم إذا ناظر ناظر بالدليل. وإذا قارع قارع بالحجة. وكان الهدف مشتركا وهو محاولة البلوغ إلى الصواب ويرحم الله شمس الدين البوصيرى إذ يقول :

جاء قوم من بعد قوم بحـــــق وعلى المنهج الحنيفي جـــــاؤوا

خاتمـــــة

ذكر أبو عبد الله ولد القاضي مكتبة أبيه وسمى الموجود منها والمفقود وقد أضيفت إلى نظيراتها من مكتبات العلماء وخزائنهم في الشرق والغرب من كان منهم قبل القاضي ومن جاء بعده اندثر منها ما اندثر وما بقي منها ليس بالنزر اليسير بل هو كثير وكثير وأطلق على الجميع اسم «المكتبة الإسلامية» كما سمي بالتراث الإسلامي وظهر منه لعالم الطباعة الكثير باسم إحياء التراث أو بأسماء أخرى وينتظر أن تخرج دور النشر ما كان في حكم الضياع والنسيان من ذلك التراث لكن ظهوره في الحياة العملية ما زال يسير سيرا ضعيفا إن لم نقل مشلولا ومريضا. ولا بد للمسلم أن يشفق عليه ويخشى أن تصيبه دائرة السوء لأن العوائق والمثبطات كثيرة والعدة وفرسانها قليلون وقديما قال المثل : «إن الشفوق بسوء ظن مولع».

وقد علمنا بإنشاء مؤتمر الفقه الإسلامي أو المجمع الفقهي بمكة المكرمة برعاية رابطة العالم الإسلامي. كما علمنا بوجود تقرير للجامعة العربية حول مشروع القانون المدني الموحد للبلاد العربية. والأمل معقود أن تواكب الجهود سرعة الزمن ومستجدات الحياة البشرية في المجالات المختلفة والمتشعبة ولا يكفي أن ينحصر الوفاء والإخلاص للأسلاف في إحياء آثارهم والإشادة بأعمالهم بل يجب أن يشمل هذا الوفاء استخدام انتاجهم والإستفادة من أفكارهم ونظرياتهم واجتهاداتهم فما أثبت قدرته على البقاء يمكث في الأرض لتنتفع به البشرية وما كان غثاء وجفاء يعد من مخلفات الزمان ويحتفظ به للبحوث المتنوعة والإعتزاز بالإنتاج الفكرى والحضاري للأسلاف كما يحتفظ به لأخذ العبرة من حياة الأجيال المتقدمة. ولله الأمر من قبل ومن بعد والسلام...

مراجع البحث

أزهار الرياض

أعلام القاضي عباس بن ابراهيم

إتحاف السادة المتقين للشيخ مرتضى

بدائع الفوائد — لابن قيم الجوزية

تثبيت دلائل النبوة — للقاضي عبد الجبار الهمذاني

ترتيب المدارك — للقاضي عياض

التشوف — لابن الزيات التادلي

حاشية الرهوني على الزرقاني

الديباج — لابن فرحون

روضة الآس — للمقري

معيار الاختيار — لابن الخطيب

الطبقات الكبرى — للشعراني

كتاب أبي عبد الله بن عياض في التعريف بأبيه
تفسير القرطبي
تفسير ابن كثير

المواهب اللدنية	للقسطلاني
المجد الطارف والتالد	للصحراوي
نسيم الرياض	للشهاب الخفاجي
الغنية	مشيخة القاضي عياض
الاستقصا	للناصري
القاموس المحيط	للفيروزبادي
السعادة الأبدية	لابن الموقت

موقف عياض من المرابطين والموحدين

للأستاذ : عبد السلام الإدغيري

بسم الله الرحمن الرحيم

موقف عياض من المرابطين والموحدين

إن موقف القاضي عياض من المرابطين والموحدين يتجلى من خلال تعرفنا على حياته ونشأته ودراسته واتصالاته، وما قرأه أو سمعه من الحكايات وهو صغير إلى أن شب وترعرع. فموقفه نتيجة لكل المؤثرات، والإنسان - كما يقال - ابن بيئته ومحيطه الذي عاش في كنفه، فمنه يكون آراءه الأولية، وعليها يبني استنتاجاته في المستقبل.

ولذا فإن هذا البحث المتواضع سيدور حول نقطتين أساسيتين :

الأولى : كيف نشأ ؟ وماذا سمع ؟ وما رأى زمن المرابطين ؟

والثانية : هي ماذا رأى وشاهد أيضا زمن الموحدين ؟

ويتخلل هذين تجارب تاريخية أوذي فيها علماء المذهب المالكي. لاشك أنه استفاد منها في حياته، وحاول أن يقف في وجه أسبابها حتى لا تتكرر المأساة.

1 - كيف نشأ وماذا رأى وسمع و... الخ ؟:

ازداد هذا العالم الجليل سنة 476هـ بسبتة (1) المدينة التاريخية الجليلة - فك الله أسرها قريبا - هذه المدينة كانت تتأثر بكل ما يجري في العدوتين، سواء

---

1) ذكر ابنه أبو عبد الله محمد في التعريف ، أن أباه ازداد (فيما رأيت بخطه في النصف من شعبان عام سته وسبعين وأربعمائة) انظر الكتاب المحقق من طرف، الدكتور محمد بن شريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص. 3، ط. 1. وانظر أيضا الصلة لابن بشكوال ص. 447 وكذلك المعجم لابن الأبار ص .296

كان سلما أم حربا خيرا أم شرا لأنها ممر للذاهب والآيب. وما أكثر الذاهبين، وما أكثر الآيبين آنذاك : وهي محطة إقلاع ونزول لكل المراكب والسُفن التجارية والحربية المتجهة للشرق أو الغرب.

ويفتح عياض عينيه ذات صباح وإذا به يسمع الضوضاء والأصوات المختلفة وهتافات تبارك الخطوات آتية من البحر وأخرى ذاهبة من البر - وهو لا يفهم معناها - ثم يرى الأعلام المتعددة الألوان خفاقة ترفرف في عنان السماء وقد وضعت على أعنة الخيل يحملها أناس عليهم لباس خاص وحماس قوي، ونظام بديع. يرددون كلمات وجملا وأناشيد حماسية تنبىء عن أمر جدي سيحدث في هذا العالم. وسينطلق من سبتة. يسأل عياض ويسأل ولكنه لا يفهم الجواب، إلا أن الكلمات التي يسمعها تتردد هنا وهناك تترك آثارها في نفسه وتختزن في عقله الباطني. وهو إن لم يدرك معناها اليوم سيدركها بعد أن يشب ويعقل الأمور. يسمع كلمة المرابطين أو المجاهدين وأنهم سيجتازون البحر للجهاد في الكفار الذين يقتلون المسلمين في الأندلس. يسمع يوسف بن تاشفين أمير المسلمين جاء بنفسه للدفاع عن المسلمين تلبية لرغبة العلماء الذين استنجدوا به (2) بعد يأسهم من محاولة جمع أمراء الطوائف على كلمة واحدة ضد العدو. يسمع أن المعتمد بن عباد ملك اشبيلية جاء بنفسه يستنجد بابن تاشفين وقد أرسل اليوم أسطولا الى صاحب سبتة. وأنها الآن انتظمت في سلك يوسف وأنها مستعدة للإبحار إلى الجهاد في الكفار. ثم يسمع أن هاته الجيوش التحقت باشبيلية ونظمت وصففت وهجمت على العدو في الوقت المناسب وأنها انتصرت عليه في موقعه سميت موقعة الزلاقة (3) وأن الجيوش الأندلسية والمرابطية اتحدا اتحادا كليا في معركة ضارية ضد الكفار فكان النصر حليف المسلمين نتيجة الاتحاد والتضامن وتوحيد

---

(2) انظر : الأنيس المطرب، والمعجب في تاريخ المغرب.

(3) وقعت سنة 479 هـ ينقل ابن عذاري عن ابن حمادة قوله : (وكانت وقعة الزلاقة في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وقيل في شهر رمضان الاخر من السنة) ج. 3. ص. 130. وذكر ابن خلدون : أنها كانت سنة 481 هـ وهو سبق قلم أو خطأ الناسخ.

الكلمة. ويسمع أن يوسف بن تاشفين كان يندفع وسط المعركة بجماله وخيله ويحرض المومنين على القتال ويوصيهم بالصبر ويعدهم بالنصر أو الفوز بالجنة ويسمع بأن العلماء والفقهاء كانوا في معمعة القتال جنبا إلى جنب مع عامة الناس، وأن قاضي مراكش أبا مروان عبد الملك المصمودي كان من الذين استشهدوا في الموقعة (4) ويسمع أو يقرأ فيما بعد، أن المعتمد بن عباد كان يخوض المعركة وسيوف الأعداء تهجم عليه من كل ناحية وكأنها تظلله من الشمس، وهو صابر ثابت لا يحجم ولا يجمح وفي المعمعة يتذكر ولده الصغير وما زاده ذلك إلا حبا في الشهادة دفاعا عن الإسلام ورفع رايته.

ثم أنشد :

أبا هاشم هشمتني الشفار
ولله صبري لذاك الأوار
ذكرت شخصك تحت العجاج
فلم يثنني ذكره للفرار (5)

ويكتب رسالة لولده بعد الانتصار، ويذكر أن المسلمين اتخذوا من هامات النصارى صوامع يؤذنون عليها... الخ (6).

ولا شك أن القاضي عياض وهو الشاعر المجيد والكاتب المبدع قد حفظ ما أنشده المعتمد داخل المعركة وما كتبه بعدها. وتأتي الأخبار بأن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين كان قد عزم على تحرير البلاد بأكملها من أيادي النصارى لو لم يمت ولده أبو بكر أمير سبتة (7).

(4) في ابن عذاري : (إن قاضي مراكش أبا مروان عبد الملك المصمودي قتل في وقعة الزلاقة. (انظر ج. الثالث (ملحق) ص. 140 ط. تطوان).

(5) نفس المرجع السابق.

(6) كتب لولده يصف له المعركة فيقول : (فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه الهزيمة العظيمة، والمسرة الكبيرة، هزيمة إذفونش أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم بعد اتيان الذهب على محلاته واستئصال القتل في جميع أبطاله وأجناده وحماته وقواده حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها... إلخ (نفس المرجع).

(7) الأنيس المطرب والحلل الموشية).

يتربى عياض في مجتمع تأثر تأثرا كبيرا بهاته الحكايات الواقعية التي تهز العواطف وتؤثر في النفوس وتشحذ العقول وتبذر الشجاعة في النشء الصغير، حكايات الأبطال في الزلاقة وما أحرزوه من الانتصار وما تبعها من الفتوحات والانتصارات، فيشب على تقدير الذين خاضوا هاته المعركة أو المعارك، ورفعوا فيها علم الإسلام خفاقا ناصعا بعد ماكان أصابه الانتكاس والذل والصغار في تلك الربوع (8) وذات صباح أراد أن يخرج من الكتاب مسرعا - وقد أنهى استظهاره للقرآن - ليرى ما يحدث في شوارع سبتة وطرقاتها وممراتها وأزقتها فإذا بمعلمه ينبهه وأصدقاءه قائلا : احذروا أيها الأطفال وانتبهوا حتى لا يحطمنكم جنود يوسف وهم لا يشعرون. فانطلق الأطفال مبتسمين ضاحكين دون أن يعيروا أي اهتمام لإنذار معلمهم.

وهنا يفاجأ عياض بمشهد عظيم كان رأى البعض منه أو سمع عنه وهو ابن ثلاث سنوات، لقد تكرر مرة أخرى. إلا أن هاته المرة يستطيع أن يذهب بنفسه ليسمع ويرى ويحكي ويصف لأترابه ويسجل في ذاكرته لما سيكتبه من تاريخ المرابطين في المستقبل لقد وصل من العمر ثمان سنوات إنه بدأ يعي الأمور.. يرى جيوشا جرارة (9) انتظمت في صفوف وكأنها بنيان مرصوص تؤدي الصلاة جماعة في مكان أمر يوسف ببناء المسجد الجامع به والزيادة فيه حتى يشرف على البحر (10) ثم يأمر عامله بسبتة أن يهيىء الميناء تهييئا يناسب عظمة هاته الجيوش المجاهدة التي ستعبر منه إلى الأندلس في سفن ومراكب مغربية لافي

---

(8) من الهوان الذي كان المسلمون وصلوا إليه أنهم كانوا يعطون الجزية لعدوهم، فقد كان المعتمد بن عباد يعطي الضريبة لاذفونش بن فردلند. ولم يكتف بذلك بل طلب من ابن عباد أن يسمح لزوجته بالولادة في مسجد قرطبة، حيث أشار بذلك القسيسون، حتى تكون تلك الولادة بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة ذلك الموضع من الجامع الذي يقولون : أنه بني على مكان كنيسة كانت هناك - انظر المعجب ص، 130 ج، 3. ط : تطوان.

(9) سنة 484 هـ نزل يوسف بن تاشفين إلى سبتة لجواز عساكره اللمتونية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف. الحلل الموشية.

(10) في أثناء مقامه (يوسف) بسبتة أمر ببناء المسجد الجامع والزيادة فيه، فزاد فيه حتى أشرف على البحر.. وأمر ببناء سور الميناء السفلي - المرجع السابق.

سفن ابن عباد كما في المرة الأولى. انهم يقصدون الآن ملوك الطوائف الذين ضيعوا الجيوش المجاهدة ورجعوا إلى التطاحن من جديد وهيأوا الفرصة لعدو الإسلام مرة أخرى ليتحرك وينقض على المسلمين الآمنين. تراكمت في ذهن هذا الطفل الذي ظهرت نجابته ونباهته منذ الصغر. والطفل من حيث هو يتأثر بكل ما يجري في بيئته مهما كانت درجتها. أما أحداث المرابطين فلم يتأثر بها الصغار فقط بل تأثر بها الكبار أيضا... انتصارات تلو الانتصارات تأتي أخبارها من الأندلس كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر. الأعناق مشرئبة نحو البحر كل غدو ورواح. تنظر : ماجد هناك ؟ وما الجديد الذي جاء إلى هنا ؟ يشاهدون كثيرا من الأموال التي سقطت في يد المجاهدين غنيمة. يرون الآلاف من الأسرى جيء بهم إلى المغرب- هذه علامة الانتصار على العدو- وهاته المناظر مارآها أهل سبتة وما عاشوها. اللهم إلا ماكانوا يسمعونه من ذكريات حلوة عزيزة تحكى من جيل إلى جيل وهي المتعلقة بفتح الأندلس أيام طارق بن زياد وموسى بن نصير رحمة الله عليهما.

فأهل سبتة في أعياد وأفراح باستمرار. لاسيما وأن عاملهم هو ابن الأمير يوسف. يعاملهم معاملة حسنة. ويهتم بهم ويرعاهم ويتفقد أمورهم ويحث الكبار على الجهاد. والصغار على الدراسة وحفظ القرآن . ويحكم بعد استشارة العلماء اقتداء بأبيه وبأمر منه. فازدهرت العلوم الفقهية والأدبية والحديثية... في هذا الجو تفتح عقل عياض وأخذ من كل علم وأتقن كل فن درسه. وجلس مع أكابر العلماء في المغرب حتى أخذ ما عندهم وصار عالما يشار إليه بالبنان فأحبه الناس جميعا أشياخه الذين أخذ عنهم وزملاؤه في الدراسة وأصدقاؤه الذين عاشروه الكل يضرب به المثل في الصلاح والعلم والخلق والمروءة والأدب والشعر الخ.

ساعده الجو الذي عاش فيه في بلوغ مبتغاه من العلم والاستفادة. الأمن في البلاد والطمأنينة يتمتع بها كل السكان. والرخاء موجود في كل الأسواق والشريعة تطبق بحزم وصرامة من غير نفاق. وهنا يظهر له أن يعبر البحر ليأخذ على مشايخ عظام سمع بهم وسمعوا به ويعلم أمير المسلمين بقصده ويصدر أمره

كتابة الى من يهمهم الأمر بالأندلس ويذكر لهم فيها قيمة عياض العلمية والأخلاقية. وهذا هو غرضه من الرحلة ويوصيهم به خيرا (11) ويلح عليهم بالاعتناء به.

ويرحل عياض (12) إلى الأندلس ويتصل بأكبر عالم بها وهو أبو علي الصدفي بعدما انتظر أياما كان فيها الشيخ مختفيا. (13) ويفرح به الشيخ ويقدر منزلته عنده. ثم أخذ عنه ما عنده من العلم وأجازه في كل مروياته. كما اتصل بعلماء آخرين في المدن الأندلسية. وما رجع الى سبتة حتى كان نجمه سطع في الأندلس والمغرب بل وفي الشرق أيضا. (14) أجلسه أهل بلده للمناظرة عليه في المدونة ثم أجلس للشورى وولي القضاء فسار بخطة محمودة وسيرة مشكورة : أقام الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها متبعا في ذلك مذهب الإمام مالك ومجتهدا في كل ماجد من الأقضية وأحبه أهل سبتة حبا جما وتبعهم المغاربة كلهم وتمنت كل مدينة أن يكون قاضيها. وعين قاضيا بغرناطة وهي تعج بالعلماء. واستقبل استقبال الأبطال من طرف سكانها على غير عادتهم. خرجوا بعلمائهم وطلابهم وشبابهم وصناعهم وجميع أصحاب الحرف وتسابقت المحجبات على الشرفات ليرين القاضي عياضا.

وكانت هاته الحفاوة من تلقاء أنفسهم. فلم يكن هناك جبر أو قسر وإنما

---

(11) كتب علي بن يوسف بشأنه إلى ابن حمدين قاضي الجماعة ومما جاء في الكتاب : (..وفلان أعزه الله بتقواه وأعانه على مانواه ممن له في العلم حظ وافر ووجه سافر، وعنده دواوين أغفال، لم تفتح لها على الشيوخ أقفال، وقصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها ويعاني رمد عيونها وله الينا مأتة مرعية أوجبت الإشارة بذكره والاعتناء بأمره. وله عندنا مكانة حظية تقتضي مخاطبتك بخبره وإنهاضك إلى قضاء وطره. وأنت - إن شاء الله - تسدد عمله وتقرب أمله وتصل أسباب العون له إن شاء الله. (انظر. قلائل العقيان. ص . 111).

(14) وصل قرطبة وأخذ عن أعلامها ثم خرج إلى مرسية حيث اتصل بالصدفي وأجازه فطاحل العلماء مثل ابي علي الجياني وشريح القاضي بن شبرين، وأبو عبد الله المازري وأبي بكر الطرطوشي وغيرهم.

(13) كان اختفى من تلقاء نفسه، لأنه امتنع أن يكون قاضيا بعدما طلبت منه الدولة ذلك، ثم أعفي بكتاب جاء في شأنه من مراكش، (انظر فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ج 1 - ص. 183).

(14) كان إمام وقته في علوم شتى زيادة على الذكاء الخارق الذي حباه الله به (وبالجملة فإنه كان عديم النظير...) (انظر شذرات الذهب ج 4. ص 138 وانظر التعريف أيضا).

المحبة والتقدير له (15) ولعلمه الكبير وللعدالة في الأحكام التي اشتهر بها حتى شاع صيته في (كل قطر ومصر وسارت مآثره مسيرة الشمس والقمر) (16) واستمر في خطه الواضح البين في الحكم لا يعرف الإعوجاج ولا يوقف حكم الله مراعاة لأحد، حتى ولو كان المذنب الفتح بن حاقان. وصرف عن قضاء غرناطة وبعد مدة عين قاضيا على سبتة من جديد الأمر الذي جعل أهل سبتة يبتهجون ويسرون ويستقبلون التعيين بكل ترحاب وحفاوة (17).

وهكذا مرت أيام القاضي عياض التي قضاها في عهد المرابطين الزاهر. وهي كلها دراسة وتأليف وتصنيف وتشريف وحكم بالحق فيما يعرض عليه من القضايا. وكما اشتهر بعدله اشتهرت تصانيفه البديعة المفيدة حيث أقبل الناس عليها بالدراسة والتحصيل سواء في عهده أو بعد رحيله، لاسيما (الشفافي التعريف بحقوق المصطفى) الذي لم يسبق إلى مثله إذ أبدع فيه كل الإبداع وحمله الناس عنه وطارت نسخه شرقا وغربا وقيل فيه في المشرق :

(كانت الشمس تطلع على الناس من المشرق وتغرب في المغرب، وجاءنا نحن أهل المشرق شمس أخرى من المغرب الأقصى وهو كتاب الشفا لعياض (18) هذا الكتاب الذي قال فيه ابن الخطيب أيضا فيما بعد :

شفا عياض للصدور شفاء   وليس بفضل قد حواه خفاء
هدية بر لم يكن لجزيلها   سوى الأجر والذكر الجميل كفاء

---

(15) قال الشيخ ابن القصير : (لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة خرج الناس للقائه وبرزوا تبريزا ما رأيت لأمير مؤمر مثله وحرزت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا نيفا على مائتي راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة...) (أزهار الرياض : ج. 3. ص. 11 ط. وزارة الأوقاف بالمغرب).

(16) عن شجرة النور الزكية ص. 140 ط. القاهرة.

(17) في التعريف : (... ثم ولي قضاء سبتة ثانية في أخرى عام تسعة وثلاثين وخمسمائة قدمه ابراهيم بن تاشفين فابتهج أهل بلده بذلك فسار فيهم السيرة التي عهدوا منه).

(18) انظر أزهار الرياض وفهرس الفهارس ج 1 - ص 186 والديباج ص. 170.

وفـى لنبـي اللـه حـق وفائـــه   وأكـرم أوصـاف الكـرام وفـاء (19)

وكذلك مشارق الأنوار في غريب الصحيحين والموطا الذي قيل فيه : (وهو كتاب لو كتب بالذهب ووزن بالجوهر لكان قليلا في حقه) (20) وبالجملة فإن القاضي عياض وصل رتبة في عهد المرابطين ما وصلها أحد في وقته، وحتى الوزراء والأمراء كانو ايقدرونه ويحترمونه ويشدون الرحال لزيارته، إننا نجد الوزير الكاتب الشاعر عبد المجيد بن عبدون يقسم للقاضي عياض أنه ما قصد سبتة إلا للقياه (21).

وإذا كانت منزلته في وسط مجتمعه الصغير والكبير، وتلك درجته عند الأمراء والوزراء والعلماء والكل يعيش تحت ظلال الدولة المرابطية فماذا سيكون موقف القاضي من هاته الدولة ؟ هاته الدولة وحدت المغرب والأندلس بعدما كان الكل مقسما إلى دويلات وقبائل وعشائر وشيعة ومذاهب، فوحدت الجميع تحت كلمة واحدة، وتبنت المذهب المالكي وسارت على نهجه وطبقته في الأندلس والمغرب بواسطة فقهاء أجلاء مالكيين، حيث لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم فروع مذهب مالك (22) وهذا المذهب هو الذي يحبه القاضي ويميل إليه ويدافع عنه بكل ما أوتي من قوة، وينصح الناس وتلامذته بالتشبث به (23) أقول: ماذا سيكون موقفه من المرابطين إذا كان هذا حالهم وتلك سيرتهم ؟

(19) قال هذا لما طلب منه ابن مرزوق التلمساني أن يقرض شرحه على الشفا.
انظر : الإحاطة في أخبار غرناطة ج. 3. ص 17.

(20) انظر : الديباج لابن فرحون، وأزهار الرياض. ج 4.

(21) توفي الوزير الكاتب الشاعر سنة 527 هـ (الغنية 167).

(22) يقول عبد الواحد المراكشي في المعجب : (إنه في عهد علي بن يوسف بن تاشفين بلغ الفقهاء مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم) ص. 171.

(23) كان يقول: (فحق على طالب العلم ومن يرد التعرف على الصواب والحق أن يعرف أولاهم بالتقليد ليعتمد على مذهبه ويسلك في التفقه سبيله، وهانحن نبين أن مالكا ـ رحمه الله ـ هو ذاك لجمعه أدوات الإمامة وتحصيله درجة الاجتهاد وكونه أعلم القوم بل أهل زمانه.. الخ) (المدارك : ص. 67 ج. 1).

الواقع أن الجواب واضح بين. وهو أن موقفه منهم موقف التقدير والاحترام والطاعة والمساعدة والنصيحة والدعاء الصالح لأمير المسلمين كما هي عادة العلماء العاملين الصالحين (24) إلا أن ولد القاضي عياض أورد كلمة ذكر فيها سبب عزل والده عن قضاء غرناطة هاته الكلمة قد تخدش الصفحة البيضاء الموجودة بين القاضي عياض والمرابطين ولذلك لابد من توضيحها حتى لا يبقى هناك أي غموض في إخلاص القاضي عياض للمرابطين إخلاصا كاملا.

قال ولده في التعريف : (.. ثم نقل إلى غرناطة.. فنهض إليها وتقلد خطة قضائها على المعتاد من شيمه السنية وأخلاقه المرضية مشكورا عند جميع الناس. لكن تاشفين ضاق به ذرعه وغص بمراقبته له في الحقائق وصد أصحابه عن الباطل. وخدمته عن الظلم وتشريدهم عن الأعمال فسعى في صرفه عن قضاء غرناطة. فصرف بعد إفصاله عنها زائرا أهله. وترك ابن أخيه الزاهد أبا عبد الله - رحمه الله - على الأحكام وذلك في رمضان المعظم اثنين وثلاثين وخمسمائة (25).

إن من يقرأ هذا النص يتصور لأول وهلة أن تاشفين كان جبارا ولم يكن مستقيما وأنه كان يكره القاضي لكونه يحكم بالحق وأنه لذلك سعى في إزالته. وبالمقابل يكون القاضي ساخطا عليه وغير راض على حكمه وعلى دولته المرابطية. وهذا غير صحيح. فالقاضي يحب المرابطين ويقدرهم قبل توليه القضاء وبعدها. وأخلاق تاشفين ليست كما صورها أبو عبد الله - رحمه الله - بل هي حسنة وممتازة. ولا ندري ما هو السبب الداعي الذي حمله على زرع هاته الجملة في كتابه القيم ولعله كان متضايقا من الموحدين فأراد التقرب إليهم. وقد علق أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة بحق على هذا فقال : (يبدو أن ما كتبه ولد القاضي عياض هذا لا يخلو من غرض. أما المصادر التاريخية فهي - فيما رأيت -

(24) يقول ولده في التعريف : كان هينا لينا من غير ضعف صلبا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم... وكان يلاطف الامراء فإن امتنعوا من الحق تقوى عليهم غير هيوب لهم مقداما عليهم في صدهم عن الباطل.. إلخ) (انظر التعريف ص. 5).

(25) المرجع السابق ص. 11.

مجمعة على الإطناب في مدح تاشفين والتنويه بعدله واستقامته واتباعه لأمور الشريعة) (26) وما ذكره الدكتور حقيقة. فالمؤرخون مجمعون على أن تاشفين كان مستقيما في سلوكه وفي أفعاله وفي حبه لتطبيق الشريعة. فها هو ابن الخطيب في الإحاطة يروي عن المؤرخين قبله، أن الأمير تاشفين (كان بطلا شجاعا حسن الركبة والهيئة. سالكا ناموس الشريعة مائلا إلى طريقة المستقيمين وكتب المريدين. قيل:انه لم يشرب قط مسكرا ولا استمع الى قينة. ولا اشتغل بلذة مما يلهو به الملوك) ثم ينقل نصا عن ابن الصيرفي جاء فيه : (وكان بطلا شجاعا أحبه الناس خواصهم وعوامهم وحسنت سياسته فيهم وسد الثغور وأذكى على العدو العيون. وآثر الجند ولم يكن منه إلا الجد ولم ينل عنده الحظوة إلا بالعناء والنجدة... وملك الملك ومهد بالحزم وتملك نفوس الرعية بالعدل وقلوب الجند بالنصفة... ولما قدم غرناطة أقبل على صيام النهار وقيام الليل وتلاوة القرآن وإخفاء الصدقة وإنشاء العدل وإيثار الحق. ولولا الاختصار الذي اشترطناه لأوردنا من شتى خلاله ما يضيق عنه الرحب. ولا يسعه الكتب) (27) وقال غيره : (وفي عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة ولي الأمير أبو محمد تاشفين... وأقام المساجد في الثغور وبنى لنفسه مسجدا بالقصر وواصل الجلوس للنظر في الظلمات وقراءة الرقاع. ورد جواب.. وأكرم الفقهاء والطلبة وكان له يوم في كل جمعة يتفرغ فيه للمناظرة)(28)ونختم هاته النصوص الشاهدة علىنزاهة تاشفين بشهادةأخيه الذي ولى العهد قبله بيسير وذلك عندما رأى الناس كلهم التفوا حوله الأمر الذي جعله يشتكي لأبيه ويقول له : (إن الأمر الذي أهلتني إليه لا يحسن لي مع تاشفين. فإنه قد حمل الذكر والثناء دوني وغطى على اسمي وأمال إليه جميع أهل المملكة. فليس لي معه اسم ولا ذكر) فهاته النصوص شاهدة على ما قلناه من أن تاشفين بريء مما نسب إليه أبو عبد الله. ويكفي أن نعلم أن تاشفين تقلد ولاية العهد

---

(26) نفس المرجع والصفحة في الهامش.

(27) انظر الإحاطة ج 1 ـ ص. 448 وما بعدها. ط. 2. تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان .

(28) المرجع السابق. ص. 450.

بإجماع أهل الحل والعقد، مع أن أباه كان يريد إسنادها إلى أخيه بعد وفاة أميره ويكفي أن نعرف أيضا أن السنة التي يذكرها أبو عبد الله أي سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة هي نفس السنة التي غزا تاشفين فيها (اشكونية) وانتصر وفتحها عنوة، حيث قدم من الأندلس الى العدوة وهو يحمل معه إليها ستة آلاف سبية الأمر الذي جعل أباه يتلقاه في زي عظيم، وفرح كبير.

ومن هنا نقول : إن عزل القاضي عياض لا يرجع إلى الأسباب التي ذكرها ولده، ويبقى أن نتساءل السؤال التالي :

إذا كان الواقع متباينا مع ما ذكره ولد القاضي، فما هي العلة الحقيقية في عزل القاضي عياض عن قضاء غرناطة ؟

إننا عندما نرجع إلى النص الذي ذكره ولده نجد الجملة صريحة في أنه (صرف بعد انفصاله عنها زائرا أهله وترك ابن أخيه الزاهد أبا عبد الله على الأحكام) أي أن القاضي لم يعزل وهو يباشر عمله بدليل أنه ترك من ينوب عنه في الأحكام، لأن المعزول لاحق له في اختيار من ينوب عنه. فهو إذا صرف عن القضاء وهو بسبتة وليس بغرناطة ثم إن ابن أخيه بقي نائبا عنه مدة سنتين، (29) وهذا يتنافى مع العزل النهائي فلا يمكن أن يبقى منصب القضاء بغرناطة شاغرا هذه المدة. ولهذا يظهر - والله أعلم - أن القاضي عياضا هو الذي امتنع من الرجوع إلى غرناطة أول الأمر نظرا لما يكون قد حصل بينه وبين الأمير من التنافر البسيط ترتب عن كيفية تطبيق أحكام الشريعة. فربما كان الأمير تاشفين يرى أن يكون القاضي مرنا في التطبيق رحيما أكثر في الأحكام، والقاضي - كما عرف عنه لا يعرف في الله لومة لائم - يرى الشدة والصرامة حتى لا يوسم بالتهاون في شريعة الله. وبما أن تاشفين يحب القاضي عياضا ويقدره ويحترمه ويخاف عليه،

---

(29) في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي الأزدي المعروف بابن الحاج الأفطس أنه : (ولي قضاء غرناطة في أيام الملثمة سنة 534 هـ بعد أبي الفضل عياض بن موسى)، (التكملة. 1. ص 439). ومعنى هذا أن أبا عبد الله الزاهد ظل نائبا عن عمه القاضي عياض سنتين تقريبا. (انظر تعليق الدكتور محمد بن شريفة في هامش التعريف. ص. 11).

تدخل معه حتى لا يقع له مثل ماوقع لشيخه أبي بكر بن العربي المعافري عندما كان قاضيا على اشبيلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة (30) حيث لم تدم مدة قضائه طويلا حتى ثارت عليه السفلة سنة 529 هـ نظرا لشدته وتصلبه في الأحكام كما ادعوا. حيث هدموا داره وأحرقوا كتبه ونجا بأعجوبة من الموت وقد صرح بهذا ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم. فقال :

(ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يكن يرى في الأرض منكر. واشتد الخطب على أهل الغصب وعظم على الفسقة الكرب. فتألبوا وألبوا وثاروا إلي فاستسلمت لأمر الله. وأمرت كل من حولي ألا يدافعوا عن داري. وخرجت على السطح بنفسي. فعاثوا علي. وأمسيت سليب الدار. ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار) (31) فهاته الفتنة وقعت للإمام ابن العربي وما أدراك ما ابن العربي وهو يحكم بما أنزل الله. ولكن الشدة في التطبيق لم يقبلها المغرضون فوقع له ما وقع... فربما الأمير تاشفين خاف على القاضي عياض أن يقع له مثل ما وقع لشيخه. فكلمه في الأمر بأن يكون حذرا في التطبيق وألا يتشدد. فغضب القاضي لذلك واعتبره تدخلا في شؤونه واختصاصاته. وذهب الى أهله بسبتة كأنه يريد الاستغناء عن هذا المنصب. ونظرا لمنزلته الكبيرة عند الدولة المرابطية على العموم. ولمقامه الرفيع عند أمير المسلمين علي بن يوسف على الخصوص. ترك على حاله ولم يلزم بالرجوع الى منصبه بغرناطة. ولا عين مكانه شخص آخر فورا. بل ترك مكانه شاغرا مدة سنتين ينتظر رجوعه. ثم عين بعده من يخلفه ولكن بعد انقطاع اليأس من رجوعه الى منصبه. ثم عين قاضيا في سبتة نفسها التي يحبها أكثر من غيرها وأهلها يفهمونه ويحترمونه أكثر من غيرهم.

---

(30) نفح الطيب ج. 2. ص. 30 والبيان المغرب ج. 4 ـ ص. 94.

(31) العواصم من القواصم. ص. 138. ط. بيروت ـ تحقيق : محي الدين الخطيب.

وبناء على ما سبق فإن أبا الفضل كان راضيا عن المرابطين بداية ونهاية، والنتيجة الحتمية لذلك هي أنه لن يبخل بالتضحية في سبيلهم مهما كانت الأحوال وجسامة الأحداث ولكن ما هو موقفه من الموحدين ؟ هذا ما سنراه الآن.

2 ـ موقف القاضي عياض من دولة الموحدين :

إن موقف القاضي عياض من الموحدين مبني أيضا على الواقع الذي شاهده أو سمعه أو قرأه من أعمال الموحدين وغيرهم ممن يذهبون نحو تمجيد الأشخاص والقول بعصمتهم، وإذا علمنا أن أبا الفضل مالكي المذهب متشبث به ومعتز به أيما اعتزاز، وهذا المذهب لا يعترف بالعصمة إلا للأنبياء والرسل، وأن كل ما ادعى غير ذلك يعد دجالا مهرجا إذا عرفنا هذا علمنا رأي القاضي عياض مسبقا فيهم ولكن لا بأس من أن نوضح الموقف أكثر.

إن الموحدين بنوا مذهبهم على مادعاه رئيسهم بأنه المهدي المنتظر الواردة فيه بعض الآثار، وأنه معصوم من الأخطاء صغيرها وكبيرها، وأن من لم يتبع رأيه يعد كافرا يقاتل على هذه الحالة بدون شفقة أصلا، وطبق ما قرره بالفعل منذ ظهر أمره في تينملل، وسمى المرابطين مجسمين، وقاتلهم قتال كفر، وحصر التوحيد في أصحابه وأتباعه (32) الذين لا يدخلهم الشك في أفعاله حتى ولو كانت مخالفة لمذهب التوحيد الذي ينادى به، ومن داخله أدنى شك في عصمته يقتل حتى ولو كان من المقربين إليه (33) وبما أن المغاربة الواعين لا يعترفون بالعصمة لأحد فإن قيام هاته الدولة على هذا المبدأ ستكون وبالا عليهم، لأنهم تجرعوا الآلام ممن يحملون هاته الفكرة فالدولة الإدريسية التي أحبها المغاربة قضى عليها العبيديون وهم ممن يحملون فكرة العصمة للحاكم البشر، ورأوا ما فعله الشيعة في المغرب العربي عندما سلطوا زبانيتهم على من يحملون الفكر السني،

---

(32) انظر ابن خلدون ـ العبر ج. 6 ـ ص. 226.

(33) من ذلك مثلا : قتله لفقيه جليل أحد عشيرته لأنه لاحظ عليه قتله أقواما بايعوه وقسم أموالهم. نقل ابن عذاري مايلي : (أخبرني أبو علي صالح قال : لما قتل محمد بن تومرت هزميرة تينملل قال له الفقيه الافريقي أحد عشيرته : (كيف تقتل أقواما بايعوك ودخلوا في طاعتك، وتقسم أموالهم ؟ فأمر به فقتل وصلب لأنه شك في عصمته) ج.4. ص 69.

ولا سيما إذا كانوا من أصحاب مذهب مالك بن أنس (ض) ففي آخر القرن الرابع قام الشيعة وقتلوا أعيان علماء الملة الذين كانوا حاملين لواء العلم والدين وحملوهم على الرجوع عن مذهب مالك وعن السنة. واعتناق مذهبهم. فلما أبوا عذبوهم وقتلوهم.

والقاضي عياض سمع بهذا وأدرك قصده ومغزاه لاسيما وهو الذي يروي في ترجمة أبي بكر بن هذيل وأبي إسحاق بن البرذون ومن عاصرهما - كيف قتلا وسحبا في أذناب الدواب لعدم افتائهما بمذهب أهل الشيعة (34) وكذلك قتلهم خمسة وثمانين من نخبة علماء القيروان في وقعة أبي زيد مخلد بن كيداد حول المهدية ومنعوا من أبقوه حيا من التخلف في المساجد لنشر العلم والفتيا إلا إذا كان ذلك عن طريق مذهبهم مما جعل الناس يكتمون عقيدتهم السنية ويعملون على المحافظة عليها سرا حتى يظهروها جهرا فيما بعد.

هاته الأمور عاشها المغاربة وذاقوا مرارتها. ولذلك نجدهم يعضون بالنواجذ على عقيدتهم السنية وعلى مذهب إمام مالك بالخصوص ولا يتساهلون فيه ومنهم القاضي عياض.

وفي الوقت الذي يدعي فيه المهدي بن تومرت العصمة في جنوب المغرب نجد شخصا آخر في شماله وفي ريف سبتة بالذات (35) ادعى أنه الخضر. مما جعل المغاربة يزدادون إيمانا وتشبثا بمذهبهم. لذا نجدهم ألقوا القبض على هذا المشعوذ حينا وساقوه إلى سبتة. حيث أرسل إلى مراكش ونفذ فيه القتل بعد استفتاء العلماء من طرف أمير المسلمين. وهاته القضية تعطينا مثالا واضحا في أن المغاربة واعون للدين الإسلامي الصحيح. وهذا الوعي لا تمر عليه حيل المهدي في ادعائه العصمة. والقاضي عياض من هذه الطينة الطاهرة بل وهو من زعمائها

(34) أنظر المدارك. وكذلك الفكر السامي للحجوي الثعالبي - القسم الثالث ص 156.

(35) قال ابن حمادة : في سنة 520 هـ قام رجل في ريف سبتة وادعى أنه الخضر فقبض عليه في العشر الأول من جمادى الآخرة ووصل إلى سبتة يوم الثلاثاء لثلاث عشرة من الشهر المذكور محمل منها إلى حضرة مراكش فقتل وصلب. ابن عذاري. ج.4 - ص 25.

الأبرار العارفين المخلصين الذين لا يقبلون أن يجرف الدين من أجل الوصول إلى السلطة. بينما المهدي بن تومرت على النقيض فغرضه الوصول الى السلطة وفي سبيلها يستخدم كل وسيلة طابقت الشريعة أم خالفتها فالغاية عنده تبرر الوسيلة. يقول المؤرخون : (إن ابن تومرت كان سفاكا للدماء غير متورع فيها ولا متوقف عنها. يهون عليه سفك دم عالم من الناس في هوى نفسه وبلوغ غرضه) (36) فقتل الرجال وسبى النساء والدراري والأموال وكان يقول لأصحابه : (اقتلوا المجسمين والبرابرة المفسدين والفقهاء الماكرين(37) والعجب أنه لم يعاملهم حتى معاملة أهل كتاب. وإنما عاملهم معاملة الكفار الجاحدين وجود الله ولما انهزم أمام جيش المرابطين لم يتورع عن دفن بعض أتباعه أحياء ويترك لهم متنفسا حتى يقولوا ما أملى عليهم من أنه المهدي المنتظر ثم رجع إليهم خلسة وأغلق أمكنة التنفس فماتوا ومات السر معهم.

وجاء خلفه عبد المومن بن علي واتبع نفس النهج. فأظهر من الشدة والقساوة وسفك الدماء في كل مدينة دخلها مما يندى له الجبين. جاء في البيان المغرب: (لما اشتد القتال على أهل وهران مات أكثرهم بالعطش إلى أن خرجوا على حكم البرابر الذين يسمون بالموحدين فقتلهم أجمعين كبارا وصغارا بعد ثلاثة أيام من قتل تاشفين وذلك يوم عيد الفطر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة) (38).

هاته هي الصورة التي وصلت للقاضي عياض على الموحدين وهاهم الآن أصبحوا على أبواب سبتة يريدون فتحها برئاسة عبد المومن. ماذا سيفعل القاضي ؟ هل يفتح لهم الأبواب ويخون المرابطين الذين قضوا على التفرقة وعلى الشيعة وعلى تقديس الأشخاص ووحدوا المغرب تحت مذهب واحد. ويتبع هؤلاء الذين يحكمون على المسلمين بأنهم كفار مع أنهم مسلمون حقا...

---

(36) انظر الفكر السامي ص 123.

(37) ابن عذاري. ج. 4. ص 68.

(38) النص نقله ابن عذاري عن ابن بحير ـ (انظر البيان المغرب ط. تطوان ص. 17).

هنا نجد القاضي عياضا بطلا وشجاعا إذ تحمل مسؤولية العلم الواعي فنبه الناس إلى الأخطار التي تنتظرهم إن هم أطاعوا هؤلاء فيجتمع أهل سبتة حوله وكلهم آذان صاغية لأنه (كان رئيسهم يومئذ بأبوته ومنصبه وعلمه ودينه) (39) فعملوا بقوله ووقفوا في وجه الموحدين وتشبثوا بالطاعة للمرابطين مما جعل عبد المومن يرحل عن سبتة دون مطمع في فتحها هاته المرة.

فموقف القاضي عياض من الموحدين في أول الأمر هو الرفض لما ذكرناه من الأسباب آنفا. ولهذا فليس صحيحا ما يقوله ولده في التعريف من أن أباه (بادر بالمسابقة إلى الدخول في نظام الموحدين والاعتصام بحبلهم المتين) (40).

رحم الله أبا عبد الله إن كلامه هذا يدل أنه كان يكتب وهو غير مطمئن من الدولة التي وقف أبوه في وجهها فربما كان يحذر كيد الكائدين حتى لا يقع له ما وقع لأبيه من النفي والموت في الغربة...

أين هاته المبادرة ؟ لقد مر على ظهور المهدي عشرون سنة وكانت الحرب متأججة بينه وبين المرابطين. وأخباره تناقلتها الركبان في الشرق والغرب. ولم تبايعه أي مدينة من مدن المغرب القريبة منه فضلا عن سبتة البعيدة نسبيا.

نعم : إن أهل سبتة بعدما رفضوا الخضوع لعبد المومن ورحل عنهم إلى مكان آخر. تراجعوا عن موقفهم وكتبوا إليه بالسمع والطاعة (41) ولكن طاعتهم هاته لا تعد بيعة حقيقية في نظري. وإنما هي نتيجة الخوف مما عساه أن يلحقهم من عبد المومن الذي كان يهلك الحرث والنسل في حروبه والذي دوخ المغرب كله وأغرق فاس بمياه النهر. وقتل تاشفين ولم يبق شخص قوي يقف في وجه عبد المومن. ثم إن سبتة ماعساها أن تفعل وحدها بعد سقوط المغرب ضحية الموحدين. وبعد الاضطرابات التي ظهرت في الأندلس. فمن سيدافع عنها إن داهمها عبد المومن

---

(39) انظر ابن خلدون الذي قال : (ولذلك سخطته الدولة آخر الأيام حتى مات مغربا عن سبتة..) وانظر أيضا الاستقصا. ج 2 - ص. 93.

(40) انظر النص في التعريف. ص 11.

(41) في البيان المغرب لابن عذاري. (وفي هذه السنة (سنة أربعين) وصلت كتب أهل سبتة بالسمع والطاعة والدخول في حزب الجماعة).

برا وبحرا ؟ وما عساه أن يفعل القاضي عياض الذي يرجع إليه أهل سبتة في كل الأمور ولا سيما الصعب منها ؟ يظهر أن القاضي رأى بفكره الثاقب أن سبتة بين ضررين عظيمين لكن أحدهما أعظم من الآخر. ولا محيد لها عن واحد منهما أحدهما : التمادي في الرفض ومحاربة الموحدين وهذا معناه الانتحار لا محالة. لأن سبتة ضعيفة وحدها في الميدان. فليس هناك من تستغيث به. وستكون النتيجة هي المدينة بالقوة. ثم يهلك الرجال والأطفال وتسبى النساء وتوزع الأموال والدور كما هي عادة الموحدين. ثانيهما : ـ وهو الأخف ـ أن تقدم الطاعة للموحدين وهي تعلم علم اليقين أنهم سيحدثون فجوة في العقيدة الإسلامية. وسيفضون على الفقهاء المالكين والقاضي عياض في طليعتهم ولكن هذا ضرر عام والأمة كلها ستتحمل ضرره وليست سبتة وحدها. ففضل القاضي أن يرتكب أخف الضررين. ريثما تحين الفرصة للمغاربة جميعا ليقولوا كلمتهم في الموحدين. وهكذا كتب لعبد المومن بالطاعة وأنه يدخل في حزب الجماعة (42) ثم اتصل به بمدينة سلا كما يقول ولده في التعريف (43). ولعل ما قلناه سابقا من أنه لم يبايع حقيقة هو الذي جعل القاضي يجاهر برأيه في الموحدين بمجرد أن رأى المغاربة يثورون ويجمعون أمرهم على محاربته بعدما رأوا ما فعله في المسلمين عبد المومن لما دخل مراكش وما يريد تطبيقه من البدع المخالفة للعقيدة الصحيحة انتفض المغرب على عبد المومن عندما قام محمد بن هود (44) فقام القاضي عياض أيضا وأيد الثائرين : ركب البحر بنفسه وذهب إلى يحيى بن

---

(42) في الاستقصا ج.2.ص113 (أن عبد المومن كان غزا سبتة في غزته الطويلة وأن القاضي عياض ـ رحمه الله ـ دافعه عنها وأنه لما قتل تاشفين بن علي وفتحت تلمسان وفاس واستفحل أمر عبد المومن بايع أهل سبتة في جملة من بايع من أمصار المغرب).

(43) قال .. (ثم رحل إليه فاجتمع به بمدينة سلا عند توجهه-دام تأييده-الى محاصرة مراكش، فأوسع نزله وأجزل صلته ولقي منه برا تاما وإكراما عاما وانصرف على أحسن حال..) ص. 12.

(44) ارتدت سائر البلاد كلها ولم يبق منها إلا مراكش وفاس. (انظر ما نقله ابن عذاري من ابن صاحب الصلاة ص. 26 ـ ح 3، وانظر القرطاس، والاستقصا، ج 2).

علي المسوفي المعروف بابن غانية الذي كان لا يزال مخلصا للمرابطين. فلقيه وأدى إليه البيعة وطلب منه واليا على سبتة فبعث معه يحيى الصحراوي الذي استعد لمحاربة الموحدين بعد ما انتفض أهل سبتة وقتلوا عامل الموحدين ومن كان معه من أصحابه وحاميته وحرقوهم بالنار. واستنصر البرغواطيون به ضد الموحدين. فأتاهم وبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المومن فهزموه. فهاته الهزيمة كانت بسبب اتحاد سبتة مع البرغاوطيين وبالتالي فالقاضي عياض هو بطلها الروحي. غير أن هذا الانتصار كان مؤقتا إذ سرعان ما استعد عبد المومن وكر من جديد على البرغواطيبين فهزمهم وحكم السيف فيهم وأخضع المغاربة من جديد الى طاعته قسرا.

ولما تيقن القاضي عياض من سيطرة الموحدين من جديد قرر الخضوع لهم مرة أخرى. إذ لا سبيل غير ذلك. فأمر أهل سبتة أن يبعثوا بيعتهم إلى عبد المومن مع كبار أشياخهم وطلبة العلم واعلان توبتهم عما فعلوه. وذاك ماكان وعفا عنهم (45) ولكن هدم صور سبتة وأمر القاضي عياض بالانتقال إلى مراكش حيث جاءه الأجل المحتوم.

وهنا نتساءل : هل حقيقة عفا عنه عبد المومن بن علي بعدما صدر منه ما صدر...؟ إني أشك في هذا العفو. لأن الموحدين يدركون أن مذهبهم لن ينجح في المغرب مادام فيه علماء من مثل القاضي عياض الذين يجهرون بالحق ويدافعون على مذهب مالك. مهما كانت العاقبة. حتى ولو ضحوا بأنفسهم إن اقتضى الحال لذا نجد عبد المومن طلب من القاضي الانتقال من سبتة محل شيعته إلى مراكش ليكون غريبا. ولا يتكرر منه العصيان وبذلك يفتح المجال للعقيدة المهدوية بالإنتشار. ولكن القاضي ليس شخصية عادية فإنه سيجد شيعته أينما حل وارتحل حتى في مراكش نفسها وقد يؤثر بعلمه وأخلاقه وتآليفه النادرة على الخاصة

---

(45) في القرطاس : أما أهل سبتة فقد ندموا على ما فعلوا وبعثوا بيعتهم إلى عبد المومن فعفا عنهم وعن رئيسهم القاضي عياض.

والعامة. ولذا فإن عبد المومن سيحسب له ألف حساب. وذاك ماكان. وعلى كل حال فإن القاضي ذهب الى مراكش ولم يرجع إلى أهله إذ وافاه الأجل في ظروف قيل فيها ما قيل (46) والقاضي عياض لما فارق أهله بسبتة كان متيقنا بأنه ذاهب الى محل لن يرجع منه حيا وأن الموحدين سينتقمون منه. ولكنه مع ذلك فضل الذهاب والتضحية بنفسه على أن يصيب الأذى مدينته سبتة ولذلك لما ودعهم كان يبكي ويقول : جعلني الله فداكم. ولسان حاله يقول :

الا أن هذا الدهر يوم وليلة   يكران عليك من سبت إلى سبت

فقل لجديد العيش لا بد من بلى   وقل لاجتماع الشمل لا بد من شت (47)

ومن كلام ولده في التعريف يظهر أن عبد المومن لم يعف عنه يوم أن عفا على أهل سبتة. لأنه يبين أن أباه خرج من سبتة واتجه إلى مكناسة وأخذ كتابا من أبي حفص الهنتي ليكون شفيعا له عند عبد المومن قال : (وأصحبه كتبا إلى الحضرة فوصلها والحال متغيرة عليه فأقام بها تحت (رقبة) إلى أن اجتمع بسيدنا أمير المؤمنين دام نصره. وكان منه ـ رحمه الله ـ من الكلام المنظوم والمنثور ما استعطفه به حتى رق له وعفا عنه) (48).

من هذا النص يظهر أن القاضي استدعي إلى مراكش وهو مغضوب عليه لا كما قال بعض المؤرخين من أن عبد المومن عفا عنه يوم أن عفا على أهل سبتة. ونتساءل الآن أيضا هل عفا عنه حقيقة ؟ الله أعلم بالواقع والصواب. ويظهر أن العفو كان صوريا فقط حتى يحين الوقت للتصفية بطريقة لا ينتبه إليها المغاربة والله أعلم.

---

(46) قيل: إنه مات مسموما بأمر من عبد المومن ولا استبعد هذا لما يحمله الموحدون من الحقد على الفقهاء المالكية الذين كانوا اليد اليمنى للدولة المرابطية وما قيل فيه قيل في ابن العربي أيضا الذي توفي بعد رحيله من مراكش قاصدا فاس.

(47) نقلت البيتين من أزهار الرياض. ج. 1 ـ ص. 9 ـ الرباط.

(48) التعريف بالقاضي عياض. ص 13.

هاته هي قصة القاضي عياض وهذا هو موقفه مع دولتين عظيمتين حكمتا المغرب موحدا مع الأندلس. وهو إذا كان مخلصا للمرابطين فإنه على حق ولا يلام. فالمبدأ الذي يومن به المومن يجب ألا يتخلى عنه مهما كانت ضراوة الأعداء.. وأنه ـ رحمه الله ـ كان شجاعا في مواقفه كلها. شجاعا عندما وقف في وجه عبد المومن في المرة الأولى، وكان شجاعا عندما قدم طاعته. وكان شجاعا عندما خالفه وحاربه.وكان شجاعا عندما ترك مسقط رأسه وقصد عبد المومن غير مكترث بما سيعامله به. مادام أظهر رأيه فيه ومادام أهل سبتة لا يصيبهم سوء. والرجل الشهم هو الذي يجود بنفسه دفاعا عن عقيدته وأهله :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بهـــا والجود بالنفس أقصى غاية الجـــود

ومن هنا فلست مع الذين يقولون : إن الفقيه ورط نفسه في السياسة وهذه ليست من اختصاص الفقهاء.إني أقول : إذا كانت السياسة هي قلب الحقائق بالدس والكذب واستخدام جميع الطرق المحرمة في الإسلام. فحقيقة أن القاضي لا يعرفها وإذا كانت السياسة هي الدفاع عن الحق والاستماتة على المبدأ واستغلال الظروف المناسبة فهكذا يعرفها القاضي عياض كما يعرفها جميع الفقهاء. ولذا فإنه كان سياسيا ممتازا إذ استطاع أن يقف في وجه الموحدين مرتين مع المحافظة على سبتة دون تخريب فلم يصب سبتة ما أصاب سلا وفاس ومكناس تلمسان ووهران وغمارة والبرغواطيين وغيرها من المدن والقبائل المغربية التي قتلت تقتيلا وذبح أفرادها ذبح الشياه (49) أما النهاية التي انتهى إليها فقد انتهى إليها كثير من العظماء في السياسة. بل إن السياسي تختم حياته في الغالب بأشد ما اختتمت به حياة القاضي عياض. ولا حاجة إلى ضرب الأمثلة على ما قلناه. فالتاريخ كله مملوء بمصرع السياسيين. وزيادة على هذا فإن الموحدين كانوا مبيتين قرارهم بتصفية الفقهاء لأنهم قادة مذهب الإمام مالك الذي قامت عليه دولة المرابطين

---

(49) انظر ما فعله الموحدون في مئات من الأفراد جاءوا بهم من غمارة إلى تطوان وذبحوهم ذبح الشياه والناس ينظرون (انظر تاريخ تطوان ـ للأستاذ داود ج 1).

وهم يريدون قطع جذورها، ولهذا لما صفا لهم الجو من بعد، أمروا بإحراق الكتب الفقهية السنية ومنها المدونة المنسوبة للإمام مالك.

إن القاضي كان سياسيا ولكن السياسة الشرعية، فكل الذي فعله لم يكن الغرض منه الوصول إلى المنصب أو الرياسة. بل كان دفاعا عن الحق، وإخلاصا للمرابطين الذين يؤيدون المذهب المالكي فلو كان يريد المنصب السياسي لنفسه لما ذهب إلى الأندلس يقدم الطاعة لغيره ويأتي بشخص آخر يكون وليا على بلاده ويتولى الدفاع والرئاسة. إن موقفه الذي وقفه لم يكن وراءه غرض شخصي، بل هو في مجمله موقف تقتضيه المروءة والوفاء بالعهد والدفاع عن المبادىء التي آمن بها.

ونحن اليوم نحتفل في نطاق ندوة الإمام مالك رضي الله عنه، فإنه لحري بنا أن نتذكر هاته المواقف التي وقفها أسلافنا الأبرار من مثل القاضي عياض دفاعا عن الإسلام الحق وعن الشريعة السمحة المأخوذة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة واجتهاداتهم وأقوال الفقهاء المخلصين المومنين، دون زيغ أو تشيع. وما أجدرنا اليوم ونحن نحتفل ببزوغ القرن الخامس عشر من رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن نتذكر كل المواقف التي وقفها هو وأصحابه ثم فقهاء الملة وعلماؤها ومفكروها ضد الإلحاد والكفر، فنقف نحن أيضا ضد الأفكار الزائغة والمعتقدات المنحرفة. ولنسر على نهجهم الصالح ونعمل على تنوير العقول بالعلم والتوعية، وبالحجة الواضحة المنتجة وبذلك سننقذ شبابنا من الحيرة المدلهمة التي هو فيها الآن، ونجنبه من السقوط تحت وطأة الأفكار الدخيلة التي تريد أن تخرب الدين الإسلامي ليصفو لها الجو في استعباد أهله ـ لاقدر الله.

نضالية القاضي عياض ودفاعه
عن عقيدته ومذهبه

للأستاذ : أبو بكر القادري

بسم الله الرحمن الرحيم

نضالية القاضي عياض ودفاعه عن عقيدته ومذهبه

تعتبر شخصية القاضي، عياض اليحصبي السبتي من أبرز الشخصيات في التاريخ المغربي. فشهرته العلمية، ومكانته الثقافية، وكفاحه في سبيل العقيدة والمذهب، وآثاره الواسعة المتعددة، وسلوكه المستقيم، كل ذلك أعطاه مكانة خاصة، وشهرة عالمية، وتقديرا عظيما من علماء المشرق والمغرب.

لقد كان القاضي عياض، علما فذا من أعلام علماء المالكية بالمغرب درس المذهب المالكي دراسة واعية متقنة، وتحمس لتبيين مزاياه، والتعريف بأعلامه، كما درس كل العلوم الرائجة في عصره، فكان مثال العالم المتبحر فيها، ووعى مسؤوليته كعالم قدوة لأفراد مجتمعه، فقدر هذه المسؤولية وأعطاها حقها، وقام بواجبها حق الأداء.

ينتسب (عياض) بن موسى بن عياض اليحصبي لقلعة أندلسية كانت تدعى بيحصب، وهي في الأصل قبيلة من (حمير) سميت باسم أبيها يحصب بن مالك كما جاء في لباب الأنساب لابن الأثير. ولقد جاء في كتاب «التعريف بالقاضي عياض» لولده أبي عبد الله محمد. قال : «استقر أجدادنا في القديم بالأندلس جهة (بسطة) ثم انتقلوا إلى مدينة فاس وكان لهم استقرار في القيروان. لا أدري أقبل استقرارهم بالأندلس أم بعد ذلك، وكان (عمرون) والد جدى رحمة الله على جميعهم، رجلا خيرا صالحا من أهل القرآن، حج احدى عشر حجة، وغزا مع ابن

أبي عامر غزوات كثيرة، وانتقل من مدينة (فاس) إلى مدينة (سبتة) بعد دخول بني عبيد المغرب، انتهى ».

و(سبتة) حررها الله من قبضة الغاصبين، ميناء على البحر المتوسط اتجاه جبل طارق وتقع على شبه جزيرة تمتد من الغرب إلى الشرق، وكان يحكمها قبل الفتح الإسلامي العربي (الكونت يوليان) وفي عهده دخلت في نطاق الدولة المغربية لدى الفتح الإسلامي للأندلس ثم كانت تحت حكم الأدارسة، ثم تابعة لعبد الرحمن الناصر خليفة (قرطبة) ثم أصبحت يتعاورها الحكم المغربي أو الحكم الأندلسي عندما كان التمازج أو الافتراق يقعان بين المغرب والأندلس.

وعندما قامت الدولة المرابطية بالصحراء المغربية، وامتد نفوذها إلى الاصقاع المغربية جميعها، أصبحت مدينة (سبتة) في حوزة المرابطين فصارت تأخذ مركزها العلمي والثقافي والاقتصادي والتجاري، ولقد كتب عنها الكثيرون في طليعتهم مترجمنا الذي كان يهيم بحبها، فخصها بتأليف جعل اسمه : (الفنون الستة في أخبار سبتة). كما تحدث عنها الإدريسي فقال : في مدينة (سبتة) مصايد للحوث ولا يعد لها بلد في إصابة الحوت وجلبه ويصاد بها السمك نحو مائة نوع، ويروي ايضا : انها كانت مغطاة بالبساتين والكروم، ومزارع قصب السكر ويقول : ويصاد في مدينة (سبتة) حجر المرجان الذي لا يعد له صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار.

ولادة القاضي عياض :

في مدينة (سبتة) المغربية ازداد مترجمنا رحمه الله في شهر شعبان عام ستة وسبعين وأربعمائة هجرية، حيث كانت إذ ذاك من المدن المغربية الثقافية الكبرى تلعب دورا هاما في الحياة الفكرية، وكانت ملتقى علماء العدوتين، درس فيها جمهور عظيم من العلماء الأعلام، وكانت منارا تشع من بين جوانبه أنوار المعرفة والثقافة الإسلامية المتنوعة، وأنجبت كثيرا من العلماء والأدباء والجغرافيين

والساسة والرحالة أمثال الشريف الإدريسي ومحمد بن رشيد الرحالة ومالك بن المرحل الشاعر الأديب وأبى العباس السبتي دفين مراكش وغيرهم.

استيلاء الموحدين على سبتة :

استولى عليها (الموحدون) لدى قيام دولتهم. ولكن بعد مقاومة عنيفة من سكانها تحت قيادة مترجمنا القاضي عياض. الذي لم يقبل الخضوع لهم أول مرة ولأسباب سنتعرض لها. وعند قيام الدولة المرينية ولى أمرها (العزفيون) (1273م) الذين كانوا موالين للدولة المرينية.

هجوم البرتغاليين على سبتة :

وأوائل القرن الخامس عشر (1415م) هاجمتها القوات البرتغالية التي كانت إذ ذاك في سطوتها الإستعمارية. فقاوم سكانها الأصليون الذين كانوا خليطا من العرب والبربر. القوات البرتغالية مقاومة عنيفة تحت قيادة أحد الأبطال الصناديد المسمى بالقائد (صلاح) ولكن القوات البرتغالية كانت أكثر عددا فدخلت (سبتة) في حوزة البرتغاليين إلى أن انتزعتها منهم القوات الاسبانية التي كانت تنافس البرتغاليين في بسط النفوذ وفرض السيطرة. واستغلال الخيرات.

المغرب يعمل على استرجاع سبتة :

ومنذ ذلك الوقت والمغرب يبذل ما يستطيع لاسترجاعها من قبضة المستعمرين. فلقد حاصرتها القوات المغربية في عهد المولى اسماعيل العلوي بجيش يبلغ ثلاثين ألف جندي ولما تعسر عليه التغلب على الجيش الإسباني واسترجاعها منه. بقي محاصرا لها وبحامية مغربية سبعا وعشرين سنة. فلم يستطع فتحها. ولدى تولى ابنه المولى عبد الله عاود الكرة عليها. ولكنه لم يسترجعها. ولدى تولى المولى (اليزيد) بن سيدي محمد ابن عبد الله جعل همه افتكاكها من قبضة الإسبان. فحاصرها مدة طويلة. ولكنه لم ينجح في استرجاعها. فلقد كان

الاستعمار الإسباني يعتبرها مركزا استراتيجيا خطيرا نظرا لموقعها بالنسبة لبلادهم، ومقابلتها لجبل طارق الذي يعتبر بدوره مركزا استراتيجيا حساسا في المواصلات البحرية. لقد استولى عليها لبضع سنوات الجيش الإنكليزي ولكنه تنازل عنها بعد ذلك للقوات الإسبانية.

أول استعمار في إفريقيا :

ويعتبر استيلاء البرتغال ثم إسبانيا على مدينة (سبتة) المغربية أول استعمار أوروبي طاغ دائم في إفريقيا. فلقد كان احتلالها من طرف البرتغال سنة 1415 م ثم أصبحت خاضعة للإسبان سنة 1580 ومنذ ذلك الحين والمغرب يطالب بإرجاعها. ويعمل على افتكاكها. سواء من لدن الملوك المغاربة العلويين أو من طرف الجماعات الشعبية التي كانت تتحفز دائما إلى تحريرها.

فالتاريخ يحدثنا أن المغاربة. وخصوصا سكان قبيلة (أنجرة) كانوا يقومون بحراسة المناطق الواقعة على الحدود بين سبتة وأنجرة يقومون بهجومات على المستعمر ويحطمون التحصينات التي يبنيها. وأن الهجوم الإسباني على تطوان ثم استيلاؤه عليها بعد المعارك الطاحنة التي دارت بين المغاربة والإسبانيين المشهورة بحرب تطوان كان إثر هجوم أهل الأنجرة على سبتة ومحاولة افتكاكها من قبضة المستعمرين.

إن هذه الهجومات المكررة تدل دلالة قاطعة على أن المغرب لم يتنازل ولم يقبل مطلقا أن يترك مدينة سبتة في قبضة الغاصبين. بل بذل أقصى ما يستطيع لإرجاعها لحظيرة الوطن.

والواقع أن احتلال سبتة كان مأساة عاشها المغاربة قاطبة. وذاق مرارتها بالخصوص سكان تلك المدينة الحبيبة ورد الله غربتها. وأود أن أشير هنا إلى أن الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كان قد قام بطبع مؤلف صغير يدعى : بـ (اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار) لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي. وهذا المؤلف الذي كتب بعد احتلال سبتة بسبع سنوات لاغير (825)

يتحدث عن معالم سبتة وآثارها وعلمائها وجميع مرافق الحياة فيها ولقد أضاف الأستاذ بن منصور الى الكتاب عدة ملحقات كان من جملتها رسالة كتبها أهل سبتة إلى السلطان عبد الحق المريني الثاني ووجدت محفوظة بالخزانة الملكية بالرباط تحت عدد 4485. ولقد جاء في هذه الرسالة ما يلي :

(هذه رسالة أهل رباط سبتة التي اختطها سبت بن سام بن نوح عليه السلام على يد (1) كبيرهم محمد بن سعيد العزفي).

(لما دخل (الصبانيون) رباط (سبتة) سنة (حيظ) أي سنة 818 ليس سكانها مسوح العهن والوبر والشعر، وقلبوا القلانس البوالي، والنعال السود. وهم أول من لبسها لهذا السبب. وتوجوا نساءهم بشمارير اللبد وسعف الدوم، مع قبائل الهبط. ثم ورد الكل على عبد الحق المريني، رجالا ونساء وبنات وولدانا إلى أن وردوا عليه فاس الجديد على هذه لهيأة التي تذيب الجلاميد، وتزير الحديد مستصرخين له وبه لدفع هذه المعرة القاذفة بهم في خصوم المضرة فا...هم بحبوحة... المت....ين فحيث أعجزه الدهر، وقعد به القهر عن قدره استيفادهم وعزم على ردهم على ..... فرة للفحص قرب بلادهم أمر مدن الغرب على التمادى في لبس هذا اللباس وقال لهم أحر... وأجمرة و... أن يجود الدهر بمحي عنكم كمد البأس، وفي عقب مسطور هذه الأبيات (2).

يـا ملكـا قـد صان بيضة مغـرب
بضـوارم وصـوارم وجـنـود
هتك النصـارى علينـا حرمـة سبتـة
غـدرا بنقـض مواثـق وعهـود

1) كذا.

2) مكان النقط مبتور في الأصل.

ألفـان فـي الفيـن من أبطالهم — عظمـاء أجـام طـوال قدود
فقصدنـا بابـك ضـار عين لبوسنا — أخمـار مـن شعر ونعل سـود
فمـاك تجبـر سدع قوم خانهـم — دهـر كـا للكل ثوب يهـود
إذ ذاك تغرك تخشى من عـاره — بيـن الـولاة مسطرا بشهـود

غدرونا فجر عروبة بصنادق
حطت صناديد صرعة كقرود

ثم تقول الرسالة بعد قصيدة جوابية نظمها الشاعر عبد الرحمن ابن عبد العزيز البجائي : فلم تزل مدن المغرب ترتدى المسوح والنعال السود ونسوان الهبط تتوج بكل شمرير ممسود. يرتجون من المغيث سبحانه نكبة في الكفار تصيبهم بكل حقود حسود فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده. بواسطة سلطان سعيد عليهم وعلى الرعايا وجنوده. تخفق على فحصها برياح النصر رايته بعد نبذه.

وأما سكان سبتة فقد تبددوا في الأقطار وجاء بعد جيل نسوا ما رغب فيه الآباء والأجداد من قضاء أولئك الأوطار. ولم تبق إلا الأحفاد التي لم تذق حلاوة ولا زقوم البلاد. ومن اعتقد منهم أو غيرهم أن الله مقيل العثار لم يزل يرتقب منه وإن طال المدى نظم الشمل بعد الانتشار في أخذهم من عدونا وعدوهم الثأر. وهو سبحانه أدرى وأعلم بصلاح وفلاح كل قوم إذ لا تأخذه سنة ولا نوم.

ولم يزل ثغر بسبتة في يد الإسبانيين أسيرا عسيرا غريبا يتربص الخلاص على يد خليفة المجيب القريب (3).

دراسة عياض ومكانته العلمية في سبتة :

ومن مدرستها تألق نجم أبي الفضل عياض رحمه الله فكان العالم المشار إليه بالبنان. المشارك في كل الفنون العقلية والنقلية والأدبية والفقهية والحديثية حتى أصبح من أئمة الحفاظ والفقهاء والمحدثين. بل أصبح كما قال عنه ابن خلكان المتوفى سنة 681 (إمام وقته في الحديث وعلومه. والنحو واللغة وكلام العرب

(3) جاء في كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى أن البرتغال هو الذي احتل مدينة سبتة سنة 818 وأن سلطان المغرب إذ ذاك هو أبو سعيد بن أحمد بن أبي سالم المتوفى سنة 823 وأن الذي تولى بعده هو ابنه عبد الحق الأخير، كما جاء في جذوة الإقتباس أما احتلال الإسبانيين لها فقد تأخر حسبما في الإستقصا مدة تزيد على مائتين وخمسين سنة أي إلى سنة 1080 هـ

وأيامهم وأنسابهم. وصنف التصانيف المفيدة منها كتاب (الاكمال) (4) ومنها (مشارق الأنوار) وهو كتاب مفيد جدا في تفسير غريب الحديث المختص بالصحاح الثلاثة وهي الموطأ والبخاري ومسلم. وشرح حديث (أم زرع) شرحا مستوفيا وله كتاب سماه : (التنبيهات) جمع فيه غرائب وفوائد وبالجملة. فكل تواليفه مفيدة).

وفي طبقات ابن فرحون لعلماء المالكية : (إنه كان أساسا في الفقه والتفسير والحديث وسائر العلوم. خطيبا بليغا وقال عنه ابن الآبار في معجم أصحاب أبي على الصدفي. وكان مترجمنا أخذ عنه : كان لا يدرك شأوه. ولا يبلغ مداه في العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار وخدمة العلم مع حسن التفنن فيه. والتصرف الكامل في فهم معانيه والى اضطلاعه بالآداب وتحققه بالنظم والنثر. ومهارته في الفقه ومشاركته في اللغة العربية. وبالجملة فكان جمال العصر ومفخر الأفق وجاء في كتاب شهاب الدين الخفاجي في شرحه للشفا. متحدثا عن مترجمنا وعن تنقلاته قال : (وانتقل إلى سبتة بعد سكنى فاس. وهو بحر في العلوم النقلية والعقلية. وأما أدبه وبلاغة شعره. فحدث عن البحر ولا حرج).

لقد كان (عياض) مرجعا في اللغة العربية وآدابها. وعلما من أعلام الفقه وأصوله وعلم الكلام والجدل فيه. قال المرحوم ابن تاويت الطنجي في مقدمته لترتيب المدارك : (ومناقشاته العميقة لآراء المعتزلة. والفرق الاعتقادية الإسلامية على اختلاف مذاهبها وللفلاسفة والصوفية والخوارج تطلع الدارس (لعياض) على معرفته الواسعة بالمذاهب الاعتقادية وآراء أصحابها.

وصلة القاضي عياض بعلم الكلام وما يتبعه من جدل ومناظرة ومعرفته بدقائق آراء المخالفين لأهل السنة فيه. تصل بنا إلى أن المدرسة التي أخرجت القاضي (عياض) وشيوخه الذين تعلم عليهم الكلام. وأصول الدين. وكثير من العلماء

(4) كتاب (الأكمال) هذا من أنفس وأعظم الكتب التي ألفها (عياض) ولقد أصبح عمدة لدى كل المحدثين خصوصا منهم شراح صحيح مسلم وعلى رأسهم الإمام النووي رحمه الله ويقع الاكمال في عدة مجلدات (29) مجلدا ولازال لم يطبع.

المغاربة الذين اشتغلوا بعلم الكلام واشتهروا به. وترجم لهم في ترتيب المدارك نقول هذه المدرسة كانت على علم تام بالجدل والمناظرة وأصول الدين والكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري وإن كتب الأشاعرة في علم الكلام كانت معروفة بين رجالها. يتدارسونها في كافة أنحاء المغرب) (انتهى كلام ابن تاويت) ولم يقتصر الإطلاع الواسع لمترجمنا على العلوم الفقهية وأصولها. والكلام والجدل وما يتبعهما من منطق وقضاياه وقواعده وإنما كان بالإضافة إلى ذلك محدثا شهيرا وحافظا قويا تتبع أهم كتب الحديث فوعاها ودرسها وعلق على الكثير منها. وعرف صحيحها من موضوعها وغريبها من مشهورها. فكان اطلاعه في مجال الحديث يضاهى اطلاعه في مجال الفقه والأصول.

والقاضي (عياض) كاتب قدير واديب ضليع. أسلوبه في الكتابة والتعبير يدل على تمكنه من اللغة العربية وآدابها وفقهها. وبلاغته بزت البلغاء الذين سبقوه والذين لحقوه. فقراءة صفحات من كتابه (الشفا) تعطى الدليل القاطع على مقدرته التعبيرية. وفصاحته المتناهية مما يدل على أن قيمة مترجمنا في هذا المجال. لم يضاهها إلا قليل من الرجال.

ولقد جاء في (التعريف بالقاضي عياض) لولده أبي عبد الله محمد أنه : (تذاكر رحمة الله عليه مع جلة زعماء وقادة علماء وسادة أدباء تعاطوا بينهم كأس الأدب حتى ذهبت بهم في التغلغل كل مذهب. فتسابقوا في ميدانه. وجرى كل ملء عنانه. إلى أن قصدوا التعجيز وسدوا باب المسامحة والتجويز. وقالوا الغاية القصوى. المعرية عن كل مدع في الأدب دعوى. أن نكتب رسالة معرية المعاني رائقة. ذات أصول ثابتة. وفروع سامقة. فيلحق بين كل سطر منها زيادة توافق معانيها ولا تخل من مبانيها. فتطاول لها رحمة الله عليه. وأزهار آدابه تنم. وقال : انا لها ولكل أمر مهم. وعينت له الرسالة. وكتب ما تقف عليه بعد إن شاء الله. وقدم بين يديها هذه القطعة وهي :

قل للأماجد والحديث شجون … ما ضر أن شاب الوقار مجون
ولئن غدوت من العلوم بموضع … تومى إلى أصابع وعيون
فلدي للاداب عين صبه … فيها إلى ملح الظروف وكون
كنا افترقنا عند دعوى خطة … ساءت بها فيما فهمت ظنون
فأتيت بالبرهان فيها نيرا … وعدت عواد بعد ذا وشؤون
وبعثت الآن بها ليعلم إنني … عين الزمان وسره المكنون

ثم قال بعد تقديم نثري :

(قرن الله يا سيدي مطالبك بالنجاح، ومآربك بالاسماح، وأجرى أحوالك على حكم الاختيار وأورى زندك في مساعي الأبرار، ولازلت سعيد الإيراد والإصدار، معلى القداح، مؤتى الأماني والإقتراح وردني يسر الله أملك، وسدد قولك وعملك، كتاب خطير، بل روض من الشرف مطير وخطاب أثير، بل مسك من الثناء نثير، فوقه زهر الحسن ولا زهر الحزن، وهب عليه نسيم الشرف لا نسيم الجوف، جاده صيب العقل لا منتن البقل، فرتعت في حديقة جده وهزله، وتمتعت برقيق لفظه وجزله ونزهت ناظري في رائق ألفاظه، ووجهت خاطري لقبلة معانيه وأغراضه ونزهت قولي وعملي عن رده واعتراضه) إلى آخر الرسالة البليغة

يضاف إلى ذلك شعره الحسن البليغ، ووصفه المتناهي في الإبداع فمن جملة ما قاله في خامات زرع، بينها شقائق النعمان هبت عليها ريح :

انظر إلى الزرع وخاماته … تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيبه خضراء مهزومة … شقائق النعمان فيها جراح

وقوله في تشوقه إلى رؤية الأحباب

الله يعلم إني منذ لم أركم … كطائر خانه ريش الجناحين
فلو قدرت ركبت البحر نحوكم … لأن بعدكم عني جنى حين

وله في لزوم مالا يلزم :

إذا ما نشرت بساط انبساط ... فعنه فديتك فاطو المزاحا
فإن المراج على ما حكاه ... أو لوا لعلم قبلي عن العلم زاحا

وقال ببلدة (داي) بتادلة :

أقمرية الأدواح بالله طارحي ... أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة ... تهيج من برحى ومن برجاء
لعلك مثلي يا حمام فإنني ... غريب بداي قد بليت بداء
فكم من فلاة بين داي وسبتة ... وخرق بعيد الخافقين قراء
تصفق فيها للرياح لواقع ... كما ضعضعتني زفرة الصعداء
يذكرني سح المياه بأرضها ... دموعا أريقت يوم بنت ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها ... خمائل أشجار ترف رواء
لعل الذي كان التفرق حكمه ... سيجمع منا الشمل بعد تنائي

ومن شعره :

أذات الخال كم ذا تنتضيها ... على سيوف عينيك انتضاء
بمطلك لي مواعد أقتضيها ... من التوريد واللعس اقتضاء
فقضى وعد مطلك وأنجزيه ... (خيار الناس أحسنهم قضاء)

ولقد أثنى عليه العماد الاصفهاني في الخريدة فقال : كبير الشأن. غزير البيان. مدحه أبو الحسن بن هارون المالقي بقوله :

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم ... والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الراء عينا في اسمه ... كي يكتموه فإنه معلوم
لولاه ما فاحت أباطح سبتة ... والروض حول فنائها معدوم

وهكذا ندرك أن مترجمنا كان علامة مشاركا. لم يقتصر تخصصه على ميدان واحد من ميادين المعرفة. ولكنه كان الفقيه الأصولي المحدث المتكلم الأديب. كما كان المناضل القدوة والشجاع.

والواقع أنه لم يرحل من مواطن نشأته (سبتة) حتى كان اطلاعه واسعا وآفاقه العلمية متفتحة. فأضاف إلى معلوماته الكثير بعد ما رحل إلى الأندلس حيث استفاد أعظم الإستفادة من اتصالاته ومناقشاته للعلماء حتى أصبح مشهودا له بالباع الطويل. والتبحر الواسع. ما جعل أستاذه أبا عبد الله ابن حمدون يقول له وقت رحلته : (وحقي يا أبا الفضل إن كنت تركت بالمغرب مثلك) وما جعل العلامة أبو محمد ابن أبي جعفر يقول :

(ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض).

مركزه الاجتماعي :

وهذا المركز الثقافي الممتاز الذي وصل إليه القاضي عياض. جعله يحتل المقام الأول في الوسط الاجتماعي المغربي. حيث رأى فيه الجميع العالم الفذ. والأستاذ القدير. المخصوص بالإكبار والإعظام من الخاصة والعامة. فلقد روى غير واحد من المؤرخين والمترجمين : (أن القاضي عياضا لما ولى قضاء بلده. كانت العامة والخاصة على غاية من محبته وإجلاله وإكباره وكان له من الهيبة والجلالة عند الأمراء والولاة ما جعلهم يقبلون قوله. حين يطالبهم بأداء حق من حقوق الرعية. ويتنافسون في قضاء حقه. والقيام بواجبه).

عياض الفقيه الملتزم للمذهب المالكي :

درس القاضي أبو الفضل عياض المذهب المالكي دراسة واعية مستفيضة واستمع في سبتة إلى أعلام المذهب المالكي. وقصد الأندلس. فأخذ من علمائها بقرطبة مثل القاضي أبي عبد الله بن علي بن حمدين وأبي الحسين سراج بن

عبد الملك، وأبي الوليد بن رشد، وأبي القاسم بن بقي، وأبي الفاسي إسحاق السبتي وابراهيم البصري والحسن بن علي بن طريف النحوي كما أخذ عن القاضي أبي علي حسين بن محمد الصدفي وغيرهم من الأشياخ الكبار (5).

وبعد دراسته الفقه العالي وإطلاعه على كثير من النظريات الفقهية، واستماعه للأشياخ المتعددي هذه النظريات، ومقارنته لأفكارهم، وفحصها الفحص الدقيق حسبما ما وهبه الله من قوة إدراك، وصحة ملكة، ترجح لديه أفضلية مذهب أمام دار الهجرة مالك ابن أنس على غيره واقتنع بضرورة الإلتزام به واتباعه لموجبات شرحها شرحا وافيا في كتابه: (ترتيب المدارك) ونشير الى جملة منها حسبما ما ورد في الكتاب المذكور، قال: (6) (وصار الناس اليوم في أقطار الدنيا الى خمسة مذاهب: مالكية وحنفية وشافعية وحنبلية وداودية وهم المعروفون بالظاهرية.

(فحق على طالب العلم، ومريد تعرف الصواب والحق، أن يعرف أولاهم بالتقليد، ليعتمد على مذهبه ويسلك في التفقه سبيله، وهانحن نبين أن مالكا رحمه الله وهو ذاك، لجمعه أدوات الامامة وتحصيله درجة الإجتهاد وكونه أعلم القوم، بل أهل زمانه، واتفاق أهل وقته على شهادتهم له بذلك وتقديمه وهو القدوة والناس إذ ذاك ناس، والزمن زمان، ثم للأثر الوارد في عالم المدينة التي هي داره (7) وانطلاق هذا الوصف والإضافة على ألسنة الجماهير له، وموافقة أحواله الحال الذي أخبر به في الحديث عنه، وتأويل السلف الصالح له أنه المراد) ثم يأتي بخمس حجج تفصيلية للترجيح الذي ارتآه، وعندما يتحدث عن ترجيح هذا المذهب المالكي على غيره من المذاهب من الناحية النظرية والإجتهادية، يؤكد أن (مالكا) بلغ ما لم يبلغه غيره من درجات الإجتهاد في الدين، وأنه أوتي من القدرة العلمية والخلقية والتجرد عن التعصب والركون إلى الحق، درجة قل أن

---

(5) أنظر شيوخه في (التعريف)

(6) المدارك ص 67.

(7) يشير إلى الحديث الذي رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة).

وصلها غيره. ويدلل على ذلك بكثير من الروايات والأحداث يثبت فيها أنه كان أعلم المسلمين في وقته، سواء في ميدان السنة والحديث أو في العلم بالاختلاف والاتفاق ويحكى المساجلة التي وقعت بين الإمام الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني في ترجيح علم مالك على علم أبي حنيفة رضي الله عنهم أجمعين، وهو في احتجاجه عن مذهب مالك يثبت المزايا التي للأئمة الآخرين ولا ينكرها، ولكنه يؤكد أنه جمع ما لم يجمعه غيره، واضطلع بما لم يضطلع به أي إمام، وعندما يتعرض إلى استنباط الأحكام من اصولها، والغوص عن إدراك سرائر التشريع يرى أن (مالكا) حاز قصب السبق في هذا كله ويقول : (فالتقت إلى قواعد الشريعة ومجامعها وفهم الحكمة المقصودة بها من شارعها (8) إن مترجمنا رحمه الله كان مومنا كل لإيمان بصواب مذهب الإمام مالك وضرورة وجوب أتباعه، وعدم الخروج عن قواعد مذهبه وأصوله.

ومن المعلوم أن المغاربة والأندلسيين كانوا في عهده (أي عهد الدولة المرابطية) يتبعون مذهب الامام مالك في الفقه والأحكام، ويدينون له بالإتباع، ويتبعون التقاليد القويمة التي مثلها العلماء المالكية في الدفاع عن حوزة الشريعة، والنضال في سبيل إعزازها، والزهد في الترف والمال الذي أفسد أخلاق الكثيرين، وعدم التملق لذوي السلطان، والصدع بكلمة الحق أمامهم، مستلهمين ذلك كله، من إمامهم إمام دار الهجرة، الذي أعطى المثال الصادق في حياته، على أنه ليس الإمام العالم المجتهد فحسب، ولكنه الإمام الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا ينصاع إلا لما يرى الشرع الإسلامي يأمره بالإنصياع إليه.

الأسس التي قامت عليها الدولة المرابطية :

إن تعلق مترجمنا بالمذهب المالكي وحماسه له جعلاه يتشبث كما سنرى بالدولة المرابطية تشبثا قويا، لأنها قامت على أسس قويمة من الإصلاح وسارت

---

8) المدارك ص 42.

في أحكامها وتصريفها أمور الدولة طبق الأوامر الشرعية حسبما جاء في النصوص الفقهية المالكية المعتمدة. وهذا ما جعل فقهاء المغرب وعلماءه يرحبون بمقدم الدولة المرابطية. ويساندونها ويدعون لها.

فلقد روى المؤرخون أن الفقهاء كانوا متذمرين من سوء الأحوال في البلاد ومتطلعين إلى القيام بأعمال إصلاحية جذرية، تقضي على الفساد الذي أصبح يستشري والنحل والمذاهب الفاسدة التي أصبحت تنتشر فلما ظهر عبد الله بن ياسين زعيم المرابطين بالصحراء المغربية. تطلعوا إليه وتمسكوا بدعوته. ورجوا الخلاص على يديه. ومن المعلوم أن (عبد الله بن ياسين) كان من المدرسة المالكية درس على علمائها. وتلقى تعاليمه من واحد أفذاذها. وهو العالم (وجاج بن زلو اللمطي) عالم جزولة المشهور. وتلميذ أبي عمران الفاسي الفقيه الكبير.

لقد قامت الدولة المرابطية بعدة إصلاحات في الحياة الاجتماعية فحاربت النحل والمذاهب المنحرفة وقاومت الإنحلال الخلقي. واهتمت بطبقات المستضعفين. وأسقطت المغارم والمكارس التي كانت مفروضة على الشعب وقضت على الاستغلال الإقتصادي الذي كانت تمثله طائفة اليهود. وقربت الفقهاء والعلماء العاملين. واهتمت بشؤون الطلبة. وخصصت لهم إعانات من مدخول الزكاة الذي نظمته في بيت المال. واتجهت إلى تحقيق وحدة المغرب العربي. وصيانة هذه الوحدة من المخربين الذين كانوا يغيرون على إفريقيا. ويعيشون فيها فسادا. ورحبت بالعلماء والأدباء الذين كانوا يهاجرون منها إلى داخل المغرب. فيقطنون بفاس وطنجة وسبتة واغمات وتلمسان وغيرها من المدن المغربية حيث أصبحت هذه المدن تعج بالنخبة المهاجرة المثقفة التي تنشر المعرفة. والفضيلة والدين الصحيح.

فعم المجتمع المغربي كثير من الإطمئنان واستبشر العلماء خيرا بهذا العهد الجديد. حتى أن الإمام ابن العربي المعافري. عبر عن إعجابه بهذه الدولة قائلا ما معناه : (إن هذه الدولة المرابطية لم تقم إلا لنصرة الحق والفضيلة وان العالم الإسلامي لم يشهد بعد عهد الصحابة الكرام مثلها.

إخلاص المترجم له للمرابطين :

في هذا الجو من الرضى عن المرابطين نشأ مترجمنا وكل الذي رآه في الحياة المغربية الجديدة جعله متعلقا بالمرابطين. مخلصا لهم كل الإخلاص وفيا لهم كل الوفاء ملتزما بالبيعة التي في عنقه لأمرائهم.

ولذلك فإنه لما قام الموحدون تحت زعامة المهدي بن تومرت يدعون لأنفسهم أعلن بأنهم فئة باغية معتدية. تجب محاربتها وعدم الركون إليها والولاء لها مظهرا سخطه على تصرفاتهم. وحربه لمعتقداتهم. متزعما في سبتة مقاومتهم وشدة النكير عليهم.

وهكذا فإن عبد المومن لما عزم على الدخول إلى سبتة وإدخالها في طاعته وجد معارضة قوية منها تحت قيادة الفقيه (عياض) فلم تستسلم له نهائيا إلا في المرة الثانية بعد ما غلبت على أمرها.

ما كان يأخذه على الموحدين :

فماذا كان يأخذه القاضي عياض على الموحدين حتى اندفع الى محاربتهم لقد أشرت إلى أنه كان وفيا لبيعة المرابطين. ملتزما طاعتهم والولاء لهم. باعتبارهم الولاة الشرعيين للمغرب. والمصلحين الذين دانوا بأفكار صائبة لإصلاح المجتمع المغربي. استمدوها من السنة والكتاب. وما عليه الأئمة الأعلام. وبالإضافة إلى ذلك كان يرى أن بعض النظريات التي أتى بها هؤلاء. نظريات فاسدة خاطئة. تجب مقاومتها. وعدم الإقرار بها كيفما كانت الظروف. فالمهدي الموحدي قال بعصمة (الإمام) والعلم بالمغيبات وادعى المهدوية . وإنه الإمام المعصوم الذي لا يجوز عليه الخطأ. وأن الذين يشكون في ذلك أو يتمارون فيه. كفار مارقون. وزنادقة مرفوضون. والقاضي (عياض) كعالم سني لا يقول بالعصمة إلا للأنبياء. ولا يسلم بالإطلاع على الغيب إلا لخالق الأرض والسموات. فالادعاء الذي ادعاه المهدي بن تومرت ضلال وبهتان تجب محاربته. والأفكار والمبادىء التي أتى بها تتنافى مع حقائق الإسلام.

المترجم له يتزعم إثارة الجمهور ضد الموحدين :

وهكذا قام مترجمنا يصدع بالأمر، ويثير الجمهور السبتي، ويدعو إلى العصيان العملي، وهكذا يثبت (عياض) أنه ليس من أولئك العلماء الذين يلبسون لكل حالة لبوسها، فيركنون إلى الولاة مهما كانت إدعاءاتهم وينقضون المواثيق التي أقسموا عليها، والمبادىء التي دانوا بها.

إنها صفحة مشرقة في تاريخ علمائنا الأعلام العاملين، يقفها العالم (عياض) ابتغاء وجه الحق، ومرضاة للضمير، وتقديرا للمهمة التي طوق الله بها العلماء والتي استحقوا بها أن يكونوا ورثة الأنبياء.

لقد انتصر الموحدون في الأخير على المرابطين، ولكن تبين لولاتهم اللاحقين صدق ما قام به القاضي (عياض) من محاربة للأفكار والمبادىء التي كانوا يدعون إليها والتي بنى (ابن تومرت) عليها مذهبيته، فإن يعقوب المنصور صار يتراجع عن تلك النظريات في أخريات حياته، ثم أتى من بعده ولده المامون فألغى ادعاء المهدوية، وقاوم مقاومة لا هوادة فيها كل عبارات التنويه والتقديس التي كانوا يصفون بها المهدي، ورجع لنظرية السنة والجماعة وماكان يقول به علماء المغرب الأعلام أمثال مترجمنا عياض رحمه الله.

ولكن هذا لا يقع إلا بعد أن يكون (مترجمنا) قد نال الكثير من الأذى والمكروه، بسبب الموقف الشجاع الذي وقفه ضدا على المبادىء الفاسدة والتعاليم التي ما أنزل الله بها من سلطان.

الموحدون ينفون المترجم له من سبتة :

فلقد قرر الموحدون إبعاده عن موطنه، ونفيه من بلدته (سبتة) إلى مدينة (مراكش) التي استقر فيها منفيا إلى أن وافاه الأجل المحتوم فلحق بربه راضيا مرضيا ودفن في تربتها، معطيا الدرس لمن سيزور قبره من العلماء، أن وظيفة العالم تفرض عليه أن يصارح بالحقيقة، ويدافع عن الحق، وان تحمل في ذلك

النفي والابعاد والأذى. ولقد جاء في كتاب (التعريف) أنه كان يقول لمواطنيه عند وداعهم بسبتة : (جعلني الله فداءكم)، ويبكي رحمه الله.

الموحدون يحرقون الكتب الفقهية :

إن الموقف الذي وقفه القاضي (عياض) وعلماء المالكية قاطبة، من قيام الدولة الموحدية، جعلت عبد المومن الموحدي ومن أتى بعده من الأمراء يشهر الحرب عليهم، ويتهمونهم بكثير من الإتهامات ثم يأمرون بإحراق كتبهم وإلزام الطلبة بقراءة الحديث والأخذ عنه مباشرة. فلقد روي المراكشي أن علم الفروع انقطع في أيام يعقوب المنصور الموحدي وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب، بعد أن جرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها. ثم يقول صاحب المعجب : (لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة (فاس) يؤتى منها بالأحمال، فتوضع ويطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس ويترك الاشتغال بعلم الراي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة (9).

صلابة القاضي عياض في الحق :

من خلال المواقف التي كان يقفها عياض في حياته، سواء وهو عالم يعطى الدروس المتنوعة، أو وهو قاض يحكم في القضايا ويفصل في الأحكام أو عندما يرى انحرافا في تسيير شؤون الدولة أو انزلاقا عن المبادىء السنية التي آمن بها ودعا إليها، من خلال ذلك كله ندرك أن شخصية مترجمنا كانت شخصية بارزة في تحمل مسؤوليتها كعالم مسلم يقدر الأمانة التي حمله الله إياها، والإرث الذي

---

(9) المعجب ص 170 طبعة سلا.

ورثه عن الأنبياء والمرسلين. كما ندرك أن علماءنا العاملين الأعلام. كانوا يقومون بواجبهم الأكبر في الحفاظ على المقدسات والقيم والمبادىء التي جاء بها الاسلام وأن إيمانهم برسالتهم لم يكن يصدهم عنه أي عائق مهما كانت صعوبته. وهذا ماكان يلمسه المواطنون من أفراد الشعب. فيزيدهم تقديرا على تقديرهم. ومحبة فوق محبتهم. وهذا ما أغاظ دعاة الموحدين لدى قيام دولتهم. حيث أدركوا أنهم وأن استعملوا جميع الوسائل للاستيلاء والسيطرة فإن عواطف الشعب بقيت مائلة إلى الفقهاء والعلماء الذين كانوا يساندون الدولة المرابطية. الأمر الذي دفع بهم (الموحدون) أن يرموا المرابطين ببعض الاتهامات العقائدية. مثل اتهامهم بأنهم مجسمون مشبهون في الصفات وهذا ما جعلهم يخرجون عن رشدهم. فيتهمون القاضي عياض رحمه الله ببعض الاتهامات ويرمونه بدوره ببعض الأوصاف البالغة حد النذالة. مما جعل الكثيرين يعتقدون أن وفاة (عياض) كانت مؤامرة وتدبيرا دبره الموحدون. فلقد كان المغاربة يقولون : (سم ابن العربي وخنق اليحصبي).

(فمن نوادر أخباره التي تدل على صلابته في الحق. وتطبيقه أوامر الشرع. ما وقع له مع الفتح بن خاقان. فلقد ورد أنه (قصد إلى مجلس قضائه مخمرا. فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر. فأعلم بذلك. فأمر به فاستثبت في استنكاهه. وحده حدا تاما) ثم بعث له بعد ذلك ثمانية دنانير وعمامة (10).

وصلابة (عياض) مع الحق. ودفاعه وجهره بما يعتقد أنه الصواب. هما اللذان جعلاه يقف من كتاب (الأحياء) للإمام (الغزالي) الموقف المعروف فلقد أنكر على الإمام الغزالي رحمه الله مواقفه الصوفية. وتعرضه للكشف وما بناه على ذلك من نتائج وأحكام. وكان يقول : (لو اقتصر فيه على العلم الخالص لكان كتابا مفيدا) وحادث إحراق كتاب (الأحياء) أخذ حيزا من اهتمامات الكتاب والمؤرخين لا نتعرض لها هنا.

---

10) التعريف ص 112.

مكانته من القضاء :

لقد أشرت إلى أن (عياض) نال الإعتبار والتقدير. سواء كعالم ملتزم مناضل عن المبادىء السنية التي أمن بها أو وهو قاض يفصل في القضايا والأحكام. فلقد تحدث كثير من المؤرخين (أن القاضي عياض لما ولى قضاء بلده، كانت الخاصة والعامة على غاية من محبته واجلاله واكباره، وكان له من الهيبة والجلالة عند الأمراء والولاة. ما جعلهم يقبلون قوله. حين يطالبهم بأداء حق من حقوق الرعية. ويتنافسون في قضاء حقه والقيام بواجبه) وعندما ترجم له صاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس الشيخ النباهي المالقي أثبت ما قاله ابن بشكوال في صلته قال : (وهو من أهل اليقين في العلم والذكاء واليقظة والفهم. واستقضى ببلده مدة طويلة. فحمدت سيرته فيها. ثم تولى عنها إلى قضاء غرناطة. فلم يطل أمده بها. وقدم علينا من قرطبة في ربيع الآخر سنة 531 وأخذنا عنه بعض ما عنده).

ولدى أبعاد (عياض) من سبتة إلى داخل المغرب في عهد الموحدين تولى منصب القضاء بمدينة (داي) قرب تادلا فبقي بها مدة قبل أن ينتقل إلى مراكش ليستقر بها حيث يوافيه أجله المحتوم في سابع جمادى الأخيرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية. فدفن بمكان خارج باب (إيلان) وضريحه مشهور بمدينة مراكش. يزار للترحم عليه والدعاء له.

لقد عاش الفقيه القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله. مكافحا عن أفكاره ومبادئه. ولقي ربه وهو مبعد من أجلها. فأكد أنه الفقيه الملتزم لما يعتقد. المستميت في سبيل الذود عن هذه المعتقدات.

وكل ذلك اكتسبه من الأخلاق التي تربى عليها. والدين المتين الذي تكون عليه. فلقد كان رحمه الله عميق التدين. كثير الصوم. قواما لليل تاليا للقرآن. خصوصا في الهزيع الأخير من الليل. قال الذين تحدثوا عن سيرته أنه لم يترك تلاوة القرآن في أية حالة. وأن هذا التدين المتين كان له الأثر العميق في سيرته وتصرفاته مع الناس أجمعين. فلقد كان كثير التواضع يخالط كل الطبقات

لاجتماعية. ويقبل على الطبقات المستضعفة يتفقد أحوالها وينفق مما أفاء اللـه عليه من أجلها. ويعاملها باللين والملاطفة. ويؤثرها بما ورثه عن أبيه. وما حصل عليه من مكاسب حلال. ولقد حكى ولده أنه توفي وهو مدين لغيره بخمسمائة دينار. رغم ماكان عليه من يسر الحال.

اهتم بطلبة العلم. فعلمهم وواساهم وأحسن إليهم. وحضهم على الجدية والاجتهاد. وأعطاهم المثل من نفسه. في أن تعاطى الواجبات الدينية والإجتماعية لا يمكن أن يصرف العالم عن علمه وإفادة غيره. واهتم بالتأليف فزادت تآليفه عن الثلاثين. منها المطبوع ومنها ما لم يتح للكثيرين الإطلاع عليه ومنها المفقود بالكلية ومن أشهر ما ألفه :

1) ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى (مطبوع)

2) ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (مطبوع)

3) ـ التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة «عشرة أجزاء (مخطوط)

4) ـ الاعلام بحدود قواعد الإسلام (مطبوع)

5) ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار (وهو من أحسن ما خلف) (مطبوع)

6) ـ العيون الستة في أخبار سبتة (مفقود)

7) ـ بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد (مطبوع)

8) ـ تاريخ المرابطين (مفقود)

9) ـ مطامع الأحكام في شرح الأحكام (مفقود)

10) ـ الاكمال (عدة مجلدات) (مخطوط)

لقد كانت حياة أبي الفضل (عياض) كلها عمل وتأليف ودرس ونضال وعبادة وستبقى سيرته مثالا يحتذا كما سيبقى ذكره وعلمه مفخرة للمغرب والمغاربة.

ولعل الأقدمين كانوا على حق عندما قالوا : (لولا عياض ما ذكر المغرب فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه خيرا على ما قدم من معروف. وما نشر من علم وما كافح للدفاع عن العقيدة والمثل العليا.

موقف القاضي عياض
من الإمام الغزالي

الأستاذ : حسن السايح

بسم الله الرحمن الرحيم

موقف القاضي عياض من الإمام الغزالي

كان على المذهب السني المالكي في المغرب أن يواجه الفكر الفلسفي الذي أخذ ينتشر في الأندلس والمغرب بعد ظهوره في المشرق على يد فلاسفة الإسلام الذين استوعبوا الفلسفة اليونانية. وخيل إليهم أنهم وافقوا بينها وبين الدين. مع أنها ظلت تحمل بذور الشك والإلحاد الوهمية لم تستطع فهم الكون والماورائية بمعرفة ثابتة.. كما كان عليه أن يواجه (التصرف) الذي أخذ بدوره يغزو العالم الإسلامي بمذاهبه المتعددة..

والواقع أن شمولية الإسلام واستيعابه لكل قضايا الإنسان سواء باعتباره فردا إذا كان شخصية خصوصية. أو باعتباره عضوا مهما في بناء المجتمع. كما أن الحقيقة الإسلامية التي تعتمد أساسا في مصدرها الأول على الوحي الإلهي وتفتح المجال للعقل والوجدان ليتفتحا في مجال إنساني هادف إلى الخير والعروج إلى الكمال.. كل ذلك جعل الفلسفة والتصرف ينحصران في عالم الإسلام في دائرة ضيقة. فبقيت الفلسفة أحيانا تحاول التوفيق بين الدين والفلسفة. وأحيانا اعطاء تفسيرات جزئية لقضايا ميتا فيزيقية. ولهذا فقد رفض المسلمون الفلسفة واعتبروها لا تفيد عالم المسلمين الواقعي المعتمد على تعاليم الاهية خالدة يحتكون إليها في حياتهم. ويرجعون إليها في تفسير الوجود والخير والحق. وكل المعاني الكلية التي حاولت الفلسفة أن تخوضها بمنهجها العقلاني الصرف.

ولهذا فقد رفض المفكرون السنيون الفلسفة، ولم يرفضوا معلوماتها التراكيبية الواقعية. وإنما رفضوا التصور الإيديولوجي في الفلسفة اليونانية التي قادت الفكر إلى مفهومات خاطئة.. فأخذ علماء السنة يوجهون الفلسفة وما تستند عليه من علوم كالمنطق بالنقد العنيف حتى شاعت الكلمة المشهورة «من تنطق فقد تزندق». كما لاحظوا ما في الفيلسوف من إغراق في التأمل والعزلة الاجتماعية فقالوا عنها أنها (علم لا ينفع)، وكذلك هاجموا الفيلسوف نفسه لأنه كان يجهر بآراء تصدم المجتمع وتفسد وحدته فقالوا عنها (حكمة مشوبة بالكفر) وكان الفيلسوف في ذلك العصر يتناول كل المعارف بالنقد قصد تحليلها وتركيبها والحكم عليها. فكان من رأي علماء السنة أن من يعتني بدراسة الفلسفة فهو مغمور في عقيدته، منهم في دينه وليس ينجيه من هذا الاتهام أن يكون ثقة في العلوم الشرعية.

أما التصرف فقد كانت مواجهته أكثر صعوبة وتعقدا لأن مذاهبه متداخلة يلتبس بعضها ببعض فمن التصرف من يوافق الخط السني وينحدر في تعاليمه عن الزهد النبوي، ومنه من يغرق في الأخذ عن الإفلاطونية واللغوسية والنرافانا البودية. لذلك فقد كان على السنيين أن يواجهوا أصنافه بكثير من الوعي والتشخيص ليظلوا في المحجة الإسلامية. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان للتصرف الإسلامي دور اجتماعي تكلم عنه (مانسيون) بأسهاب في كتابه.

بحث في نشأة المصطلح الفني لـ التصوف الإسلامي :

كما أن النزعة الإنسانية العالمية في التصوف الإسلامي التي نادى بها البسطامي. وابن عربي جعل التصوف المتطرف يخضع لتأثيرات إيرانية على يد السهروردي، والتأثير المسيحي والعبراني واليوناني الذي يعود إلى هرمس كما ورد ذلك في شرح الرسالة القشيرية. على أنه لا ينكر السنيون التصوف الإسلامي الذي نشأ عن التأمل المتواصل في القرآن الكريم والحديث النبوي والذي دعا إليه المحاسبي والجنيد، والذي أقره السنيون وساروا عليه. وقد كان ابن تيمية من علماء السنة الذين فرقوا بين أصناف التصوف وأقروا منها ما يوافق السنة كما كان الشيخ

رروق محتسب الصوفية الذي تتبع أعمال الصوفية وأقر منهم من كان على الطريق سليم.

لقد كان (الغزالي) المتوفى سنة (505 هـ) (1111 م) من الذين تمرسوا بالفلسفة واعرضوا وخاض التصوف. وأدرك كنهه وانتقد غلطات الصوفية في كتابه (المنقذ من الضلال) و(المقصد الأسنى).

على أن الغزالي في كتابه الأحياء حاول جاهدا أن يضع أسسا للتصوف السني فجاء القاضي عياض لينقد أراء الغزالي ويحاول كشف أرائه على المجتمع الإسلامي. وقبل القاضي عياض. اتخذ ابن العربي وهو من شيوخ عياض موقفا من أحياء الغزالي.

ويقول ابن العربي في كتابه (معرفة الرب)، حيث يذكر أقسام النفس الثلاثة ، الأمارة اللوامة، المطمئنة. ويشرح وظيفة كل منها، وما قد يحدث بين النفس والجسد من المنازعات ويشير إلى الآيات الواردة في النفس والقلب والجوارح. ويذكر وجوها من التاويل. ويهاجم الفلاسفة والصوفية في تعريفاتهم للروح. وكلاهما يعلق على مذهب الحلولية. الذي يلتقي مع مذهب النصارى في اعتقادهم في عيسى.

ويعجب ابن العربي من الغزالي الذي حكى هذا القول، وشاركهم الرأي بأن الروح حادث يفنى كما يفني الجسد. وهو إلى ذلك لا يشاطر أستاذه الغزالي القول بأن الروح جوهر. بل المختار ـ عنده ـ أنه عرض لا جوهر. ووصف غير موصوف.

ورغم أن ابن العربي موصول السند الغزالي فابن العربي تتلمذ له أبو الحسن بن حرزهم وأبو يعزى يلنور وأخرون. ولبسوا عنه المرقعة. كما لبسها هو شيخه (الغزالي). قال أبو الحسن بن حرزهم ، (ألبسني القاضي أبو بكر بن العربي قال ألبسني أبو حامد الغزالي. قال ، ألبسني إمام الحرمين أبو المعالي عن أبي طالب مكي. عن أبي القاسم الجنيدي. عن السري السقطي. عن معروف الكرخي. إلى أخر السلسلة وقد أوردوها بسندهم المتصل.

ورغم أن ابن العربي تتلمذ لشيوخ التصوف كالغزالي وأضرابه. وصحب العباد والزهاد. وفضل العزلة. فقد كان سنيا لا يحيد عن الشريعة قيد أنملة. وتصوفه زهد وعمل وبقوله في كتابه «سراج المهتدين» أنه حذا فيه حذو القضاعي في «الشهاب» في المواعيظ والآداب. وقد صدره بأحاديث قدسية. وحكم نبوية. آثر أن تكون من صحيح الحديث المستقيم. لا من واهية السقيم على حد تعبيره.

وكان ابن العربى من تلاميذ الغزالي معجبا به أيما إعجاب. وجاء في العواصم والقواصم أن ابن العربي تتلمذ على الغزالي بعد تجرد. وراض نفسه على طريق القوم. فسمع عليه كتاب «الأحياء» وقال له في لفظه وكتب إليه بخطه : «... أن القلب إذا تطهر من علاقة البدن المحسوس وتجرد للمعقول. وتكشفت له الحقائق. وهي أمور لا تدرك إلا بالتجربة لها عند أربابها بالكون معهم. والصحبة لهم ...»

ويقول ابن العربي من أول لقاء له بأبي حامد ببغداد : فمشينا إليه. وعرضنا أمنيتنا عليه. وقلت له : أنت ضالتنا التي كنا ننشد. وإمامنا الذي به نسترشد. فلقينا لقاء المعرفة. وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة... فلما طلع ذلك النور. وتجلى ما كان تغشانا من الديجور. قلت : هذا مطلوبي حقا. هذا بأمانة الله منتهى السالكين وغاية الطالبين...».

وانتقد ابن العربي كثيرا من آراء الصوفية. كنظريتهم في المعرفة. وفي الفيض أو الأشواق. كما انتقد منهجهم في التأويل. وشدد النقد على التفسير الإشاري. الذي اعتبروه الأساس في تأويل القرآن وما يدعى بالعشق الهي وأخيرا هاجم شيخه الغزالي بقوله : «... فلما وعيت هذا سماعا وكتابة عنه وقراءة. رجعت إليه متأملا بصادق البصيرة. وعرضته على قواعد النظر في المعقول. ونظرت في أفراده ثم جمعه.. وبعد النظر الطويل الذي هذه إشارته. خرجت عن هذه الغمرة التي أوجبها استرسال مثله في هذه الألفاظ القلقة التي لا يصح أن يكون فيها إذن لأحد ليذكرها. فضلا عن أن يحققها ويسطرها. وهي أغلاط غالبة على الفوائد ومعاني حائدة عن سنن السداد «كما في قانون التأويل. وانتقد ابن

عربي كتاب «معيار العلم» للغزالي بقوله أنه أدخل فيه أغراضا صوفية. فيها غلو وإفراط. وتطاول على الشرع كما في العواصم.

كما أن الغزالي حاول التمييز بين الدنيويات والأخرويات في كتابة (إحياء علوم الدين) وأشار الغزالي إلى الفصل بين الدين والدولة في قوله بالتمييز بين الدنيويات والأخرويات وبين الزمنيات والأبديات.

والغزالي قام بتفصيل بين ما يمكن للدولة أن تتدخل فيه وبين مالا يمكن أن تناله وأثبت الغزالي ذلك بالجمع بين النصوص التي تتناول الروحيات والنصوص التي تتناول الدنيويات.

ولا شك أن فكرة الفصل بين الدولة والدين غير إسلامية. وهي من التأثير المسيحي الذي اتبعه بعض المقلدين للمغرب في الأنظمة السياسية كالدكتور حسن صعب في كتابه (الإسلام وتحديات العصر) والدكتور على عبد الرزاق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم)... وإن كان القاضي عياض لم يشر إلى ذلك في نقده للغزالية. لأن أفكار الغزالي في هذا الموضوع لم تكن مثارة إطلاقا في عصر الخلفاء...

لقد كان ابن العربي والقاضي من المبايعين للمرابطين والداعين لدعوتهم والمقربين لحكمهم. فلما سقطت دولة المرابطين. ظل القاضي عياض على بيعته. أما ابن العربي فقد بادر إلى تقديم الولاء على وفد من الأندلسيين. ولما وصل الوفد مراكش وجدوا عبد المومن منشغلا بمحاربة محمد بن هود الماسي. ثم قبائل بغرواطة. فانتظروه نحو عام أو أزيد. وسلموا عليه سلام الجماعة في عيد الأضحى من سنة (542 هـ) ثم أذن بمقابلتهم. فتقدموا للسلام عليه. وألقى أبو بكر بن العربي خطبة بليغة كانت محل استحسان من عبد المومن وتلاه أبو بكر بن الجد. ثم قام أبو الحسن بن صاحب الصلاة. خطيبا ناثرا وناظما ثم قدموا إليه بيعة أهل اشبيلية بخطوطهم. فشكرهم واستحسن بيعهم. وفي الحلل الموشية. والمؤنس في أخبار تونس أن عبد المومن سأل أبا بكر بن العربي ، هل رأى المهدي أو لقيه بمجلس الغزالي ببغداد وماذا قال له ؟ فكان جواب ابن العربي ، أنه لم

يلقه. ولكنه سمع به. وأن الغزالي قال لابد أنه سيظهر وربما كان عبد المومن ينتظر منه أن يقول : أنه لقيه بمجلس الغزالي... ليؤكد ما ورد عن الغزالي من أنه دعا على المرابطين بزوال ملكهم لما بلغه من احراقهم لكتابه (الأحياء. وكان ذلك بمحضر السعدي وأنه قال له : أن ذلك سيكون على يده لكم جواب أبي بكر كان مبهما. وغير مقنع وكل ما هناك أنه سمع كما سمع الناس.

كان ابن العربي كما كان القاضي عياض من المخلصين لدولة المرابطين ملزما لدعوتهم وقد كتب والد ابن العربي رسالة إلى الخليفة المتظهر بالله (رجب 590) وأصدر الخليفة مرسوما يتضمن التقليد الرسمي للأمير يوسف بن تاشفين وكتب كذلك ابن جهير مرسوما يوصى ابن تاشفين بابن العربي وولده أبي بكر.

كما كتب الغزالي رسالة للأمير ابن تاشفين يحثه على التمسك بالعدل والسير على نهجه وقد عزم على زيارته. وللغزالي فتوى في شأن الذين ثاروا على ابن تاشفين وقالوا لا تجب طاعته لأنه ليس من قريش ولأنه عهد من الخليفة وأيد الطرطوش هذه الفتوى.

أما القاضي عياض فكان ذا دراية واسعة بعلوم القرآن والحديث والفقه. ومعرفة تامة بأصول الفقه وعلم الكلام والجدل والمناظرة والمنطق ومعرفة كاملة بالمتكلمين وبالأخص الأشاعرة وله مناقشة معمقة لآراء المعتزلة والفلاسفة والصوفية والخوارج... ولما جاءت دولة الموحدين ودعا ابن تومرت إلى عقيدة تمس المذهب السني الشيء الذي اتفق عليه المغاربة بعد جهد وتقلب بين المذاهب. وكان مذهب الموحدين الذي روج له ابن تومرت يدعو إلى عصمة الإمام الذي كانت دعوته شعبية. وكان الإمام الغزالي من أنصار الموحدين والداعي على دولة المرابطين بالأفول كما كان لكتابه الإحياء موقف سلبي من الاشتغال بالعلوم الإسلامية باستثناء التصوف وإقرار بعلوم (المكاشفة) وما تنبني عليها من قواعد وأحكام.

وكان الأحياء للغزالي منتشرا في المغرب رغم مصادرة المرابطين له كما كان ما كتبه محمد التغليبي في رده على الغزالي وموقف المازري من كتاب لإحياء معروفا أيضا ثم ابن القاضي عياض وهو من المخلصين للمرابطين والتزامهم بالمذهب السني ومن المقاومين لكتب الغزالي ولهذا فقد يقول لو اختصر الغزالي الأحياء واقتصر فيه على العلم الخالص لكان كتابا مفيدا. وهو يعني بغير الخالص (علم المكاشفة).

ويروي ابن العماد في الشذرات والشعراني في الطبقات أن عياضا كان يرى بوجوب حرق كتاب الأحياء للغزالي. وفي كتاب (الشفا) نقد عنيف للغزالي وصوفيته.

والعجب أن (ندوة بوردو) الاستشرافية التي حاولت دراسة موضوع سبب انهيار العالم الإسلامي التي أدانت الغزالي باعتباره فيلسوفا قاد العالم الإسلامي إلى السلبية والإنهزامية ولولا خشية الإطالة لترجمنا الكثير من فصول الندوة ورأيها في تصوف الغزالي الذي أضعف قوة الجهاد في العالم الإسلامي بسبب سلبية تصوفه والحقيقة أن أراء المهدي بن تومرت في عصمة الإمام وعدم صدور المعصية عنه. وعدم جواز سهوه في الدين. ومعرفته بضمائر الناس كلها أراء تصادم السنة التي لا تقر العصمة إلا للأنبياء. ولا تقول بقدرة على معرفة الغيب إلا للخالق... وقد وقف المرابطون موقفا حازما من الأحياء. فلما سقطت دولة المرابطين وروج الموحدون لهذه الأراء ظهر ذلك في انحدار الجناح الغربي للعالم الإسلامي إلى الإنهيار. ومحاولة الموحدين في أخر الأمر بالرجوع عن دعوة المهدي بن تومرت المفروضة بالقوة والحيلة.

ولهذا فقد ثارت سبتة. في وجه الموحدين بقيادة القاضي عياض ولم يتنازل القاضي عياض عن (سنيته) فغرب عن سبتة إلى مدينة (الداي) حيث توفي ودفن بعد ذلك بمراكش سنة 544. وزعم أنصار الموحدين أن الغزالي بلغه رأي عياض في كتبه فدعا عليه. ومات فجأة في الحمام يوم الدعاء عليه (كما في طبقات الشعراني) وقيل أن المهدي أمر بقتله لأجل دعوة الغزالي.

سبتة في عصر القاضي عياض

الأستاذ : عبد العزيز بنعبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

سبتة في عصر القاضي عياض

إن الكشف عن تاريخ بلد ما يستلزم التعرف على مجالات جوهرية تتصل خاصة بمعطيات الفكر والإقتصاد والإجتماع وهي أهم العناصر الحضارية التي تشكل بنية أو هيكل مجتمع من المجتمعات. وقد نحاول عبثا استشفاف هاته المفومات مجموعة في بعض كتب التاريخ فلا نجد منها إلا نتفا مبعثرة لا ترتسم فيها صورة متكاملة عن الوجه الحضاري الصحيح فلذلك انكب الباحثون ـ وخاصة في المغرب ـ على استخلاص العناصر التكوينية لذاتيتنا وكياننا من كتب التراث سواء منها الفقهية من نوازل وفتاوى إلى رسائل السير والتراجم والمناقب لما قد تحتوي عليه من سمات واشارات حية من خلال المجريات الفردية أو الأحداث الجماعية وتنطبق هذه الظاهرة على عصر القاضي عياض الذي لم تصلنا المؤلفات التي أفردها لتاريخ (سبتة) والتي منها :

1) ـ (الجامع في التاريخ في أخبار ملوك المغرب والأندلس وخاصة سبتة) أشار إليه عياض نفسه في ترجمة عبد الله بن ياسين كما أشار إليه غيره (1) على أنه هو نفس (تاريخ المرابطين) الذي انتهى فيه إلى عام (540 هـ) مستوعبا أخبار (سبتة) ورجالها ومجرياتها).

1) الذهبي في تذكرة الحفاظ ج 4 ص 97 نقلا عن تلميذ عياض محمد بن حمادة البرنسي السبتي (أزهار الرياض ج 2 ص 239).

2) ـ (العيون الستة في أخبار سبتة) (2) لم يكمل غير أن هنالك رسائل ودراسات أخرى من بين المفقودات هي مظنة لاحتواء معلومات هامة عن بعض مظاهر الحياة الإجتماعية والإقتصادية في (سبتة) مثل :

1) ـ كتاب خطبه (سفر).

2) ـ (مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور) (جزء).

3) ـ (المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان).

4) ـ (الأجوبة المحبرة على الأسئلة المتخيرة).

5) ـ (سر السراة في آداب القضاة).

6) ـ (مذاهب الحكام في نوازل الأحكام) (3) لمحمد بن عياض ولعله أقدم وثيقة حول النوازل بالمغرب بعد «نوازل القرويين» (بالقيروان) ونوازل ابن رشد الجد وابن الحاج القرطبي وتعطينا صورة عن جوانب كثيرة من تاريخ المغرب الإجتماعي والإقتصادي وبالرغم عن كون جامعها هو ولد القاضي فإن الأصل هو بطائق جمعها عياض نفسه تحت عنوان (أجوبة القرطبيين) أدرج فيها بعض النوازل التي اعترضته في مدة قضائه وقد وصف القاضي عياض من خلال النوازل والفتاوى مجالات مختلفة تشكل مدونة العمل السبتي (4) كابتكار رائد للعمل الفاسي والعمل الرباطي والعمل السوسي والعمل التطواني (5) كما تضيف معطيات لا تستوعبها عادة كتب التاريخ فهي لا تعوض ما ضاع من المصنفات

---

2) هذا هو عنوان اسمه حسب (كشف الظنون) ج 2 ص 1186 و (هدية العارفين) (ج 1 ص 805) وسماه صاحب (الاحاطة) (ص 183) لفنون الستة) وكذلك ولده في التعريف (ص 133) والمقري في (أزهار الرياض) (ج 2 ص 239).

3) توجد نسخة في الخزانة الملكية بالرباط خم 4042 (78 ورقة)

4) ربما اقتبسه هو نفسه من (العمل القرطبي) ودونه في (أجوبة القرطبيين) التي جمعها ولده مع أجوبة غير القرطبيين.

5) الفقيه (الحايك) من أولاد الحايك أشراف من دسكرة أولاد (بني صالح) قرب تطوان له (نوازل في الأحكام الشرعية بتطوان) أدمجها سيدي (المهدي الوزاني) الفاسي في نوازله الصغرى وطبعت في المطبعة، العامة في أربعة أجزاء استنسخها منه وأضافها الى نوازله وهو يحكي عنه باسم (الحايك).

تاريخية للقاضي عياض فحسب بل هي مكملة ومحققة للشمولية المتوخاة في مثل هذا المجال ويتجلى ذلك في (أجوبته فيما نزل في أيام قضائه من نوازل الأحكام) (6) أو في (الأجوبة المحبرة عن المسائل المتخيرة) (7) وهي معان شاذة فيما أجاب عنه القاضي من مسائل تتبلور فيها بعض الجوانب الخاصة التي تلقي ضوءا زائدا على الخلفيات القائمة في اللوحة وقد برزت خلفيات أخرى في كتابه (التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة) والمختلطة (8) و(مطامح الأفهام في شرح الأحكام) (9).

وكانت النوازل تشمل الأبواب التي احتواها (كتاب التعريف) من أقضية وشهادات ودعاوى وأيمان وحدود وجنايات وأزيد من أربعين بابا آخر نجد فيها فتاوى وأجوبة للقاضي عياض وابن رشد الجد وابن سهل وابن أبي زيد القيرواني وابن الحاج القرطبي ونوازل القرويين وهي فذلكة يمكن أن نستخلص منها جوانب ظلت في الغالب غامضة في ثنايا التاريخ المغربي وفي (كتاب التعريف) معلومات شيقة طرية حول العلائق التجارية برا وبحرا مع مدن مغربية وأندلسية في عصر القاضي عياض على أن القاضي عياضا لم يغفل بعض مجالي الحياة في سبتة عند ترجمة لشيوخه المائة في (الغنية) (10) «والمعجم في شيوخ ابن سكرة» (11) فقد أشار إلى كثير من أحوالهم ومن هؤلاء الشيوخ أبو الوليد ابن رشد الجد

---

6) لم يكمله وهو جزء حسب الإحاطة (ص 183) والتعريف (ص 134) أو جزءان تبعا لرواية المقري (أزهار الرياض ج 2 ص 239)

7) لم يكمله عياض وضمه ولده (التعريف ص 133) إلى بطالق أبيه.

8) قدره ولده بعشرة أجزاء حل فيه ألفاظ المدونة ومشكلاتها ورواياتها.

9) ذكره في (كشف الظنون) (ج 2 ص 1718) وفي هدية العارفين (ج 1 ص 805).

10) فهرسة في اصطلاح الحديث وسماعه (مكتبة مدريد 307 / نسخة بالخزانة الأحمدية السودية بفاس / الخزانة العامة بالرباط (خع 1807) (132 ص) (خع 1732) (158 ص / خزانة القرويين 1732) وتوجد فهرسة لعياض في مكتبة الكلاوي وللقاضي أيضا (غنية الكاتب وبغية الطالب) في التصدير والتذييل وفهرسة أخرى هي (الالماع في ضبط الرواية وتقييد السماع) (الاسكوريال / أيا صوفيا).

11) هو حسين بن محمد الصدفي قاضي مرسية (514هـ / 1120م).

ومحمد بن أحمد بن خلف التجيبي الشهير بابن الحاج قاضي قرطبة (صاحب نوازل الأحكام) وأبو بكر بن العربي المعافري وأبو بكر بن عطية وعبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي وأبو علي الجياني حسين بن محمد الغساني رئيس المحدثين بقرطبة وهو صاحب (تقييد المهمل وتمييز المشكل في رجال الصحيحين) وأبو علي الصدفي وهشام بن أحمد الهلالي المعروف بابن بقوى (وهو من حفاظ الحديث المعتنين بالتنقير عن معانيه واستخراج الفقه منه توفي عام 530 هـ) وابن شبرين محمد بن عبد الرحمن ومن شيوخ عياض الذين أجازوه أبو بكر الطرطوشي (صاحب مختصر تفسير الثعالبي) ومحمد بن علي المازري (من صقلية) وأبو الطاهر السلفي إمام المحدثين إلخ (12).

وقد انتشرت معلومات شيقة عن (سبتة) في ثنايا ما كتبه القاضي عياض وولده من غر كتب التاريخ أو ما صدر من تعاليق وشروح على تصانيفهما أو ما ورد في مصنفات لاحقة ربما اقتبست من الأصل المفقود. ومن هذه المعطيات التي تملأ بعض اللبنات الشاغرة والحلقات المفقودة في هذا الهيكل ما ترويه من أن عياضا بنى في (سبتة) الزيادة الغربية في جامعها (الذى شاده شيخه القاضي محمد بن عيسى بأمر من يوسف بن تاشفين وزيد فيه إلى أن أشرف على البحر) (13) وكذلك الرابطة المشهورة بجبل الميناء (14) كما أشرف على إنشاء طالع سبتة المعروف بالناظور (15) و(المينة) مدينة قرب سبتة بنيت أسوارها في أعلى (جبل الميناء) في عهد محمد بن أبي عامر وظلت خالية لعجز أهل سبتة عن الإنتقال إليها (16). والمينا هي غير الميناء أو المرسى التي كانت جزءا من المدينة قائما بنفسه حيث كان مضرب الميناء سوقا يتخذها (حاكم الميناء) لبيع

---

12 (أزهار الرياض ج 3 ص 59 ـ 282 ط. وزارة الأوقاف).
13) البيان لابن عذارى ج 4 ص 58.
14) التعريف ص 10 (ط. وزارة الأوقاف).
15) (اختصار الأخبار) لأبي القاسم الأنصاري السبتي (ص 35)
16) راجع نزهة المشتاق والاستبصار

ما يستخرج من السمك ونحوه وكان للمضارب عامل ينظر في فوائدها وما تحتاج إليه من نفقة وآلة (17) وقد ظل التبادل موصولا بين ميناء سبتة وبعض مراسي المغرب حيث حدثنا ولد القاضي عياض عن أحد تجار سبتة وهو سفيان بن يعقوب بن مرو المصمودي القصري (نسبة إلى قصر مصمودة أو القصر الصغير أو قصر المجاز) كان قد أوسق عنده سليمان الصنهاجي بمرسى مازيغن (الجديدة اليوم) قمحا وشعيرا.. (18)

ولعل بحر سبتة. كانت له خواص جعلت منه مركزا اقتصاديا هاما منذ عهد القاضي عياض ولم يكن ما وصفه الأنصاري في اختصاره سوى امتداد لهذا الدور الطلائعي فإن بعض أنواع الياقوت كانت تستخلص من أعماق مياهه فهنالك مكان بسبتة يسمى (التونة) به كثير من الياقوت الأحمر وكان بساحل جبل موسى على تسعة أميال من المدينة مغطس للمرجان (19). وقد كثر الحديث في عصر القاضي عياض عن قرية (بليونش) حيث ورد أن القاضي عياضا كان له مسجد بقرية بليونش يجلس كل عشية على دكانه فيتوارد عليه طلبته (20) وتناثرت هنا وهناك إشارات عابرة تصف لنا بعض مظاهر هذه القرية التي كان لها دور كبير كمصطاف بحري للمنطقة ويلوح أن منتزهات الاصطياف هذه كانت تجلب الكثير من الناس حيث كان بعض أهل فاس يقتنون رباعا بسبتة مثل (محمد بن حماد) الذي اشترى له وكيله محمد بن حسون ببعمائة مثقال غير عشرين رباعا وبني له بنايات كثيرة دون أن يتحمل في ذلك كله أكثر من ثلاثمائة دينار وتسعين (21) وهذه المعلومة تقيم لنا الدينار الذهبي الذي كان لا يزال في العهد الموحدي قريبا من قيمته الأصلية في عهد الخلفاء الراشدين وهي أربعة

---

17) (أزهار الرياض ج 1 ص 43)

18) التعريف ص 140 وهو ملحق مقتبس من كتاب (مذاهب الحكام في نوازل الأحكام) لمؤلف التعريف.

19) أزهار الرياض ج 1 ص 35.

20) التعريف ص 108

21) ملحق التعريف (مقتطفات من مذاهب الحكام.. ص 150)

غرامات من الذهب ونيف على أن هناك أماكن شتى عرفها القاضي عياض أشار إليها أبو عبد الله في (مذاهب الحكام في نوازل الأحكام) (22) مثل مقبرة زقلو (23) ومسجد ابن الخنشية ودار ادريس بن عطاف وحومة مسجد ابن علا وجنان المساكين ودار ابن وشقون والزقاق الكبير وباب الدرب ودار الذهبلي ودار ابن الحانية ودار ورثة البطليوسي ومسجد يوسف بن أبي مسلم ودار ابن القرطبي وحمام ابن القرطبي ومقبرة السوق وسوق الحجامين وفندق أحمد بن ابراهيم الزيات وسوق الشقاقين وسوق العطارين.

وكانت روضة الشرفاء بسبتة تضم نحو ثلاثين قبراً بالجانب الشرقي من (رابطة الفصال) وهؤلاء الشرفاء من ذرية أبي الطاهر الذي خرج من جزيرة صقلية (24) ومما يدل على وجود جنان وعرصات حول الدور بسبتة رغم ضيق جنباتها ما ورد أيضا في (مذاهب الحكام في نوازل الأحكام) (25) في وصف حدود بعض الدور وأنها «ملاصقة مع الجنينة التي في ظهورهم» مع ذكر «جنان المساكين» قبلة الخ وهي من البادرات المعمارية التي عرفها المغرب طوال عصوره التاريخية حيث كان لكل دار بمختلف حواضر المغرب عرصة أو جنينة تعد جزءا من السكن يتوسطها منتزه وتشع على البيت خضرة يانعة ونقاوة هواء وسعة منظر علاوة على انعزالها كنزل للضيوف أما الخطط التي كانت سائدة في عصر عياض والتي مارسها جميعا فهي : عقد الشروط والشورى والقضاء والفتيا والأحكام والنوازل والخطبة وتسميع الحديث الخ بينما كانت أمهات القضايا العلمية تدور حول الحديث وفقهه والأصول والكلام مع حفظ مسائل مختصر ابن أبي زيد القيرواني والمدونة (26).

---

22) ملحق التعريف ص 142 ـ 144

23) مقبرة الزقلو وردت بنفس الاسم (مقبرة زكلو) في اختصار الأخبار ص 22 ـ 39 ـ 54.

24) أزهار الرياض ج 1 ص 42.

25) ملحق التعريف ص 143.

26) التعريف ص 4 و 10 وقد ولي خطة الشرطة أحد شيوخ عياض وهو أبو بكر محمد بن البراء (الفنية ص 24).

وكانت النزاهة والعدل السمتين البارزتين في شمائل أصحاب هذه الخطط إذ لما طالت مدة القاضي عياض في خطة القضاء أتلف أكثر ما ورث عن أبيه حتى احتاج إلى بيع بعض رباعه بمدينة سبتة في ثمن ضيعة اشتراها بخارج مدينة مالقة (27).

وقد ذكر أبو عبد الله في التعريف (ص 112) أن «من نوادر أخباره التي اضطره الشرع إليها إقامته حد الخمر على (الفتح بن خاقان).

وذكر أنه لما «جاز إلى الجزيرة الخضراء في زمن علي بن يوسف.. أزال ما كان بها من مظالم وقبالات» (ص 115) وهي المكوس والرسوم غير الشرعية.

٥ ٥ ٥

وقد ولد القاضي عياض بسبتة عام 476 هـ (28) وتوفي عام (544 هـ/ 1149 م) (29).

وهو مدفون بمراكش وهذا هو المعروف لدى مؤرخي المغرب وغيرهم كابن بشكوال في (الصلة) وابن الأبار في (معجم أصحاب الصدفي وابن خلكان في تاريخه وابن فرحون في طبقاته وابن الخطيب في (الإحاطة) واليفرني وابن الطيب الشرقي في فهرسته ولكن ابن خلدون ذكر في تاريخه (ج 6 ص 230) أن عياضا لما تولى كبر دفاع عبد المومن ابن علي عن سبتة وكان رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه سخطته الدولة آخر الأيام حتى مات مغربا عن سبتة بتادلا

---

27) الغنية ص 24.

28) التعريف ص 113.

29) بغية الملتمس ص 425/ الصلة ص 447/ الوفيات ج 1 ص 497/ السلوة ج 1 ص 151/ العبر للذهبي ج 4 ص 122/ الإحاطة ص 427/ الصلة ص 446/ المعجم ص 294/ تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 230/ الجذوة ص 277/ الاستقصا ج 1 ص 145/ شجرة النور ص 140/ المطرب لابن دحية ص 137/ الديباج ص 177، معجم البلدان ج 7 ص 36/ تذكرة الحفاظ ج 4 ص 96/ معجم ابن خير ص 289/ النجوم الزاهرة ج 5 ص 285/ تأليف في ترجمة لولده محمد بخزانة سيدي عبد الحفيظ الفاسي / قلائد العقيان ص 255/ ابن بشكوال ص 472/ اتحاف النبلاء ص 329/ أزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد بن محمد المقري (مخطوط بمكتبة الزيتونة والقاهرة 7,21 / الاعلام للزركلي ج 5 ص 282.

مستعملا في خطة القضاء بالبادية وقد أكد القاضي أبو عبد الله محمد بن عياض في الجزء الذي عقده لترجمة والده أن والده دفن بباب (ايلان) داخل سور مراكش. ونستشف من ترجمة القاضي عياض نفسه ملامح للعصر الذي عاش فيه وللمناهج الدراسية ومجالات الإختصاص والميزات التي طبعت حاضرة (سبتة) بطابع خاص إذا قورنت بمثيلاتها في العدوتين فإذا استعرضنا المراحل التي قطعها القاضي في حياته الدراسية والتي كانت تشكل صورة لمقومات الثقافة والمشاركة في ذلك العصر ـ لاحظنا أن عياضا أحكم قراءة كتاب الله بالسبع (30) وبرز في الحديث وحمل راية الرأي ورأس في الأصول وحفظ أسماء الرجال وثقب في علم النحو وقيد اللغة وأشرف على مذاهب الفقهاء وأنحاء العلماء وأغراض الأدباء فكان له الحظ الوافر من تفسير كتاب الله وجميع علومه وكان حافظا للمسائل عاقدا للشروط بصيرا بالأحكام دؤوبا على العمل «سمع الصحيحين على أبي علي الصدفي الذي جلس للتسميع وكان له به اختصاص(فحصل له سماع كثير وبعد رحلة إلى الأندلس حيث لقي ابن مضاء في (المرية) عاد إلى (سبتة) عام (508 هـ) فأجلسه أهل بلده للمناظرة عليه في المدونة وهو ابن اثنين وثلاثين عاما وبعد ذلك بيسير أجلس للشورى ثم ولي القضاء عام 515 هـ فأقام جميع الحدود.. ثم نقل إلى غرناطة عام 531 هـ حيث تقلد خطة القضاء لكن تاشفين ضاق ذرعه وغص بمراقبته فسعى في صرفه عن قضاء غرناطة.. ثم ولي قضاء سبتة ثانية آخر 532 هـ قدمه ابراهيم ابن تاشفين بن علي ثم بادر بالدخول في نظام الموحدين فأقره أمير المؤمنين.. ثم رحل إليه فاجتمع به بمدينة سلا وقد وصف ابن القصير دخوله إلى غرناطة عام 530 هـ (31) فذكر أن الناس خرجوا للقائه وبرزوا تبريزا ما ريىء لأمير مؤمر مثله وقد سكن أبو الفضل بمالقة وتمول بها أملاكا «وكان طوال حياته حسن الإلقاء للمسائل كثير التحرير للنقول.. ربما تقع منه دعاية كما تصدر من الفضلاء أمثاله كثير الإعتناء بالتقييد والتحصيل..

---

30) (أزهار الرياض ج 3 ص 9 ـ ط. وزارة الأوقاف).

31) الصحيح 531 هـ كما عند ولده.

إذا عدت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس حسب فيها صدرا وكان معظما للسنة قوالا للحق بارع الخط المغربي عليه المعول في حل ألفاظ المدونة وضبط شكلاتها وتحرير رواياتها وكان مسلكه في ذلك بين الاصطلاح العراقي وهو مسائل المدونة التي بنوا عليها فصول المذهب والاصطلاح القروي وهو البحث عن الألفاظ وتصحيح الروايات. وقد بلغ درجة في علوم الحديث دراية ورواية جعل منه حافظا في مصاف كبار المحدثين لا في المغرب والأندلس فقط بل في العالم الإسلامي وربما كانت هذه اللمحة عادية في سيرة عالم مثل (عياض) غير أنها لم تغفل أية خلفية في اللوحة التي ترسم لنا المجالي الهامة للحياة الفكرية في القرن السادس بالنسبة للكثير من رجالات هذا العصر وتبرز هذه المعالم بوضوح أجلى إذا ما قورنت بالإتجاهات الثقافية التي بدأت تتجدد تحت تأثير بادرات الإجتهاد الموحدية حيث شملت كل شعب العلم والمعرفة من فلسفة وطب وكلام وحديث وتفسير وأدب حتى النحو الذي كان فيه لابن مضاء جولة عارمة حللت دقائق الفن تحليلا نقديا وقد ظلت علاقة عياض بحواضر الجنوب كأغمات ومراكش مستوثقة وكذلك بفاس مسقط رأس أجداده بعد الأندلس حيث كان انتقال والد جده عمرون إلى مدينة فاس ثم سبتة بعد دخول بني عبيد المغرب فاشترى أرضا معروفة بالمنارة بنى في بعضها مسجدا وفي بعضها دارا حبسها على المسجد وحبس باقي الأرض للدفن وانقطع بالمسجد إلى أن مات (عام 397 هـ) (32). وهذا المسجد كان منسوبا إلى القاضي إلى عهد ولده أبي عبد الله وقد أشار إليه في التعريف (ص 3) ولا ندري هل هو المسجد الموجود الآن والذي يحمل زقاقه أيضا إسم عياض وعلى كل فقد كانت فيه داره ومقر تدريسه إلى عهد المرنيين (بلغة المنية ص 10) وعياض في الحقيقة بطن من اثبج موطنهم بادية افريقية انتقلوا إلى جبل (قلعة بني حماد) ومنهم المهايا وربما شكلوا عنصرا حميريا كالذي يجمع البربر عامة بالعرب البائدة في أرض اليمن وتنتمي أسرة عياض فعلا

---

32) أزهار الرياض ج 1 ص 28 ط. وزارة الأوقاف.

إلى قبيلة حمير من عرب اليمن التي قامت بدور أساسي في تعريب المغرب تمهيدا للفتوح الإسلامية وقد انتقل آل عياض إلى بسطة على بعد 123 كلم من غرناطة من حيث انتقلوا إلى فاس وهذا هو المسار الذي نهجه الكثير ممن هاجروا من الأندلس منتجعين عاصمة المولى إدريس التي ظلت قرونا العاصمة الفكرية لمجموع القارة الإفريقية (33) للانسياق في شتى التيارات التي كانت تؤدي آخر المطاف إلى حواضر الشمال كالشاون والقصر الكبير وسبتة وقد انساقت سبتة فيما انتاب حواضر المغرب من تيارات منذ انبثاق ثورة الموحدين فسار عياض منجذبا في صبيبها مرتئيا ما ارتآه الكثير من معاصريه لا في الحقل السياسي فقط بل حتى في أدق القضايا العلمية كوجوب فصل (إحياء الغزالي) عما حشر فيها من مكاشفات والإقتصار منها على (العلم الخالص) (34) وقد غرب الموحدون عياضا عن بلده لأنه لم يساير أفكارهم في العصمة والإمامية فجزع أشد الجزع لفراق مسقط رأسه وكابد الأمرين من جراء هذه اللوعة الموصولة ولكن مركزه كعالم رائد لم يسمح له بالتساهل في مجال يتصل بصلب العقيدة لا سيما وأن القاضي عياضا أصبح في عصره قدوة وأسوة شرقا وغربا بذلك يمكن اعتبار حركات وسكنات هذا العالم الفذ مجالي لما كان العصر يقتضيه من سمو في السلوك ومثالية في المواقف وكان لذلك ثمن لم يتقاعس عياض عن تحمله ولم تكن (سبتة).

تختلف عن باقي كبريان الحواضر في مختلف مظاهر اختياراتها سواء في منهجية الدراسة ونوعية الكتب أو المراجع وتوافر الأفذاذ من العلماء مما كان يضمن لها الإكتفاء الذاتي دون الشعور بالحاجة إلى المزيد عدا المقارنة والتوفيق وقد أشعرنا القاضي عياض بذلك مبرزا اكتمال شخصيته العلمية قبل اللحاق بالأندلس لتطعيم روافده كما سرد لنا القاضي لوائح الأمهات التي ظلت مشتركة

(33) راجع بحثنا المنشور في مجلة (المناهل) في هذا الموضوع.

(34) الشفا ج 2 ص 267 / التعريف لولده ص 106.

تسع في مختلف الأعصار والأمصار بالمغرب والأندلس لغة وفقها وأصولا وجدلا وحديثا وتفسيرا وزاد هذه البوتقة تركيزا وتجميعا للعطاءات المختلفة في شتى المجالات مرور كبار رجالات الفكر الإسلامي بها ولكن القاضي (35) درس بالأندلس كتبا جديدة لم يقرأها ببلده وقابل كتبه بالأصول الصحيحة فكانت عنايته بلقاء الشيوخ (36) لموازنة أفكارهم بما تلقاه في بلده فقط لا انتجاعا للجديد شعورا من القاضي بشمولية عطاءات بلده غير أن الكثير من رجالات الأندلس كانوا يفدون على (سبتة) أيضا للأخذ من علمائها الأفذاذ وفي طليعتهم عياض ومن هؤلاء الوزير عبد المجيد بن عبدون (المتوفى عام 527 هـ) الذي لم يقصد سبتة إلا للقياه (37). وهكذا كانت (سبتة) مهبط العلماء الواردين من الشرق يمرون منها إلى الأندلس أو القادمين توا إلى المغرب رحالين أو مقيمين فكانت (حاضرة البوغاز) في كلتا الحالتين ملتقى الثقافات العربية الإسلامية الإفريقية الأندلسية مما لم يتوفر دائما لغيرها. وقد أوضح عياض في مقدمة (ترتيب المدارك) الأصول العلمية التي كانت مقررة بسبتة في عصره مع أساليب تطبيقها وشمولية مراجعها في وصف كاشف وتمحيص ناقد ومما يدل على عناية القاضي عياض بمناهج وأساليب الدراسة في عصره أنه تولى بنفسه تثقيف ولده ووضع خطة لتدريب وتكوين صغار المتعلمين في كتابه (الإعلام بحدود قواعد الإسلام) وكانت الصلات أنذاك وثيقة بين كبريات حواضر الشمال وخاصة البصرة والقصر الكبير وطنجة ونكور من جهة وفاس ومراكش وأغمات من جهة أخرى كما استوثقت الوشائج فكريا وحضاريا انطلاقا من سبتة مع المراكز الجنوبية لعدوة الأندلس لاسيما أقربها كجبل طارق ومالقة وممن أخذ عنهم القاضي عياض من أهل البصرة ابراهيم بن أحمد البصري السبتي ناظر عنده في المدونة (38). وقد أشار أيضا (في

---

35) الغنية (ص 142 ـ 155).
36) الصلة ص 446/الوفيات ج 1 ص 497.
37) الغنية ص 167.
38) التعريف ص 121/ الغنية ص 68.

المدارك ص 83) إلى عالم البصرة أحمد بن حذافة ومن أهل طنجة محمد بن مفرج الصنهاجي (صنهاجية طنجة) ناوله وأنشده (39)، ومروان بن عبد الملك بن سمجون اللواتي ومن الفاسيين ابن الصيقل محمد بن علي الشاطبي (40). كما أمدت حاضرة (نكور) سبتة بقاضي الجماعة أبي محمد عبد الله بن محمد بن منصور اللخمي النكوري الذي سكن سبتة وولي قضاءها وقضاء الجماعة بمراكش في عهد علي بن يوسف بن تاشفين (المتوفي عام 513 هـ) (41)، ومن أغمات يوسف بن موسى الكلبي المراكشي شيخ عياض (520 هـ/ 1126 م) (42).

وكانت أغمات آنذاك مقصد رواد التحقيق في أصول الدين والفكر من الصحراء المغربية ومن المغرب العربي كتونس (43)، وحتى من الأندلس وذلك في بحبوحة عصر الموحدين بالرغم عن مزاحمة مراكش لها وابراهيم بن أحمد ابن عبد الرحمن... بن عمارة المتوفى عام (579 هـ/ 1183 م) وقد أخذ عن ابن رشد وابن مغيث وقرأ القرآن بالسبع على ابن الوراق والموطأ على ابن موهب والحديث المسلسل في الأخذ باليد مرة بعد الأخرى على أبي محمد اللخمي سبط ابن عبد البر بأغمات وأيام قضائه بها عام 526 هـ كما أخذ عن الطرطوشي والمازري وهو مشارك في الحديث والفقه والشروط (له مختصر فيه) ولي القضاء بكور غرناطة ثم قضاء ميورقة (44) وممن اشترك مع عياض في التلمذة للإمام

---

39) التعريف ص 125 ـ 127/ التكملة ج 1 ص 438/ الفنية ص 42 ـ 44.

40) التعريف ص 126/ التكملة ج 1 ص 408/ الذيل والتكملة ج 6 ص 174/ الفنية ص 48.

41) التعريف ص 8/ الفنية ص 85/ المعجم لابن الآبار ص 204.

42) الفنية ص 215/ الاعلام للمراكشي ج 8 ص 339/ الصلة (عدد 1509) / التشوف (عدد 11).

43) راجع في كتاب (التشوف لابن الزيات ترجمة عدد من علماء تونس الذين هاجروا الى أغمات.

44) التكملة (رقم 400 ج 1 ص 155).
(الاعلام للمراكشي ط. 1974 ج 1 ص 150).

صدفي يعقوب بن حماد (وقيل حمود) الأغماني وهو من تلمسان وأصله من
عدت رحل إلى مرسية فسمع بها من أبي علي الصدفي (جامع الترمذي) وغير
ذلك (عام 411 هـ/ 1020 م) (45). وقد قال عياض متغنيا بأمجاد أغمات :

إذا الاخلاء لم تحمد غيوثهـــم وخان ميثاقهم في البعد أوحـــا لا
علي بأغمات خل لا أذم لـــه مدى الحياة وان شطت نوى حـــالا

وفي مراكش يعتبر الشيخ ميمون الصحراوي المتوفى بمراكش عام 506 هـ (46) من شيوخ القاضي عياض وقد أخذ الحديث بمكة عن الشيخ حسن بن علي الطبري (47) على أن الإمام الفخار هو من أصحاب القاضي عياض ومن شيوخ أبي العباس السبتي الذي كان له ضلع في تركيز الفكر الصوفي بالمغرب ولعل لهذه الصلة أثرا في بلورة بعض السمات الصوفية لدى مسند المغرب وامامه عياض الذي امتاز بذوق خاص في التوفيق بين الشريعة والحقيقة وقد ختمت بهذا العصر أي القرن السادس وجهة سلفية في التصوف على نسق القرون الأولى الثلاثة في الشرق كما يتجلى ذلك مما كتبه صاحب (التشوف) كما دخل المغرب تحت تأثير فلاسفة الأندلس في عهد جديد اتسم بشيء غير قليل من المناقضات والمفارقات نظرا لبروز علماء من طراز (بني زهر) الذين جمعوا بين علوم الحديث وعلوم اللغة والعلوم الدقيقة حتى بذ أحدهم في الطب سلفه ابن سينا. وقد ظلت سبتة آنذاك تستقطب مع فاس كبار المفكرين من الأندلس والمغربين الأوسط والأدنى فهذا :

- ابن زرقون محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد الأنصاري مسند الأندلس المتوفي عام (586 هـ/ 1190 م) قد استقضي في سبتة وشلب.

وقد صنف : 1) «الأنوار في الجمع بين المنتقى والإستذكار في شرحي الموطأ» (للباجي وابن عبد البر) يوجد المجلد الرابع بخزانة القرويين (ق 145).

---

45) التكملة ص 393 / الذيل والتكملة ص 209 / معجم الصدفي ص 321 / الاعلام للمراكشي ج 8 ص 318. (خ).
46) ذكر ابن الأبار أنه توفي باشبيلية عام 530 هـ
47) الاعلام للمراكشي ج 7 ص 239 (خ).

2) «كتاب في الجمع بين الترمذي وأبي داود».

«فهرسة ابن خير ص 86/ التكملة ص 329 أو 256).

وهذا أيضا ابراهيم بن يوسف بن أدهم (أو ابن ابراهيم) بن القائدي الوهراني الحمزي المعروف بابن وسلا المتوفي عام (569 هـ/ 1173 م) بفاس قد ولد بالمرية (عام 505 هـ) وانتقل إلى سبتة وهو صاحب (مطالع الأنوار على صحاح الآثار في غريب الحديث).

(راجع مطالع الأنوار لعياض بمكتبة القرويين أعداد 594 ـ 624 ـ 1641) / مكتبة القاهرة (149 وآ/ أحمد تيمور 340).

(السلوة ج 3 ص 151).

تكملة الصلة 185/ بروكلمان ج 1 ص 370/

الجذوة ص 86 ـ الاستقصا (ج 1 ص 186/ ابن خلكان (ج 1 ص 16).

الروض لابن عيشون.

وقد ظلت روابط علماء المغرب موصولة إلى آخر عهد المرينيين بزملائهم بالأندلس عن طريق سبتة بوتقة الإنصهار ومجمع التيارات الفكرية المختلفة وهذا من العوامل التي أضفت على سبتة سمة المركزية الفكرية كصلة وصل بين العدوتين انطبعت طوال قرون بطابع الوحدة العضوية الحضارية وقد امتدت ذيول هذه السمات إلى أوائل القرن التاسع الهجري قبل الإحتلال الأجنبي دون أن تختلف معالمها في مختلف العصور فلذلك نجد في كل ما كتب خلال هذه الفترة عن سبتة صورا صادقة لما أمكن للقاضي عياض أن يرسمه عنها في عصره بحيث يمكن ربطها مع ما كتبه أمثال محمد بن عبد المهيمن الحضرمي (في الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد) وابن الخطيب في (معيار الإختيار) (48) ومحمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري في (اختصار الأخبار

48) طبعة شبانة ص 144.

عما كان مشفر سبتة من سني الآثار) (49) و«بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان سبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب» (50) ونلمس محالي هذه الإنطباعات والإرتسامات الوحدوية الموصولة في تراجم من تعاقب في ثنايا هذه العصور على سبتة من علماء استطاعوا لا الحفاظ على السمة العلمية الراسخة لحاضرة البوغاز فحسب بل امدادها بفيوض طريفة من التأثيرات المغربية والمشرقية وصلا لما عرفته في القرون الأولى منذ الحكم الأموي الأندلسي حيث كان محمد بن عيسى بن زويع (أو زوبعة) أخر قضاة بني أمية في سبتة (51) ويلذ لنا أن نشير إلى جملة من العلماء السبتيين الذين حفظوا لمسقط رأسهم مركزيته الحضارية مع الإسهام في توجيه مناهج الدراسة والبحث في الشرق الإسلامي وذلك حسب التسلسل التاريخي للدلالة على الإستمرارية العلمية الراسخة في سبتة إلى أواخر القرن الثامن الهجري .

- عمر بن الحسن بن علي أبو الخطاب ابن دحية الكلبي (633 هـ/ 1264 م).

الذي تولى قضاء (دانية) ثم انتقل إلى سبتة مسقط رأسه ثم فاس ومراكش حيث تتلمذ للسهيلي واستقر بعد في (بجاية) طويلا ثم رحل إلى مصر والشام والعراق والحجاز وفارس وتولى رياسة دار الحديث الكاملية.

وهو صاحب (أنوار المشرقين في تنقيح الصحيحين)
و(شرح أحاديث الشهاب القضاعي)
و(مصنف في رجال الحديث) (52).

---

49) نسخة خطية في خع/طبع في المطبعة الملكية بالرباط عام 1974 (راجع مجلة هسبريس 1928/1955.

50) مجلة تطوان عدد 9 ص 173 (1964).

51) المدارك 3 و 4 (ص 628/الصلة لابن بشكوال ج 2 ص 562)

52) عنوان الدراية ص 160 (الطبعة الأولى).

ـ ابن الخضار محمد الكتامي التلمساني السبتي الذي سمع علوم الحديث عن ابن الصلاح بدمشق عام 634 هـ / 1236م (53).

ـ ابن عبد الملك الجذامي أحمد بن محمد الطبيب المحدث السبتي المتوفى بمراكش عام 650 هـ/ 1252 م. (الاعلام للمراكشي ج 1 ص 354).

(ينسب لابن عبد الملك السبتي اختصار الأخبار عما كان بسبتة من المزارات/ خزانة الكتاني ـ الرباط).

ـ عيسى بن يحيى بن أحمد بن محمد بن مسعود السبتي ضياء الدين الأنصاري أبو الهدى الحافظ المتوفي بالقاهرة (عام 696 هـ/ 1296 م)

(ولد بسبتة عام 613 هـ).

(تذكرة الحفاظ ج 4 ص 262 و286/ درة الحجال ج 2 ص 407)

طبعة الرباط 1354 ـ 1936

(أعيان العصر).

لقيه ابن رشيد وأخذ عنه بالقاهرة عام 684 هـ/ 1285 م.

له كلام في المعاني كان يستحضر أكثر كتاب الترمذي وصفه أبو حيان بأنه محدث حافظ (54).

ـ ابن أبي جمرة عبد الله السبتي (710 هـ/ 1312 م)

خطيب غرناطة.

(شذرات الذهب ج 6 ص 23/ الدرر ج 2 ص 360)

وهو غير ابن أبي جمرة عبد الله بن سعد الأندلسي المتوفى بمصر 695 هـ/ 1296 م (البداية والنهاية ج 13 ص 346 النيل ص 140) (وفاته عام 699 هـ).

ـ ابراهيم بن أحمد بن عيسى بن يعقوب الغافقي الاشبيلي ثم السبتي ولد باشبيلية سنة 641 وحمل صغيرا إلى سبتة سنة 646 هـ لما تغلب الفرنج على

---

53) (درة الحجال ج 1 ص 282).

54) (رحلة ابن رشيد ج 3 ورقة 95).

اشبيلية شرح (كتاب الجمل) ونزل سبتة فصار شيخها وساد أهل المغرب في العربية إلى أن مات (سنة 716 هـ/ 1316 م) (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج 1 ص 13).

- عبد الرحمن بن أبي طالب عبد الله العزفي أبو القاسم الفقيه المحدث الحافظ توفي بفاس عام (718 هـ/ 1318 م) وكان يسكن بالدرب الطويل بها وله أخ اسمه أحمد توفي بغرناطة (عام 708 هـ).

ألف لابن الحكيم ذي الوزارتين كتاب (الإشادة بذكر المشتهرين من المتأخرين بالإفادة (أو الإشادة بذكر المشهورين من المتأخرين بالإجادة (55).

- ابن رشيد محمد بن عمر بن محمد السبتي محب الدين الفهري الأندلسي كبير مشيخة المغرب توفي بفاس (721 هـ / 1321م) (56).

الدرر الكامنة ج 3 ص 280 و ج 4 ص 111/الاعلام للمراكشي (ج 3 ص 250/ شجرة النور (ص 216) / السلوة (ج 2 ص 191) / درة الحجال ج 1 ص 201 الجذوة (ص 280/ بغية الوعاة ص 85/ الذيل ص 355/ الوافي بالوفيات (ج 4 ص 284).

ومن مؤلفاته ، - السنن الأبين والمورد الأمعن في المحاكمة بين الامامين في السند المعنعن (الأسكوريال 1806)

- إفادة النصيح بالتعريف بإسناد الجامع الصحيح (الأسكوريال ، 1732 - 1785)

- ترجمان التراجم في ابداء وجه مناسبة تراجم صحيح البخاري (لم يكمل كما في كشف الظنون).

---

55) (أزهار الرياض ج 2 ص 357 - ط. وزارة الأوقاف)

56) هو صاحب الشرح على قواعد عياض المسماة بالاعلام في قواعد الاسلام (شجرة النور ص 235 / نيل الابتهاج ص 52 / الجذوة ص 60 / السلوة ج 3 ص 244 / الديباج ص 57 / بروكلمان ج 2 ص 346 / مجلة تطوان عدد 9 ص 183 - 1964).

ـ رحلته المسماة : ملء العيبة (خمسة أجزاء مصورة بمعهد مولاي الحسن بتطوان ـ نسخة بالأسكوريال)

ـ أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي

المعروف بالقباب كان قاضيا لجبل طارق ومشاور الدولة وخطيب القرويين (779 هـ / 1377م). غير أن (سبتة) أمست الى أواخر القرن الثامن الهجري بحكم موقعها الجغرافي ـ أولى الحواضر التي تأثرت بالأحداث الأندلسية الجارفة فما فتئت تكافح متأرجحة بين تيارات سياسية مختلفة تخللتها اضطرابات طبيعية كالتي وقعت فيما يسمى ب :

(عام سبعة) : (أي 637 هـ/1239 م حيث وقعت مجاعة عظيمة بسبتة وأحوازها من جراء الشرق (أي الريح الشرقية) وقلة الأمطار وعبث عرب رياح في مكناس وفاس (57).

وقبل ذلك بخمس سنوات أي في عام 632 هـ/ 1234م وجهت جنوة 28 مركبا لإغاثة سبتة ضد مراكب الصليبيين الإسبان (58) وبدأت سبتة تتضايق من كل الطوارىء والطوارق حتى من لاجئي العلماء حيث رحل ابن خميس (المتوفى عام 708 هـ) من تلمسان فاستناره الطلبة وأحرجوه بالأسئلة فحار عن الجواب واضطر للهجرة الى مالقة (59) وكأني بالحافظ ابن تيمية وهو معتقل في سجن الأسكندرية في العام التالي (709 هـ/1309م) قد أحس بهذا الخطر الذي داهم بوغاز العلم والمعرفة بين العدوتين فأجاز (وهو الضنين بإجازاته) صاحب سبتة بجملة من أسانيده في عشر ورقات (60) وقد هب العزفيون في ثورة عارمة ضد من اهتبل فترة الضعف والاضطراب في سبتة فأمسك بزمامها كالحفصيين الذين

---

57) البيان المغرب ق 3 ص 348.

58) (وصف وتاريخ المغرب ـ كودار ج 1 ص 345).

59) ثم غرناطة حيث بقي بها مع الوزير ابن الحكيم الى أن مات (أزهار الرياض ج 2 ص 298 ـ 304 ـ طبعة وزارة الأوقاف المغربية.

60) فهرس الفهارس ج 1 ص 199.

قام أبو القاسم محمد بن أحمد العزفي (عام 647 هـ/1249م) بطرد واليهم على المدينة ابن الشهيد الهنتاتي (61) وذلك في دولة المرتضى الخليفة بمراكش وقتل والي سبتة أبا عثمان بن خالد (62) وتوفي بسبتة عام 677 هـ فملك أكثر من ثلاثين سنة وقد ولد عام 607 هـ ويقول ابن الخطيب أنهم غير لخميين (نسبة الى قابوس بن النعمان بن المنذر) بل من قبيلة مجكسة من البربر وكان فقيها محدثا عارفا بالرواية ولما توفي قام بالأمر ابنه أبو حاتم أحمد ثم خلع وتولى أبوه أبو طالب عبد الله عام 678 هـ وخلع عام 705 هـ ودامت دولته 27 سنة وتوفي بفاس مخلوعا عام 713 هـ خلعه الأمير فرج بن اسماعيل بن يوسف ابن الأحمر ثم تولاها يحيى بن أبي طالب عام 710 هـ سنة ونصفا وبويع ثانية عام 714 هـ وولي بعده ولده أبو القاسم محمد بن يحيى عام 719 هـ وخلع عام 720 هـ وتوفي بفاس وهو كاتب الحضرة المرينية عام 768 هـ وقد ولد في سبتة عام 699 هـ

وشبت عام 743 هـ / 1342 م وقعة ضد الإفرنج حول مدينة سبتة قتل فيها ابن عبد الملك محمد بن محمد الأوسي (63) وأنصبت على المنطقة أثار الصراع بين بني الأحمر وبني مرين ـ بدافع من أدعياء الملك الوالغين في المياه العكرة فكانت (سبتة) مرة أخرى هي الضحية الأولى حيث اقتطعت من تراب المغرب رسميا لأول مرة (عام 786 هـ/1384 م) عندما ولي الخلافة موسى بن أبي عنان المريني مرشحا بهذا الشرط من طرف بني الأحمر (64) وقد سبق لأبي الحسن المريني خلال حصاره للمدينة أن أسس معقلا سمي « سبتة العتيقة »

---

61) البيان لابن عذارى ج 4 ص 454.

62) أزهار الرياض ج 2 ص 377 هط. وزارة الأوقاف.

63) (النفح ج 8 ص 198 / الاعلام للمراكشي ج 3 ص 261)

64) وكان لاجئا بقصر الحمراء بغرناطة مع جماعة من الأدعياء وكان الذي تولى كبر ذلك هو الوزير مسعود بن ماساي الذي ما لبث أن راجع نفسه بعد تولية الواثق بالله أبي زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن المريني عام 788 هـ فطالب بإعادة سبتة الى

وبرجا في المرسى وقد كان انفصال سبتة عن المغرب لصالح النصريين أثر قوي في تقليص التبادل الفكري بين العدوتين مما أدى قبل احتلال سبتة من طرف البرتغاليين الى نوع من الجمود تمخض عما لاحظه ابن خلدون خلال المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم وغياب منهج النظر (65) وقد وقع احتلال سبتة (عام 818 هـ/1414 م) فكانت أول سبت للمغرب في تاريخه الوطني حيث لم يعرف من قبل وقوع أي جيب من جيوبه أو ثغر من ثغوره في يد الآجنبي (66) فقد احتفظ المغرب باستقلاله ووحدة كيانه منذ الفتح الإسلامي في حين خضعت الدول الإسلامية الأخرى للحكم العثماني حتى المغربين الأدنى والأوسط فكانت الصدمة عنيفة. وهكذا اتقد حماس الشعب المغربي عن بكرة أبيه فهب من أقصى الجنوب لتحرير قطعة من التراب الوطني كانت تتأرجح بين أمراء العدوتين فلم ير الشعب العربي المسلم في ذلك غضاضة نظرا للوحدة العامة بين شقي البحر

المملكة المرينية وحدثت النفرة لذلك بينه وبين بني الأحمر فجهز ابن ماساي العساكر لحصارها فاستولى عليها فسرح ابن الأحمر السلطان أبا العباس المنتصر بالله فاستولى على سبتة وعلى الملك للمرة الثانية عام 789 هـ.
(الاستقصا ج 2 ص 138).

65) لاحظ ابن خلدون أننا لم نشاهد في المائة الثامنة من سلك طريق التظار بفاس بل في جميع هذه الأقطار لأجل انقطاع ملكة التعليم عنهم ولم يكن منهم من له عناية بالرحلة بل قصرت هممهم على طريق تحصيل القران ودرس (التهذيب) فقط، نعم آخذوا شيئا من مبادىء العربية من أهل الأندلس القادمين عليهم من سبتة وغيرها باستدعاء ملوك بني مرين قال : ولهذا لم يتصدر من الفاسيين من يقرىء الكتاب كما هو متداول بين أهل الأندلس مثل ابن أبي الربيع والشلوبيين وغيرهما لوجود ملكة النحو قطر الأندلس لا بسبب رحلة علمائهم إلى تلقيه من أربابه بالمشرق كما ارتحل أعلامهم إلى بغداد في تحصيل الفقه.. مثل يحيى ابن يحيى الليثي عن مالك وكذا علوم الحديث كرحلة أبي بكر المعافري (أزهار الرياض ج 3 ص 27 ط. الأوقاف).
(راجع قضية أبي عنان عند بناء مدرسة المتوكلية بفاس وّاختيار الصرصري الحافظ لقراءة (التهذيب وانقطاعه عن تحقيق ما أورد عليه من مسائل وتدخل الأمير الذي قصد من ذلك تعليمه أن دار الغرب هي كعبة كل قاصد).

66) في عهد عثمان بن أحمد بن أبي سالم المريني (المتوفى عام 823 هـ/1420 م) (الاستقصا ج 2 ص 144).

المتوسط الغربي في ظل الإسلام ولكن الشعب المغربي شعر بمرارة بأن سقوط (جوهرة الشمال) في قبضة البرتغال كان الطفرة الأولى لانتفاضة الصليبية في شبه جزيرة (إيبيريا) في حملة عارمة هي حملة مضادة للاغارة على المغرب

فلذلك كانت الهزة عنيفة والألم مضن لا سيما وأن (سبتة) كانت قد بلغت أنذاك الأوج في مسارها التطوري الحضاري حيث وصفها قبيل الاحتلال وبعيده بقليل مؤرخان من أصدق الوصافين هما ابن الخطيب السلماني ومحمد بن القاسم الانصاري فقد أشار ابن الخطيب لسبتة في (مقامة وصف البلدان) فوصف بيض أسوارها وجبل (بليونش) شمامة أزهارها والمنارة منارة أنوارها ودار الناشبة (حيث كان القوم يرمون بالنشاب أي النبل) والحامية المضرمة والأسطول المرهوب » ثم وصف المدينة بأنها (بصرة) علوم اللسان و (صنعاء) الحلل الحسان ومحشر أنواع الحيتان ومحط قوافل العصير والحرير والكتان ثم قال ، » وكفاها السكنى ببليونش في فصول الأزمان ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان » وخزانة كتب العلوم... إلا أنها عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ثم ذم أهلها فلاحظ أنهم مفتونون ببلدهم لا يفضلون على مدينتهم مدينة الشك عندي في مكة والمدينة (67) وقد وصف ابن الخطيب بليونش فقال ،

بليونش أسنى الأماكن رفعة — وأجل أرض الله طراشانا
هي جنة الدنيا التي من حلها — نال الرضا والروح والريحانا
قالوا القرود بها فقلت فضيلة — حيوانها قد قارب الإنسانا (68)

ومدحها محمد بن أبي عبد الرحمن الكميلي قاضي أزمور بقوله ،

بليونش كلها عذاب — فالمشي في سبلها عقاب
يكنفها شامخ منيف — كأنه فوقها عقاب

---

67) أزهار الرياض ج 1 ص 31.

68) وقد أشار صاحب (الاستبصار) الى جبل عظيم على قرية بليونش فيه القردة.

وينقل (المقري) في (أزهار الرياض) (ج 1 ص 33) عن كتاب « الكواكب الوقادة في ذكر من دفن في سبتة من العلماء والصلحاء القادة فيصف بساتين الشريف أحمد بن محمد صديق ابن الخطيب في المصيف بقرية بليونش كمنية العبا وجنة الحافة بقبتها السامية المطلة على البحر ومصانعها (69) وهذا أبو الحسن المريني يجل هذا الشريف ويستدعيه كل سنة الى حضرته فاس لحضور المولد السعيد الذي سنه ببلاد المغرب الشيخ أبو العباس العزفي (70) وقد عينه السلطان ناظرا على سبتة وقد كان بسبتة عام 825 هـ/ 1421 م أي بعد احتلالها من طرف الإسبان بسبع سنوات :

1) ألف مسجد ومدرسة منها مدرسة أبي الحسن الشاري الغافقي ومدرسة أبي الحسن المريني.

2) اثنتان وستون خزانة علمية منها خزانة موقفة على مدرسة الشاري وهي أول خزانة وقفت بالمغرب (71).

3) سبع وأربعون زاوية ورباطا أعظمها (رابطة الصيد) وهي قائمة في الهواء على اثني عشر عمودا ومنها زاوية أبي عنان المريني للغرباء.

4) ثمانية عشر من المحارس علاوة على ناظور المرابطين بأعلى الجبل المشرف على باد ومالقة ومجموع الزقاق.

5) عدد الأزقة مائتان وخمسون تحمل أسماء سكانها من العلماء كزقاق عياض وزقاق العزفي وزقاق ابن الشاط.

6) الحمامات : اثنان وعشرون حماما علاوة على عشرة في القصبة وبكل دار من ديار سبتة حمام ومسجد إلا القليل وكان بمنزل المؤلف نفسه حمامان ومسجد.

---

(69) جمع مصنعة وهي شبه الحوض يجمع فيها ماء المطر أو هي المباني والقصور.

(70) أزهار الرياض ج 1 ص 39.

(71) محمد بن القاسم الأنصاري في كتابه « اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار» الذي صنف عام 825 هـ (نشرته المطبعة الملكية بالرباط ومجلة هسبريس ج 12 - 1931.

7) الأسواق عددها مائة وأربعة وسبعون منها اثنان وثلاثون في الأرباض الثلاثة.

8) الحوانيت عددها أربعة وعشرون ألفا وكانت فيما مضى أكثر وعدد (التربيعات) (72) احدى وثلاثون للحرارين والخرازين وغيرهم وكانت أعظمها عبارة عن معقل أو قلعة على ثلاث طباق وفي صحنها مسجد.

9) المتجرات المعدة ـ لعمل القسي أربعون.

10) الفنادق عددها ثلاثمائة وستون أعظمها الفندق المعد لاختزان الزرع يحتوي على اثنين وخمسين مخزنا من بناء أبي القاسم العزفي ويشتمل (فندق غانم) على ثلاث طبقات.

11) الأفران عددها ثلاثمائة وستون.

12) السقايات خمس وعشرون.

13) الميضاءات العمومية اثنتا عشرة.

14) ديار الأشراف أربع ، الديوان والقاعة والبناء والنجارة والسكة.

15) المطامير أربعون ألفا مفترقة في الدور والحوانيت.

16) الطواحين ، مائة وثلاث

17) الأرباض ستة

18) الأبواب خمسون

19) المصليات ستة.

20) المرامي وأماكن السبق أربعة وأربعون.

21) المقاصير عددها خمسة وعشرون مع أبراج لصيانة الأمتعة.

22) المراسي ثلاثون فيها دار الصناعة و 299 مصيدة للحوت.

23) مدينة (أفراك) حيث القصر الملوكي الذي أعده بنو مرين لنزولهم.

---

72) مازالت الكلمة مستعملة في المغرب إلى الآن وهي عبارة عن (قيسارية) غير مسقوفة ومربعة خاصة بحرفة ما.

24) قرية (بنيونش) الكثيرة العيون والأنهار والتي بلغ عدد حماماتها 126 وأرحيتها 50 ومساجدها 19.

25) صادرات سبتة من الفواكه الى المغرب والأندلس خمسة وستون نوعا من العنب وثمانية وعشرون نوعا من التين وخمسة عشر نوعا من التفاح وستة أنواع من الخوخ وأربعة من السفرجل وستة عشر من الرمان ؛

26) قرى كثيرة أخرى.

وكانت سبتة دار صناعة وتصدير قبل الاحتلال تصنع أواني النحاس المنحوتة والمرصعة وتصدرها الى البلاد الإيطالية (73).

كما تنتج من أنواع الخضر والفواكه ما فاقت به بقية الحواضر علاوة على ما امتازت به من جمال العمران وأجهزة الحضارة وإذا استثنينا ما وقع التصريح به من تشييدات ومنشآت حديثة في العهد المريني فإن أغلب المؤسسات الحضارية الموصوفة في القرن الثامن والتي تأخذ حيزا في نطاق المدينة الضيق يمكن أن تكون قديمة العهد قد انبثقت منذ العهود الأولى في القرنين الخامس والسادس لا سيما وأن بعضها قد أشير إليه إلماما في ثنايا ما كتبه عياض وابنه كما رأينا.

تلك فذلكة مقتضبة عن سبتة في عصر القاضي عياض كما تتراءى من خلال المصنفات غير التاريخية التي ألفها عياض وأكملها ولده وقد تجلى من دراسة مقارنة بين ما كتب عن (حاضرة البوغاز) في مختلف العصور مدى صحة ما أوردناه من نقل مباشر عن مصادر هي كل ما بقي من تراث عالم المغرب ومسنده القاضي عياض.

---

73) (الحسن الوزان - (المغرب في أوائل القرن السادس عشر) ماسينيون ص 88).

حياة القاضي عياض العامة

الأستاذ : محمد بن حماد الصقلي

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة القاضي عياض العامة

اعتمدت في هذا البحث خاصة على ترجمة ابن القاضي عياض : لأبي عبد الله محمد لأبيه «أبي الفضل عياض» في الكتاب الذي حمل عنوان «التعريف بالقاضي عياض».

حققه وعلق عليه : الدكتور ابن شريفة :

طبع ونشر بإشراف معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

أ ـ منهج كتاب التراجم

من تتبع ما كتبه ويكتبه أصحاب كتب التراجم وجد أنهم يركزون في ترجمتهم لعباقرة الإسلام على مظاهر ثلاثة :

أ ـ نبوغهم العلمي

ب ـ أخلاقهم الحسنة

ج ـ مراحل حياتهم الخاصة

ومن هذه المظاهر. يدرك القارىء أن المترجمين يعتبرون أن خلود الذكر إنما يتوقف على ما يمتاز به العالم من حسن الخصال وسمو المواهب ولشدة النبوغ. والواقع أن هذه المعطيات دعامات للذكر الحسن وللتقدير. لا للخلود عبر العصور. فهو يتطلب زيادة على تلك المعطيات كثيرا من العوامل من جملتها :

مراعاة البيئة إذ بها يظهر مدى ما للعالم بمحيطه من الروابط القوية. والصلاة المتينة ومدى ما يعكسه نبوغه على مجتمعه من الاهتمامات والتطورات وعلى المجتمعات الأخرى من التطلعات والاتجاهات. فمراعاة البيئة. تجعل الكاتب حين يتعرض لنبوغات العالم الفكرية يحلل من جهة ما كان لها من آثار النهوض على مجتمعه ويكشف من جهة أخرى عن معطيات البيئة التي أمدته بعوامل النبوغ. ثم ينبه على مقدار انتفاع الأجيال بنظرياته وتقبلها لاجتهاداته. وتجعله كذلك حين يتعرض لاستقامة العالم الشخصية. يوضح كيف تجلت تلك الإستقامة في السلوك فيعدد مواقفه المشرقة. وتضحياته. ويقيم الشواهد على تفانيه في الثبات على المبدأ. وعلى مشاطرته لآمال مجتمعه وآلامه بالكشف عما وضعه من الخطط أو أشرف على تنفيذه. منها لتوسيع أفق الآمال. وتضيق نطاق الآلام حتى تحقق له الإنتصار على الشدائد والقضاء على مخلفاتها.

فالعالم الذي يستطيع الكاتب أن يقدمه في نطاق بيئته فيوازي بينهما بل ويضع الأنامل على موارد الفضل التي استقاها العالم في بيئته وعلى منابع الفضل الفكري والخلقي التي ارتوى من معينها مجتمعه وسواه من المجتمعات وهو العالم الذي ينتشر ذكره ويخلد ويعظم في نظر الخاصة والعامة قدره. ويكون لهم خير قدوة وأنفع رائد. والكاتب الذي سلك هذا المنهج في الترجمة هو الكاتب الذي قام بمهمته ووفى أمانته. الحقيقة أن أي مفكر بارز لا بد أن يكون :

ـ من حيث النظرة العلمية والتاريخية ـ صورة لحياة مجتمعه ومرآة تنعكس عليها أشكال بيئته المادية والروحية وتبرز عليها أوضاع محيطه الاجتماعية والفكرية فإذا أغفل الكاتب بيئة المترجم له. والظروف التي كانت عليها حياة مجتمعه فإن كتابته حينئذ. ينقصها الاستيعاب والشمول. ولا تكشف بوضوح عن المؤثرات الخفية والظاهرة. التي أوجدتها عبقرية العبقري داخل مجتمعه وخارجه. وهو أمر يوقع الدارس في عناء البحث ويكلفه مشقة الإستنتاج. أن العباقرة على صنفين :

أ ـ صنف منهم لا تتضح مؤثرات مجتمعه في نبوغه بادىء الأمر ولا يتجلى الاستمداد الذي ناله من بيئته لأول وهلة. وهو الصنف الذي يقل وجود من يشاركه من أفراد مجتمعه في مواهبه أو ينعدم فيهم من ينافسه في نبوغه ومبتكراته فهذا الصنف، لا يعكس من حياة المجتمع إلا قليلا. فمهمة الكاتب، هي تبين صورة المجتمع في عبقرية هذا الصنف، وهي مهمة دقيقة تتطلب منه الجهد والعياء، ومواصلة البحث والاستقراء.

ب ـ وصنف من العباقرة تكون مؤثرات بيئته في نبوغه واضحة واستعدادات النفع التي نالته من مجتمعه جلية. وهو الصنف الذي يتيسر وجود من يشارك العبقري من أفراد المجتمع في مواهبه ولا ينعدم فيهم من ينافسه في نبوغه ومبتكراته. فبقدر تفوقه على مشاركيه في النبوغ والمواهب وبقدر مزاحماته لمنافسيه في المبتكرات الفكرية وهي المعطيات الخلقية. بقدر ذلك تسود نظرياته. فيتداولها القريب والبعيد. وترجع فضائله فيطبقها المجتمع ويصير قدوته المثلى وأسوته الحسنة. فمهمة الكاتب في هذا الصنف أن يقارن المترجم له بمشاركيه ومنافسيه ليكشف عن مبررات التفوق في نظرياته وعن دواعي السمو في فضائله وهي مهمة دقيقة كذلك لأنها تتطلب منه الكشف عن مجتمع ضم العديد من العباقرة وعما فيه من الموارد التي استقاها منه من يترجم له، وعن إعدادات النفع الجديدة التي قدمتها عبقرية العبقري لذلك المجتمع، حتى صار صورته الناطقة ونموذجه الحي يجد فيه الدارسون عبر العصور بصمات الآثار التي خلفتها مواقف العبقري مما كان في حياته من الأحداث السياسية والاجتماعية، ومن الصراعات الفكرية والمذهبية.

والقاضي عياض هو أحد العباقرة الأفذاذ. فهو جامع بين الصنفين لأنه بالإعتبار الأول يقل وجود من يشاركه في مواهبه وينافسه في نبوغه ومبتكراته بل قل وجود ذلك في من جاء بعده من العباقرة عبر مختلف العصور، وبالإعتبار الثاني، تيسر في عصره وجود من له مؤهلات مشاركته في مواهبه، ومنافسته في نبوغه ومع ذلك، لم يسابقه في الميدان ولم يخض لجة العرفان اعترافا منه له

بالسبق. وإقرارا بالفضل. فكان بحق «أبا الفضل» فالصورة التي طبع بها القاضي عياض مجتمعه لم تزل قائمة، ومعطيات النفع التي أمد بها بيئته بقيت مستمرة، تقتبس منها مجتمعات الشرق والغرب. ويستمد منها العلماء في كل مكان وزمان فكان ليس من قبيل المبالغة أن يقول العلماء فيه :

«لولا عياض ما ذكر المغرب»

وبعد : فحياة القاضي عياض العامة هي في حاجة إلى من يكتبها ويسلك في كتابته لها منهج الاستيعاب والشمول، ويوضح في عرضه لها الجوانب التي بقيت منها إلى الآن في نطاق المجهول.

وهذا المجتمع الثاني لندوة الإمام مالك المختص بالقاضي عياض هو أحسن وسيلة لإنجاز هذا المشروع. لأن المشاركين فيه نخبة من العلماء الأجلاء، من داخل المغرب وخارجه. كل واحد منهم يعرض إلى جانب من جوانب حياته العامرة، وأثر من آثاره الأدبية والعلمية والإجتماعية أنه لموسم نقيمه إجلالا للقاضي عياض وإكبارا لاحتفاظه بمنصب الزعامة العلمية رغم مضي مآت السنين فجازى الله أحسن الجزاء جلالة الحسن الثاني الذي دعى إلى ندوة الإمام مالك. وتفضل حفظه الله فجعلها ندوة مفتوحة ليتأتى في تجمعاتها إحياء شخصيات المذهب المالكي المساير للتطور والمواكب للإزدهار.

د ـ التعريف بالقاضي عياض :

إن من الإعلام من تسمو بسببهم أوطانهم، وتذكر بفضلهم بلدانهم من المقدمة التي كتبها الدكتور بنشريفة لكتاب التعريف.

ألف أبناء عصرنا أن يسجلوا في نهاية كل يوم من حياتهم ما يجد فيه من الأحداث وكذا ما هو صالح ومفيد مما هو متعلق بحياتهم الخاصة والعامة وهو ما يعرف «باليوميات» أو المذكرات ولم يكن هذا الذي ألفه المعاصرون أمرا محدثا بالمرة بل هو مقتبس مما فعله علماؤنا السابقين فهم كانوا يكتبون تاريخ حياتهم في سفر خاص. ويكتبون أيضا ترجمة أشياخهم في سفر آخر يسمونه «الفهرس» والقاضي عياض. كتب بطريقة غير مباشرة جانبا من حياته في سفر سماه «الغنية»

ذكر فيه أشياخه الذين أخذ عنهم قراءة وسماعا ومناولة وإجازة ومن كتب إليه يجيزه ممن لم يلقه قال في مقدمة «الغنية» من خبر كل واحد منهم ما يعطي الحال وفقه بطرف من الاختصار والإيجاز. بحكم ما أدت إليه الحال من الرحلة والإنحفاز وتوجد من هذا السفر عدة نسخ في الخزانات العامة والخاصة تنتظر من يراجعها في تحقيق الغنية ونشره.

لكن : هل كان عياض من بين أولائك الذين كتبوا تاريخ حياتهم مفصلة ؟ أقول لا ـ لأننا رغم الاستقراء لم نعثر على ما يشعر بأنه فعل ذلك : وفي نظرنا أن قولنا لا . لا ينفي بتاتا أن يكون القاضي عياض كتب سيرته ثم أندثر ما كتب، إما بفصل خصومه السياسيين واما بفعله هو لكون الأحداث السياسية أرغمته على ذلك. ولنا في هذين الاحتمالين اعتبارات ليس هذا محل إيرادها. وكان الشأن أن يؤلف في سيرته معاصرون، وكذا الموالون لعصره ومن بعدهم العديد من المؤلفات لأن مقامه العلمي والاجتماعي كان يفرض ذلك. غير أن كل ذاك لم يقع. ولم يعرف عبر مختلف العصور من التآليف المفردة في سيرة عياض سوى مؤلفين أحدهما : ألفه من نشأ في بيته وتربى في أحضانه وهو ابنه أبو عبد الله محمد ابن عياض وثانيهما ألفه بعد أن مضى على وفاة عياض أزيد من خمسون قرنا : شهاب الدين أحمد بن محمد المقري. فكتاب ابن القاضي عياض قد عززت بطبعه ونشره وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مختلف المكتبات والخزانات فلها ولمحققه الدكتور بنشريفة جزيل الشكر وهو خال من الإسم وجعل له الدكتور بنشريفة اسما هو : التعريف بالقاضي عياض أخذا من مقدمة الكتاب قال في بدايته : وبعد حمد الله تعالى حق حمده والصلاة على محمد نبيه وعبده فإن سيدي الفقيه الأجل. النبيه الحافظ الأكمل الأستاذ المقرى الأحفل. دام توفيقه سألني أن أعرفه ببعض أخبار أبي رحمة الله عليه. ولم يفهمني غرضه من ذلك. وما قصد إليه... الخ فمن قوله أن أعرفه ببعض أخبار أبي اقتبس اسم الكتاب ويظهر أنه لم يقدر لهذا الكتاب الرواج والانتشار لا في عصر مؤلفه ولا بعده إلى القرن الحادي عشر ففي خلاله ألف المقرىء كتاب «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» وبنى

كتابه هذا على كتاب أبي عبد الله محمد بن عياض ونطالع في الأزهار فصولا نقلت منه بأكملها. كما نقرأ عقب نقله لا حدى فقراته قوله فقد كتبه من أصل فيه بعض تصحيف وتحريف وأثبته هنا حتى يفتح الله في مقابلته بأصل جيد يصحح منه خلله ويشفى علله. سهل الله وجوده بجاه سيدنا محمد (ص) أزهار الرياض ج 2 ص 111. فدل هذا النص على قلة انتشار كتاب أبي عبد الله حتى في عهد المقرى إذ لم يستطع أن يظفر بنسخة ثانية لا في مدينة فاس حيث ألف بها كتابه «أزهار الرياض» ولا في مدينة تلمسان التي كانت فيها الخزانة المقرية الزاخرة بالكتب على اختلافها ولا في مدينة «مراكش» حاضرة الملك إذ ذاك. وليس معنى هذا أن الكتاب لم يطلع عليه أحد غير المقرى. فقد نقل عنه بعض من تعرفوا بالقاضي عياض قبل المقرى ولم ينقل عنه البعض الآخر مما يدل على أن الكتاب لم يكن واسع الانتشار فنجد بالنسبة للقرن السادس أبا الحسن على بن محمد الرعيني الإشبيلي ينقل فقرات من الكتاب دون التصريح بذكر صاحبه.

ونجد بالنسبة للقرن السابع أن ابن الآبار وابن قرقول وابن عبد الملك لم يشيروا إليه وإنما أشار إليه ابن الزبير الذي أوقفه عليه بعض حفدة مؤلفه بما لقيه ـ ونجد أيضا من أبناء القرن السابع ابن خلكان يروي في «وفيات الأعيان» بعض أشعار القاضي عياض مروية عن ولده واستبعد الدكتور بنشريفة أن يكون نقلها من كتاب التعريف ورجح أن يكون نقلها من «المطرب » لابن دحية. ويظهر أن وجه الاستبعاد أن نسخة الكتاب كانت نادرة في المغرب مقر مؤلفه فالشأن أن لا تكون موجودة في المشرق مقر ابن خلكان. ونجد بالنسبة للقرن الثامن أن كلا من ابن الخطيب في «الإحاطة» والنباهي في «المرقية العليا» ينقلان من الكتاب مصرحين بمؤلفه فابن الخطيب زيادة على أنه اعتمد عليه في ترجمة القاضي عياض ـ نوه به لأنه يقول عقب ما ينقله منه ، نقلته من كتاب ولده في مآثره وهو كناش نبيل «أو يقول » قال ولده في كتابه النبيل.

والنباهي فهو وإن ذكر الكتاب لم يكن ذكره له دالا على أنه طالعه أو ألم به ووهم حتى في نسبته لمؤلفه لأنه نص على أن المؤلف هو عياض الحفيد.

ويتجلى ما قلناه من هذا النص قال في «المرقوبة العليا ص 101 نشر لفى بروفانسال» قلت لكن القاضي أبو الفضل بمدينة مالقة مدة وتمول به إملاكا. وأصله بمدينة باسطة «ذكر ذلك حفيده في الجزء الذي صنفه في التعريف به وبتواليفه وبعض أخباره وخطبه والعجيب أن المقرى نقل هذا النص في «أزهار الرياض» وسكت عن تصويب ما فيه من الوهم. والواقع أن الكتاب بقي نادر الوجود إذ لم يعثر من نسخة قبل طبعه ونشره إلا على نسخة واحدة في الخزانة العامة بالرباط وهي مسجلة تحت عدد 553 ك وعليها اعتمد الدكتور بنشريفة في تحقيقه للكتاب والنسخة لا تخلو كما ذكر الدكتور بنشريفة من التحريف.

ومن مبررات قلة انتشار الكتاب المحتملة قول الدكتور «بنشريفة» فقد يكون احتفظ بنسخته الأصلية حددته وندرة وجود الكتاب لم تكن على كل حال لقلة جدواه. بل إن أهميته بقيت تتزايد باعتباره الوثيقة الوحيدة التي سجلها عن القاضي عياض. من رافقه في حياته وعاين سيرته وهي وحدها التي استقى منها المعلومات أكثر من عرف بالقاضي عياض. كما استقاها منها المقرى في إفراده سيرة عياض بالتأليف ومع كل ذلك فإن القاضي عياض بقي أشهر الأعلام في تاريخنا العلمي بل في تاريخ ثقافة الإنسان في كل عصر. وفي الشرق. كما في الغرب. والفضل في فضل القاضي عياض على سواه متعدد الجوانب. وفي الطليعة مؤلفاته التي بقيت إلى الآن تحتل الصدارة. ولا تجد من يزاحمها في مواضعها ولا سيما الشفاء بتعريف حقوق المصطفى. ولقد عرف الإمام اليوسي كيف يؤدي حق هذا القاضي الإمام (حين قال في حقه المغرب كله حمى لعياض).

3) كيف عرض أبو عبد الله محمد بن عياض حياة أبيه في (التعريف) لأنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنه على جادة واضحة هذه هي الشهادة الحقة. التي قدمها حول أبناء الوطن المغرب الرحالة الكبير ابن جبير. قدمها بعد أن جاب مختلف الأقطار. وبلا مافيها من أوضاع وتتبع الأخبار وقد أثبت التاريخ أنها ليست شهادة عصرها فحسب. ولا بينة أبانها. فقط وإنما هي شهادة تأكدها عبر العصور.

الأفعال لا الأقوال. وتعيدها الحقائق عبر مختلف الأجيال لقد أقام مصالح هذه الشهادة ملوك أوفياء. وعلماء أتقياء.

فالملوك حافظوا على مشروعية الحكم الإسلامي في الصحيح الذي أسسه المولى إدريس بن عبد الله وكان افتى بشرعية هذا الحكم وسلامته من أية شبهة أئمة مجتهدون من بينهم الإمامان أبو حنيفة النعمان ومالك إمام دار الهجرة اقتبسنا هذا تذكرة فيما أورده الأستاذ سيدرج من عند قوله تعالى : (قال إني جاعلك للناس إماما) فليراجع لذلك تفسير المنار. وسيبقى بفضل الملوك العلويين سالما من أية شبهة مصونا من المستوردات الفاسدة.

والعلماء. حافظوا على العقيدة فصانوها من الاهواء وعلى الشريعة فطهروها من البدع التي هي شر الداء. لم تستطع ـ بفضلهم ـ الفرق الضالة أن تجد لها في المغرب مكان. فأحرى أن يعلو لها فيه شأن فبفضل علماء المغرب الأصفياء. أحب المغاربة بصدق الرسول عليه السلام. فما تفرق لذلك دينهم. ولا كانوا شيعا خوفا من أن يتبرا منهم نبيهم إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء فمن المنبع الإسلامي ارتوى المغاربة بالعلم وبالعدل فتشبعوا بالعدالة كل جوانب المعرفة فكانت لذلك بذلك بيئتهم بيئة الإسلام السليم. وكان مجتمعهم مجتمع العلم النافع. أدرك العلماء في المغرب أن محبة الله مرتبطة بمحبة الرسول التي لا يفصح عنها تمام الإفصاح إلا الاتباع ولا يترجم مكنونها في القلب إلا تطبيق لأحكام الشريعة معزز بسعة الإطلاع. لذلك كانت مهمتهم العلمية مزدوجة.

أ ـ التبحر في مختلف العلوم : اللغة والنحو. والبيان. والمنطق. والقران. وعلومه والحديث وعلومه. والفقه وأحواله... الخ.

ب ـ الإنتفاع الذي أناطه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلماء إذ قال : فلن ينفعكم الله عز وجل حتى تعملوا بما تعلمون. « هذا بعض من حديث » رواه الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه اقتضاء العلم : العمل عن معاد بن جبل ونصه قال (ص) تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن ينفعكم الله عز وجل حتى تعملوا بما تعلمون في رواية (لا فلن يأجركم الله عز وجل (ص 21).

والعمل بالعلم أخذ عند العلماء في المغرب اتجاهين ،

أ - إنفاقه بالتدريس والاقتناء والقضاء والتأليف والاتصال بالرحلات وبالإجازة والسماع.. الخ..

ب - تطبيق ما علموا في أنفسهم بالإستقامة التامة. وفي سواهم بتوجيههم التوجيه الصحيح تطبيقا لقوله (ص) لسيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه (والله لأن يهدي بهذيك رجل واحد خير لك من حمر النعم) رواه أبو داوود سنن أبي داوود ص 22 ج 3 فبهدى العلماء اهتدى المغاربة وماهداهم غير كتاب الله وسنة رسوله لكنهم اختاروا بعد شدة التمحيص وكثرة الموازنة والمقارنة أن يكون المنهج إليهما في أحكام الفروع المذهب المالكي. وفي العقائد المذهب الأشعري من أهل السنة. فكانت وحدة المذهب في المغرب ضمانا لوحدة الأمة ولسلامتها من الوقوع في الفتنة. فما استطاع مذهب الخوارج أن يتخطى عتبة المغرب ليستقر. ولا الاعتزال أن ينزل بساحته. ولا مذهب العبيديين من الشيعيين أن يجد به قرارا. جاء في كتاب (قيم دولة المرابطين) قول مؤلفه الدكتور حسن أحمد محمود (كان المالكية المعقل الذي عصم أهل المغرب من شرور الفتنة في عصر كانت ريح الشر تعصف بالمجتمع صدت المالكية الخارجية فاتت عليها وصرعت المعتزلة وانتصرت على العبيديين وحفظت على المجتمع. وحدته وقوته وسلامته للأجيال التالية سليما معافى) نقلا عن المناهل خاص بالقاضي عياض.

ومن أبرز علماء المغرب الهداة. وأجل روادهم الأباة الذين بيضوا وجه المغرب ورفعوا شأنه العلمي في الشرق والغرب. القاضي عياض فهو امام من أئمة العلم، وشيخ من شيوخ المعرفة. كان راسخا اتم الرسوخ في علم الحديث والرواية. ومتضلعا في اللغة وبارعا في الأدب والتاريخ. ومتمكنا في الفقه. فكتبه في كل ذلك وفي سواه حجة. ولا غنى عنها للدارسين والباحثين. فباعه في صنوف علوم زمانه طويل وعارضته في جميع المعارف الإنسانية الرائجة إذ ذاك قوية. وضع الله لعياض القبول في الأرض فذكره جار على كل لسان والاهتمام به وبآثاره الأدبية والعلمية متوال بتوالي الأزمان. ولم يكن ذلك لكثرة من ألف فيه ولكن لكثرة

البركة التي وضعها الله فيه فما ألف فيه علماء ـ من معاصريه إلا ابنه أبو عبد الله عمر بن عياض.

فمن مقدمة كتابه يتبين أن الحاجة مست إلى معرفة أخبار القاضي فتوجه إلى ابنه من رجا منه أن يؤلف في سيرة والده فلم يجد بدا من تنفيذ الرغبة ومن أداء هذه المهمة ويمكن حصر ما جاء في الكتاب في المواضيع الآتية :

1) ـ نسب القاضي عياض : من رجالات نسبه تسعة ثلاثة منهم يسمون بعياض الثاني والخامس والتاسع فهو عياض الرابع وابن ابنه عياض الخامس وثلاثة يسمون بموسى الأول والرابع والثامن واسم الثالث عمرون والسادس محمد والسابع عبد الله. قال عقب ذكر النسب (وكان أبي رحمة الله عليه يقول : لا أدري هل محمد والد عياض أم بينهما رجل فهو جده) فعلى اعتبار أنه جد يكون النسب إلى عياض الأول بالغا العشرة. واحد منهم غير معروف الإسم وهو السادس. وذكر أبو عبد الله محمد أن أجداد أبيه عياض كان لهم استقرار بالأندلس جهة بسطة كما كان لهم استقرار بالقيروان ولم يثبت عنده أي الاستقرارين أضبط لأنه قال وكان لهم الاستقرار بالقيران لا أدري أقبل استقرارهم بالأندلس أم بعد ذلك. وقال نقلا عن غيره وكانت لهم بالقيروان مآثر عليها لمحض الحق أوضح برهان. سما هذا الغير بالحكم وسماه المقرىء في أزهار الرياض بحكيم. ثم استقروا بعد بالأندلس أو القيروان. بمدينة فاس. ومن فاس انتقلوا بعد دخول بني عبيد المغرب ـ إلى مدينة سبتة واستمر استقرارهم بها. والمنتقل من الأجداد إلى مدينة سبتة هو عمرون بن موسى وعمرون كان رجلا خيرا صالحا من أهل القرآن حاجا غازيا حج احدى عشرة مرة وغزى مع الحاجب محمد بن أبي عامر المنصور وتولى معه خروجه من فاس إلى سبتة على أجداد عياض كان لهم جاه كبير ومال وافر. قال يحكيها : (والسبب أن عمرون كانت له ولاية بمدينة فاس نباهة فأخذ ابن أبي عامر رهنا عن أعيان مدينة فاس. فأخذ فيهم أخوى عمرون عيسى والقاسم. فخرج عمرون إلى مدينة سبتة ليقرب من أخبارها بمدينة قرطبة فاستحسن سكنى سبتة) وما أن قرر عمرون الاستقرار بسبتة حتى اشترى من المال

الذي حمله معه الأرض المعروفة بالمنارة بنى بها مسجدا بقي ينسب إليه وشيد بها دورا وحبسها عليه وما بقي من الأرض جعله مقبرة لدفن أموات المسلمين وانقطع في المسجد للعبادة حتى لحق بربه سنة 337 هـ هذا محمد مع ذكره أبو عبد الله محمد في نسب أبيه وقد جعلنا نستشعر بعض الاستفسارات منها :

أ ـ لماذا لم يعدد من النسب سوى تسعة ؟ فهو حين بلغ به العدد إلى عياض الأول قال (اليحصبي) وهذه النسبة ترشدنا إلى أن أصل عياض من عرب اليمن لأن النسابين يذكرون أن (اليحصبي) نسبه الى (يحصب) بن مالك وهو أخو ذي (أصبح) الحارث ابن مالك الذي هو أحد أجداد الإمام مالك إمام دار الهجرة. والمترجمون للإمام مالك يرفعون نسبه إلى ذي (أصبح) الحارث بن مالك وابن عياض لم يرفع نسب أبيه إلى (يحصب) ليؤكد به شرف الاتصال النسبي بالإمام مالك لأن هذا المقام لا تكفي فيه مجرد النسبة. فقد يكون داعي الاحتجاج عن استيفاء النسب هو ما التزم به أبو عبد الله محمد بن عياض من الاختصار. كما أنه قد يكون السبب في اقتصاره على من ذكرهم من الأجداد هو اكتفائه بذكر من نشأ منهم في ظل الإسلام لأن الزمن الفاصل بين القاضي عياض وبين جده (عياض) الأول هو من حيث تقدير فترات العمر لهم بحسب العادة شامل لمن ذكرهم من الأجداد وعلى هذا الاعتبار نبرر سبب تكرار اسم عياض بأنه الاعزاز بالجد الذي كان أول من احتمى بحمى الإسلام. ومهما يكن من أمر فنحن نربأ بابن القاضي عياض ونربأ بشكل أكثر بالقاضي عياض نفسه أن يكون كل منهما يجهل من فعل عياض الأول من الأجداد. فمكانة القاضي عياض في علم التاريخ لا تبرر له الجهل بسلسلة نسبه كاملة. كما أنها لا تبرر له التقاعس عن البحث عمن جهله منهم إلا أن ما نقله أبو عبد الله محمد عن أبيه من أنه لم يكن يدري هل كان محمد والد عياض الثاني. أم هل كان جده ؟ يجعلنا نفترض أن القاضي عياض لم يستطع أن يجد الوسيلة التي بها يكون على بينة من جميع أجداده ويقوى هذا الافتراض. كون أبي عبد الله محمد لم يدر هل سبق استقرار أجداده

بالقيروان ثم الأندلس أم هل سبق استقرارهم بالأندلس ثم القيروان. ومجال البحث يبقى متسعا.

ب ـ والاستظهار الثاني هو لماذا لم يذكر أول من دخل من الأجداد إلى المغرب الإسلامي ؟ والجواب هو احتمال أن يكون السبب هو ما التزم به من الاختصار. وهذا الاحتمال لا يقويه تردد المؤلف في أول الاستقرارين أهو الأندلسي أم هو القيرواني. ونحن نفترض أن يكون الدخول في العهد الإسلامي لا قبله. وأنه على الشكل المعهود في تلك العهود وهو الجهاد ونشر الإسلام. والشيء الذي لا نتردد فيه. هو أن أجداد عياض كانوا يجمعون بين علو المقام ووفرة الأموال. وبين الاستقامة الدينية نستنشق هذا من قوله نقلا عن غيره :

وكانت لهم بالقيروان مآثر عليها لبعض الحق أوضح برهان ومن قوله : (كانت لعمرون ولآبائه مدينة فاس نباهة) ومن كون محمد بن أبي عامر أخذ اخوى عمرون من بين من أخذهم من أعيان فاس رهنا كما نستنشقه مما ذكره في سيرة جده عمرون) وما قام به هذا بعد أن استقر بمدينة سبتة من أعمال البر. ونستنتج من كل ذلك أن آل القاضي عياض عريقون في النسب عظيمون في الجاه. كثيروا المال. قويوا الصلة بالقران وبمختلف المعارف الإسلامية حريصون كل الحرص على تطبيق التعاليم الإسلامية من جهاد وحج. وغيرهما وهم بالإضافة إلى كل ذلك قد مارس بعضهم الحياة في القيروان وبعضهم في الأندلس وبعضهم في فاس وكلها حاضرات (الإزدهار الإسلامي والتطور الحضاري في تلكم الفترات. فتناقلوا من كل منها أحسن ما مارسوه وعاينوه فنشأ من أجل كل ذلك الآباء أبناءهم على مقتضاه. ثم نقول أستنادا على ما تقدم (نشأ القاضي عياض في بيت جاه ومال واستقامة دينية وتقاليد سامية وهذه هي المعطيات التي ساعدت على أن يكون القاضي عياض نابغة منذ النشأة. لكنه عرف كيف يرد الجميل. فقد ارتفعت به أسرته أكثر مما رفعته واستمدت منه بيئة أكثر مما أمدته فشرفت كل من الأسرة البيئة بالقاضي عياض لذلك لا يسعنا إلا أن نردد مع من أنشد :

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان

أبــو الفضــل عيــاض
476 ـ 544 هـ

للأستاذ : الحاج أحمد لحبابي

بسم الله الرحمن الرحيم

أبــو الفضــل عيــاض

476 ـ 544 هـ

ماذا أقول عن القاضي أبي الفضل عياض وهو البحر الزاخر علما وأدبا وأخلاقا الذي بهر عظماء علماء عصره ، عصر النهضة الإسلامية بما فيها من علوم تفسير وحديث وفقه وعلوم لسان وأدب وتاريخ. فدانوا له بالإكبار والإجلال. واستشرفوا مكانته العلمية ليقبسوا منها. ويستضيئوا بنورها في مدلهمات المسائل العلمية على اختلافها ويستنيروا بنور التوفيق الإلاهي الذي جعله الله حليف خادم الحضرة النبوية أبي الفضل.

فلقد كان من العلماء الأفذاذ القلائل الذين بيضوا وجه المغرب وأثقلوا كفة ميزانه بما جمعوه من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وبما ألفوه من الكتب القيمة العظيمة التي لولاها لضاع الإسلام.

وهكذا ربما لا نجد كتابا من كتب التفسير أو الحديث أو الفقه إلا وفيه قال أبو الفضل عياض مع الترحم والترضية عنه رضي الله عنه وعمن حمل إلينا مشعل الإسلام مشتعلا قويا زاهرا.

هل أكتب عن تواضعه ورحلاته حتى إلى من هم أقل منه علما ؟ ويظهر ذلك فيما قال أبو الحسن بن سراج حين أراد الرحلة إلى بعض الأشياخ للأخذ عنه ، (لهو أحوج إليك منه إليك). وقال فيه أبو محمد ابن جعفر ، (ما وصل إلينا من المغرب مثل عياض) (أزهار الرياض ج 5 ص 80).

هل أكتب عن صلابته في الدين وقيامه بإقامة حدود الله غير متهيب الألسنة الحداد ولا الهجو المقذع. كما تحكيه قصة إقامته الحد على الأديب الكبير

صاحب (قلائد العقيان) الفتح بن عبيد الله بن خاقان حين قصد مجلس قضائه مخمرا فاستثبت في استنكاهه وحده حدا تاما (الأزهار : ج 5 ص 91).

هل أكتب عن كراماته التي رآها كثير من أهل الصلاح كالفقيه المبارك سيدي عبد العزيز اللمطي والشيخ أبي محمد بن الصائغ وغيرهما (الأزهار ج 5 ص 88..).

هل أكتب عن تقدير شيوخه له وإعجابهم به وبالأخص شيخه الإمام الكبير الحافظ أبا بكر بن العربي-رحمه الله تعالى- حين أوقفه أبو الفضل على كتابه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) وأكتفي في هذا الموضوع بقول الإمام أبي عمرو المالقي في أبي الفضل : (الأزهار : ج 5 ص 81).

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان العين راء في اسمه كي يكتموه وأنه معلوم
لولاه ما فاحت أباطح سبتة والروض حول فنائها معدوم

ويقول أبو محمد محارب بن محمد بن محارب الودآشي :

ففي الآداب جدول ماء وفي الآراء بحر لا يخاض
ويبرم ما يروم فليس يخشى على أمر أن أبرمه انتقاض

هل أكتب عن إنصافه وتواضعه الذي هو من شيم الأبرار المخلصين والناهجين نهج السلف الأقدمين وأكتفي من ذلك بالقصة التالية : (الأزهار : ج - 3 ص 13).

ذكر الشيخ العلامة أبو زيد عبد الرحمن الغرناطي المعروف بابن القصير أنه دخل مجلس القاضي أبي الفضل عياض-رحمه الله- إذ كان قاضيا عندهم بغرناطة. وبه جماعة من الطلبة والأعيان. يسمعون تأليفه المسمى بالشفا فلما وصل القارىء إلى هذه الكلمات «ومن قسم به أقسط» قرأه ثلاثا،وكذلك كان في الأصول التي كان يقرأ بها. قال : فقلت للقاضي : وصل الله توفيقك هذا لا يجوز في هذا الموضع. فقال : ما تقول ؟ فقلت : إنما هو أقسط. لأن المراد في هذا الموضوع. عدل. فالفعل

منه رباعي كما قال الله تعالى : (واقسطوا ان الله يحب المقسطين) «الحجرات 9» وأما قسط فإنما هو جار، كما قال تعالى : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) الجن 15 فتعجب أبو الفضل وقال لمن حضر: إن هذا الكتاب قد قرأه على من العالم كما لا يحصى كثرة، ولا أقف على منتهى اعدادهم، وما تنبه أحد لهذه اللفظة. قال ابن القصير : وفاه بلسان الإنصاف، وشكر بفضله، وأبلغ ببلاغة علمه في تحسين المناقب والأوصاف وأورثني ذلك عنده كرامة ومبرة، ولم تزل مستمرة، وصنع من المكارم أجل صنيع وأبره، رحمه الله من طود علم، وهضبة فضل وحلم، وتغمده وايانا برحمته، ونفعنا كما نفع في الدنيا والآخرة بعلمه.

كل هذه الموضوعات وغيرها مما يمس جانبا من جوانب القاضي أبي الفضل تحلو الكتابة فيه ويحتاج إلى جهد في الاستقصاء والبحث والموضوعية.

ولكن الشيء الذي آثرت الكتابة فيه، هو موقفه من قصة الغرانيق التي زعزعت إيمان كثير وكثير.

فلقد أضاف لموقفه منها الى حياته العلمية وصلابة إيمانه الراسخ، منقبة ومعجزة حيث دافع عن العصمة النبوية حتى أبقى لها في نفوس المومنين قوتها ونصاعتها ومفهومها الشمولي الواسع.

ونستطيع أن نقول : ان موقف العلماء قبله النافين لهذه القصة، لم يكن بقوة موقف أبي الفضل عياض وشيخه الحافظ أبي بكر بن العربي، فهم وان نفوها دفاعا عن العصمة النبوية لشدة إيمانهم بذلك، لكن موقف عياض وابن العربي كان هجوميا موقفا على كل من يثبت القصة ليشتم منها ما ينافى العصمة.

وآثرت أن يكون عنوان البحث :

موقف أبي الفضل عياض من قصة الغرانيق يساير المنطق العلمي والإيماني

وسبب اختياري لهذا الموضوع أن أؤكد بالطرق العلمية الصحيحة نفي قصة الغرانيق وابطالها وعدم ثبوتها، إذ لو ثبتت لكانت ثلمة وثغرة عظمى في العصمة

التي هي اساس في التصديق برسالته صلى الله عليه وسلم،والتصديق بكل ما جاء به عن الله.

وأيضا لأثبت أن هذه القصة هي من صنع المتربصين بالإسلام، وبالعصمة النبوية الطاهرة. - وياما أكثرهم في كل زمان ومكان وخصوصا في عصر الدعوة ونقلها. أما المغفلون الذين ينقلون كل غث وسمين. أو الذين لا يرون في ثبوتها ما ينافي العصمة بسبب أنه وان وقع الإلقاء من الشيطان فقد نسخ الله ذلك وأحكم آياته. وأوقعهم في هذا الفهم، الاشتراك اللفظي في «تمنى وأمنية» كما سيتبين :

قصة الغرانيق كما ذكرها القاضي عياض في كتابه : (الشفا) ج 2.

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة النجم. وقال : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال : تلك الغرانيق العلا. وأن شفاعتهن لترتجى ويروى لترتضى.. وفي رواية : وأن شفاعتهن لترتجى وأنها لمع الغرانيق العلا. وفي أخرى : والغرانقة العلا تلك الشفاعة ترتجى. فلما ختم السورة سجد وسجد معه المسلمون والكفار لما سمعوه أثنى على آلهتهم...

وقبل أن أتناول البحث في القصة وموقف العلماء منها. مثبتين ومنكرين وأسانيدها التي رويت بها ينبغي أن أقدم أن سورة النجم التي دست فيها هذه القصة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة في السنة الخامسة من البعثة وقبل الهجرة بثمان سنوات إذ النبي صلى الله عليه وسلم مكث بمكة بعد مبعثه وقبل الهجرة ثلاث عشرة سنة وفي السنة الخامسة نفسها رجع مهاجرة الحبشة إلى مكة بسبب ما قيل من أن رجوعهم كان لما علموا أن قريشا أسلمت لأنه عليه السلام قال : تلك الغرانقة العلا... ولم يحضر وقت القصة - على فرض وقوعها - من رويت عنهم. إذ لم ترو إلا عن التابعين. ولم ترو عن ابن عباس إلا من طريق الكذبة الوضاعين. بالإضافة إلى أن ابن عباس أيضا لم يكن إذ ذاك ولد. فقد ثبت

أنه ولد وبنو هاشم في الشعب قبل الهجرة بثلاث وقيل بخمس والأول أثبت. وفي الصحيح عنه رضي الله عنهما : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ختين فعلى هذا يكون ابن عباس قد رواها عن غيره - على فرض صحة روايتها عنه - كما رواها التابعون عن غيرهم - بالصفة التي ستأتي - فكيف نثبت هذه القصة الخطيرة بروايتها عن مجهول العين والعدالة مع أنها مما تتوفر الدواعي على نقلها تواترا ؟؟ إذ قد كان حضر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم عدد من الصحابة الذين كانوا أسلموا وقت ذاك ولم تنقل عن أحد من الصحابة غير ابن عباس - بالصفة المتقدمة - وهذا ما لا يثبت بالإحتمالات الواهية.

وأيضا فكيف نقل سهوه صلى الله عليه وسلم في الصلاة عن كثير من الصحابة ولم تنقل زيادته من القرآن - على حد زعمهم - إلا عن ابن عباس الذي كان ما يزال في عالم الأرواح... فهي قصة مرسلة مجهول من رويت عنه.

موقف المفسرين والمحدثين من هذه القصة

من المنكرين لقصة الغرانيق :

1) الفخر الرازي في تفسيره الكبير حيث قال : أما أهل التحقيق فقد قالوا : هذه الرواية باطلة موضوعة. واحتجوا على ذلك بالقرآن والسنة والمعقول وأطال في ذلك.

2) أبو بكر البزار حيث قال : هذا لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا - يعني : طريق ابن جبير -

3) البيهقي حيث قال : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل. ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعنون فيهم.

4) محمد بن إسحاق جامع السيرة حيث قال : هذا من وضع الزنادقة وصنف في ذلك كتابا. كما نقله عنه ذلك الفخر الرازي.

5) أبو منصور الماتريدي. في كتابه: «حصص الأتقياء» حيث قال كما نقل عنه ذلك الألوسي : الصواب أن قوله : تلك الغرانيق العلا... من جملة إيحاء

الشياطين إلى أوليائه من الزنادقة، حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين، ليرتابوا في صحة هذا الدين، وحضرة الرسالة بريئة من ذلك.

6) الحافظ المنذري، حيث ذكر شهاب الدين الخفاجي في الجزء الرابع من كتاب: (نسيم الرياض، في شرح شفا القاضي عياض) ص 85 أن ابن سيد النٰاس قال: بلغني عن الحافظ المنذري أنه كان يرد هذا الحديث من جهة الرواية بالكلية.

7) الإمام الشوكاني في تفسيره: (فتح القدير) بعد حكاية ما قاله جماعة المفسرين من أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تمنى أن لا ينزل عليه شيء ينفر قريشا عن الإيمان به لحرصه على إيمانهم جرى على لسانه : تلك الغرانيق العلا. وأن شفاعتهن لترتجى. قال : لم يصح شيء من هذا ولا ثبت بوجه من الوجوه ومع عدم صخته، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه. قال الله : (ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقال : (وما ينطق عن الهوى). وقال : (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم). فنفى المقاربة الركون فضلا عن الركون.

8) القاضي أبو بكر بن العربي، وعنه نقل القاضي عياض في كتابه: (الشفا) حيث قال : وصدق أبو بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير... وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته واضطراب روايته وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول : قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول : بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه... وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ماهكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها، فلما بلغ النبي ذلك قال : والله ما هكذا أنزلت، ومن حكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق فيها ضعيفة واهية إلى آخر ما نقله عن ابن العربي.

9) القاضي عياض حيث قال في كتابه (الشفا) أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا حديث منكر من جهة الرواية والدراية. لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب. المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وهكذا أنكر هؤلاء السادة العلماء وغيرهم كثير قصة الغرانيق من أصلها واحتج ابن العربي وعياض على ذلك من ناحية الصناعة الحديثة بشيئين اثنين :

1) اضطراب الرواية.

2) كون القصة لم يخرجها أحد من أهل الصحة ولا رواها ثقة بسند سليم.

أما اضطراب الرواية فظاهر واضح مما نقلناه عن الحافظ أبي بكر بن العربي.

وأما كون القصة لم يخرجها أحد من أهل الصحة ولا رواها ثقة بسند سليم وهو ما نازع فيه الحافظ ابن حجر ابن العربي وعياض حيث قال : (وقد تجرأ أبو بكر بن العربي كعادته فقال : ذكر الطبري روايات كثيرة باطلة لا أصل لها. وهو إطلاق مردود عليه وكذا قول عياض : هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل..) وذلك بعد ما ذكر للقصة ثلاثة طرق قوية: طريق ابن جبير. وطريق أبي بكر بن عبد الرحمن. وطريق أبي العالية. وسنرى هذا فيما يلي :

من رويت القصة عنهم ؟ المخرجون لها، صيغهم.

إن هذه القصة رويت عن ابن عباس وعدد من التابعين منهم :

1) محمد بن فضالة والمطلب بن عبد الله بن حنطب.

2) الضحاك.

3) قتادة.

4) عروة بن الزبير.

5) أبو صالح.

6) محمد بن كعب القرضي ومحمد بن قيس.

7) أبو العالية.
8) ابن شهاب.
9) سعيد ابن جبير.

الصيغة الأولى :

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وهو بمكة فأتى على هذه الآية : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) النجم 19 ـ 20 ، فألقى الشيطان على لسانه : إنهن الغرانيق العلا. فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء) الآيات من سورة الحج 52.

المخرج : ابن مردوية.

الطريق :

1) الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.
2) أبو بكر الهدلي أيوب عن عكرمة عن ابن عباس.
3) سليمان اليمني عمن حدثه عن ابن عباس.
4) محمد بن سعد عن والده سعد بن محمد عن عمه الحسين

المخرج : ابن جرير الطبري.

الطريق :

محمد بن سعد عن أبيه قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس أما الطريق الأول ففيه الكلبي. وهو محمد بن السائب ابن بشير بن عمر الكلبي أبو النظر الكوفي. قال: ابن حاتم : أجمعوا على ترك حديثه. واتهمه جماعة بالوضع. مات سنة 146 (خلاصة تذهيب الكمال 288).

وقال الحاكم : كان الكلبي سبائيا من أولئك الذين يقولون إن عليا لم يمت. وأنه راجع إلى الدنيا ليملأها عدلا كما ملئت جورا. وإن رأوا سحابة قالوا : فيها أمير المومنين (نصب المجانيق) وأبو صالح فهو بآدام بمعجمة بين الفين

مولى أم هانىء مدلس يروي عن مولاته وعلي وا بن عباس... وقال النسائي : ليس بثقة (الخلاصة ص 46).

وأما الطريق الثانية ففيها أبو بكر الهذلي قال الحافظ في التقريب: إخباري متروك.

وأما الطريق الثالثة ففيها مجهول لم يسم. والحافظ ا بن حجر-رحمه الله-بعد ماساق الحديث من طرقه قال : وكلها ضعيف أو منقطع (نصب المجانيق).

وأما الطريق الرا بعة فتتحد مع طريق ا بن جرير وكلها مسلسلة بالضعفاء الوضاعين (نصب المجانيق) ومنهم الحسن بن عطية بن سعد العوفي. قال أبو حاتم : ضعيف. (الخلاصة ص 67) وفي تعليقه. قال البخاري: ليس بذلك.

الصيغة الثانية :

عن محمد بن فضالة الظفري، والمطلب بن عبد الله بن حنطب، قالا : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه كفا عنه، فجلس خاليا، فتمنى، فقال : ليته لا ينزل علي شيء ينفرهم عني وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ودنا منهم، ودنوا منه، فجلس يوما مجلسا في ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : (والنجم إذا هوى) حتى إذا بلغ. (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان كلمتين على لسانه : تلك الغرانيق العلا وأن شفاعتهم لترتجى. فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، ثم مضى فقرأ السورة كلها. وسجد القوم جميعا، ورفع الوليد بن المغيرة ترا با إلى وجهه فسجد عليه وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود... فرضوا بما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا : قد عرفنا أن الله يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، وأما إن جعلت لنا نصيبا فنحن معك، فكبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم حتى جلس في البيت، فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام، فعرض عليه السورة، فقال جبريل : جئتك بهاتين الكلمتين.... فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، قلت على الله مالم يقل. فأوحى الله إليه ، (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذالا تخذوك خليلا. ولولا إن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا. إذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا) الاسراء 83، 85.

المخرج :

ا بن سعد والواحدي كما في القرطبي (نصب المجانيف)

الطريق :

1) محمد بن عمر عن يوس بن محمد بن فضالة الظفري.

2) كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله بن حنطب.

أما الطريق الأولى: ففيه محمد بن عمر (وهو الواقدي كما قال الألباني) أبو عبد الله المدني قاضي العراق. قال البخاري : متروك ، قال ا بن سعد : مات سنة 207 (الخلاصة) وفي التعليق.وقال أحمد : هو كذاب. وقال ا بن معين: ضعيف.

وأما الطريق الثانية ففيها المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزومي المدني.. قال ا بن سعد : كان كثير الحديث. ولا يحتج بحديثه وفيه كثير ا بن زيد الأسلمي ثم التميمي مولاهم... قال أبو زرعة : صدوق وفيه لين. قال: الذهبي توفي بعد الخمسين ومائة (الخلاصة).

الصيغة الثالثة :

عن الضحاك قال في قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء...) فإن نبي الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة أنزل الله عليه في آلهة العرب، فجعل يتلو اللات والعزى، ويكثر ترديدها. فسمع أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم يذكر آلهتهم، ففرحوا بذلك، ودنوا يستمعون. فألقى الشيطان في تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم ، تلك الغرانيق العلا. ومنها الشفاعة ترتجى. فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم كذلك. فأنزل الله عليه ، وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء) إلى (والله عليم حكيم).

المخرج : ابن جرير الطبري

الطريق :

قال: حدثت عن الحسن بن الفرج، قال: سمعت أبا معاذ يقول : أخبرنا عبيد قال : سمعت الضحاك يقول ...

وهو ضعيف إذ شيخ ابن جرير مجهول حيث قال : حدثت والضحاك ابن كان ابن مزاحم فهو كثير الإرسال. قال الحافظ حتى قيل أنه لم يثبت له سماع، وأبو معاذ إن كان هو البصري فهو مجهول (الخلاصة).

الصيغة الرابعة :

عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمنى أن لا يعيب الله آلهة المشركين فألقى الشيطان في أمنيته. فقال : إن الآلهة التي تدعى، أن شفاعتها لترتجى وأنها للغرانيق العلا. فنسخ الله ذلك، وأحكم الله آياته. (أفرأيتم اللات والعزى) حتى بلغ من سلطان. قال قتادة : لما ألقى الشيطان ما ألقى قال المشركون : قد ذكر الله آلهتهم بخير ففرحوا بذلك. فذكر الله قوله : (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض).

المخرج : ابن جرير

الطريق :

1) الحسن قال : أخبرنا معمر عن قتادة...

2) ابن عبد الأعلى قال : حدثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة...

أما معمر فهو ابن راشد الأزدي مولى مولاهم عبد السلام بن عبد القدوس أبو عروة البصري ثم اليماني أحد الأعلام، عن الزهري، وهمام بن منبه، وقتادة قال العجلي: ثقة صالح، وقال النسائي: ثقة مامون.

أما عبد الرزاق فهو ابن همام بن نافع الحميري أبو بكر الصاغاني أحد الأئمة الأعلام، قال أحمد: من سمع منه بعد ماذهب بصره فهو ضعيف السماع...

نسبوه إلى التشيع، وقال أحمد : لم أسمع منه شيئا ـ مات سنة 211 عن خمس وثمانين سنة (الخلاصة).

الصيغة الخامسة :

عن عروة ـ يعني ابن الزبير ـ في تسمية الذين أخرجوا إلى المرة الأولى ـ قلت وفيه ـ فقال المشركون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير، أقررناه وأصحابه فإنه لا يذكر أحدا ممن خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر به آلهتنا من الشتم والشر، فلما أنزل الله تعالى السورة التي يذكر فيها : (النجم) وقرأ (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان فيها عند ذكر ذلك، ذكر الطواغيت، فقال : وإنهن من الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن لترتجى وذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك، وزلت بها ألسنتهم، واستبشروا بها، وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر السورة التي فيها النجم سجد، وسجد معه كل من حضره من مسلم ومشرك، غير أن الوليد بن المغيرة...

المخرج : الطبراني في المجمع (6 / 32 ـ 34) و (7 / 70 ـ 72).
المجمع الكبير (3 / 2) الوجه الثاني من النسخة الخطية.
الظاهرية رقم (283) ذكر ذلك الألباني(نصب المجانيق)
الطريق :
1) مرسلة في المجمع
2) محمد بن عمر بن خالد الحراني عن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة...

أما عروة فهو ابن الزبير بن العوام ـ رضي الله عنهما ـ أحد الفقهاء السبعة وأحد علماء التابعين، عن أبيه وأمه وخالته عائشة وعلي ومحمد بن مسلمة.. قال : ابن سعد : ثقة كثير الحديث فقيه عالم ثبت مامون... قال ابن المديني: مات سنة 92 (الخلاصة).

أما أبو الأسود ربما كان هو الديلمي اسمه ظالم بن عمرو، أو عمرو بن سفيان قاضي البصرة.

وأما ابن لهيعة فهو عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي الغافقي أبو عبد الله المصري قاضيها وعالمها ومسندها... قال يحيى بن معين: ليس بالقوي، وقال مسلم : تركه وكيع ويحيى القطان وابن مهدي، مات سنة 174 (الخلاصة) فهذا يعل بالإرسال ويضعف بابن لهيعة وجهل البعض.

الصيغة السادسة :

عن أبي صالح قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المشركون: إن ذكر آلهتنا بخير ذكرنا الآلهة بخير، فألقى في أمنيته : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) إنهن لفي الغرانيق العلا، وأن شفاعتهن لترتجى قال : فأنزل الله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء...) وفي لفظ السدي : خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ليصلي، فبينما هو يقرأ إذ قال: (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) فألقى الشيطان على لسانه فقال : تلك الغرانقة العلا، وأن شفاعتهن لترتجى، حتى إذا بلغ آخر السورة، سجد وسجد أصحابه وسجد المشركون لذكر آلهتهم، فلما رفع رأسه حملوه فاشتدوا به قطري مكة يقولون نبي بني عبد مناف، حتى إذا جاء جبريل عرض عليه فقرأ ذينيك الحرفين، فقال جبريل : معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا فاشتد عليه فأنزل الله يطيب نفسه (وما أرسلنا من قبلك...).

المخرج : عبد بن حميد

الطريق :

المخرج 1 : السدي عن أبي صالح

المخرج 2 : ابن أبي حاتم

الطريق :

السدى لم يتجاوزه

المخرج 3 : ا بن مردوية

الطريق :

الكلبي عن أ بي صالح عن ا بن عباس

فأما أ بو صالح فهو باذام وقد تقدم أن النسائي قال : إنه ليس بثقة وأما السدى فهو (اسماعيل واسماعيل بن موسى) الخلاصة 412.

فإن كان الأول فهو اسماعيل بن عبد الرحمن بن أ بي كريمة السدى مولى قريش أ بو محمد الكوفي رمي بالتشيع عن أنس وا بن عباس و بآدام. وعنه أسباط ا بن نصر واسرائيل والحسن بن صالح قال ا بن عدي : مستقيم الحديث صدوق. توفى سنة 127. وإن كان الثاني فهو اسماعيل بن موسى الفزاري السدى... قال النسائي ليس به بأس قال ا بن عدي إذا أنكروا منه الغلو في التشيع. مات سنة 245. (الخلاصة 30 ـ 31) وعلى كل فضعف الحديث من الإرسال واضطراب اللفظ ور بما من التغالي في التشيع.

الصيغة السابعة :

عن محمد بن كعب القرضي ومحمد بن قيس قالا : ...

فذكرا في القصة أن ذلك كان في ناد من أندية قريش كثير أهله.

وأنه صلى الله عليه وسلم تكلم بالكلمتين ثم مضى فقرأ السورة.

وأنه سجد معه القوم جميعا.

وأنه لما أمسى جاءه جبريل فعرض عليه فقال جبريل: ماجئتك بهاتين.

وأنه مازال مغموما حتى نزلت عليه (وما أرسلنا...)

وأن مهاجرة الحبشة لما سمعوا أن أهل مكة أسلموا رجعوا...

وأنهم لما رجعوا وجدوا أهل مكة قد ارتكسوا.

المخرج : ا بن جرير ج 17 ص 131.

الطريق 1 : القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثنا حجاج عن أ بي معشر عن محمد بن كعب القرضي ومحمد بن قيس...

الطريق 2 : ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن يزيد ابن زياد المدني عن محمد بن كعب القرضي بأتم منه. قال الحافظ بن حجر في الفتح (ج 8 ص 339 المكتبة السلفية).

وذكره ابن إسحاق في السيرة مطولا... وكذا موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب الزهري، وكذا ذكره أبو معشر في السيرة له عن محمد بن كعب القرضي ومحمد بن قيس وبعد ماذكر له مخرجين رواة قال : وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإلا منقطع اهـ.

وأبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي بكسر السين الهاشمي مولاهم أبو معشر المدني، عن ابن المسيب في ت (الترمذي) قال الذهبي : لم يلقه ونافع. وعنه الليث والقوري وابن مهدى وطائفة. ضعفه القطان وابن معين وأبو داود والنسائي وابن خدى، وقال البخاري : منكر الحديث، توفي سنة 170. (الخلاصة في نجيح).

ويزيد بن زياد أو ابن أبي زياد المدني، عن محمد بن كعب وعنه مالك وثقه النسائي (الخلاصة في يزيد). فيزيد هذا ثقة لكن الراوي عنه ابن إسحاق مدلس وقد عنعنه.

الصيغة الثامنة :

عن أبي العالية قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما جلساؤك عبد بني فلان ومولى بني فلان، فلو ذكرت آلهتنا بشيء جالسناك. فإنه يأتيك أشراف العرب فإذا رأوا جلساءك أشراف قومك كان أرغب لهم فيك قال : فألقى الشيطان في أمنيته، فنزلت هذه الآية (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال : فأجرى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا. وشفاعتهن ترتجى، مثلهن لا ينسى، قال فسجد النبي صلى الله عليه وسلم حين قرأها، وسجد معه المسلمون والمشركون، فلما علم الذي أجرى على لسانه كبر ذلك عليه، فأنزل

الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) إلى قوله : (والله عليم حكيم).

المخرج : ابن جرير 310 (ج 17 ص 132)

الطريق :

1) المعتمر، قال : سمعت داود، عن أبي العالية :

2) ابن المثنى، قال : حدثنا أبو الوليد، قال : حدثنا حماد بن مسلمة عن داود بن أبي هند عن أبي العالية بأتم منه.

أما داود ابن أبي هند فهو الإمام الثبت أبو محمد البصري، رأى أنس بن مالك، وروى عن أبي العالية، وسعيد بن المسيب، وأبي عثمان النهدي والشعبي وعكرمة... وكان من حفاظ أهل البصرة ومفتيهم، حديثه في الكتب الستة، لكن في البخاري استشهادا، قيل مولده سنة 50 مات سنة 140 (التذكرة ج 1 ط 4).

وأما أبو العالية فهو الرياحي رفيع بن مهران البصري الفقيه المقري... رأى أبا بكر وقرأ القرآن على أبي وغيره، وسمع من عمر وابن مسعود وعلى عائشة رضي الله عنهم، وعنه قتادة، وخالد الحداء، وداود بن أبي هند... عن أبي خلدة عنه قال : كان ابن عباس يرفعني على سريره، وقريش أسفل منه، ويقول : هذا العلم يزيد الشريف شرفا، ويجلس الملوك على الأسرة مات سنة 93 (التذكرة ج 1 ط 2) وأما حماد بن سلمة فهو ابن دينار الريعي أحد الأعلام... وعنه ابن جريج وابن إسحاق شيخاه، وشعبة ومالك... وأمم، قال القطان : إذا رأيت الرجل يقع في حماد فاتهمه عِلى الإسلام، وقال وهيب بن خالد : كان حماد بن سلمة سيدنا وأعلمنا، توفى سنة 167 وناهز الثمانين.

وأما محمد بن المثنى فهو الحافظ الحجة أبو موسى العنزي البصري الزمن محدث البصرة... قال صالح جزرة : كنت أقدمه على بندار، وكان في عقله شيء.. قال أبو عروبة الحراني : ما رأيت بالبصرة أثبت من أبي موسى ويحيى بن حكيم. (التذكرة) قال الخطيب : مات سنة 252 (الخلاصة 305).

الصيغة التاسعة :

عن ا بن شهاب قال:أنزلت سورة(النجم)وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله قد اشتد عليه مناله وأصحابه من آذاهم وتكذيبهم... وكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله سورة (النجم) قال : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الانثى. ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الطواغيت. فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلا. وأن شفاعتهن لهي التي ترتجى. وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته.. فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود على غير إيمان ولا يقين ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين... وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وحفظه من البرية وقال الله : (وما أرسلنا قبلك من رسول...) فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم...).

المخرج : ابن حاتم كما في نقل ابن كثير ج 3 ص 229 ـ 230).

الطريق :

قال ا بن أبي حاتم : حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي، حدثنا محمد بن إسحاق الشعبي حدثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ا بن شهاب.

أما ا بن شهاب فهو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب القرشي الزهري أبو بكر المدني عالم الحجاز... عن ا بن عمرو سهل بن سعد وأنس... وعنه خلق ومالك قال ا بن المديني : له نحو ألفي حديث. قال ا بن شهاب: ما استودعت قلبي شيئا فنسيته... قال مالك : كان ا بن شهاب من أسخى الناس وتقيا ماله في الناس نظير. مات سنة 124 (الخلاصة).

وأما موسى بن عقبة فهو المدني الحافظ مولى آل الزبير بن العوام... قال الواقدي : كان موسى مفتيا فقيها. وقال أبو حاتم : صالح. وقال أحمد بن حنبل : عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة. مات سنة 141.

وأما محمد بن فليح، فهو ابن سليمان المدني عن أبيه ويونس بن يزيد... لينه ابن معين وقال أبو حاتم : ما به بأس ليس بذلك القوي مات سنة 177 (الخلاصة 294).

فالحديث ضعيف من حيث إرساله ومن حيث أحد رواته : محمد بن فليح.

الصيغة العاشرة :

عن سعيد بن جبير، قال : لما نزلت هذه الآية (أفرأيتم اللات والعزى) قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تلك الغرانيق العلا. وأن شفاعتهن لترتجى. فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال المشركون : إنه لم يذكر آلهتهم قبل اليوم بخير. فسجد المشركون معه. فأنزل الله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول) إلى قوله (عذاب يوم عظيم).

المخرج : ابن جرير 320

الطريق :

1) قال : حدثنا ابن بشار، قال حدثنا محمد بن جعفر، قال حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير.

2) حدثنا ابن المثنى، قال : حدثني عبد الصمد، قال، حدثنا شعبة، قال : حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير.

المخرج : البزار في مسنده (نصب المجانيق)

الطريق : عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس فيما أحسب (الشك في الحديث).

أما سعيد بن جبير فهو الوالبي الكوفي المقري الفقيه أحد الأعلام، سمع ابن عباس وعدي بن حاتم، قتله الحجاج - قاتله الله - في شعبان سنة 95 وله تسع وأربعون سنة وله قصة مع الحجاج وقت قتله، قال ابن إسحاق : كان يقال له جهيد الأمة، وعن القاسم بن أبي أيوب، قال : كان سعيد بن جبير يبكي بالليل حتى عمشت عيناه وسمعته يردد (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) بضعا وعشرين مرة

قال ميمون بن مهران : مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض رجل إلّا وهو يحتاج إلى علمه. (التذكرة ج 1 ط 3).

وأما أبو بشر فهو جعفر بن إياس اليشكري البصري الواسطي، عن عباد ابن شرحبيل صحابي وعن سعيد بن جبيرو الشعبي وعطاء ونافع، وعنه الأعمش وشعبه وهشيم، قال أبو حاتم : ثقة. قال ابن عدي : أرجو أنه لا بأس به.ضعفه شعبة في حبيب بن سالم ومجاهد... قال : يزيد بن هارون : مات سنة 125 (الخلاصة 53).

وأما شعبة سواء كان ابن الحجاج بن الورد العتكي أبا بسطام (80 - 160) أو شعبة ابن دينار الكوفي الذي توفي في خلافة هشام فهو ثقة :

وأما محمد بن جعفران كان ربيب شعبة الذي لزمه نحوا من عشرين سنة والذي لقبه بغندر المتوفى سنة 193 فقد قال فيه أربعين : كان من أصح الناس كتابا. وإن كان هو المدائني أبا جعفر البزار المتوفى سنة 206 فقد قال فيه أبو حاتم : لا يحتج به ويكتب حديثه.

وابن بشار هو محمد بن بشار بن عثمان العبدي أبو بكر الحافظ بندار، قال الذهبي انعقد الإجماع على الاحتجاج ببندار مات سنة 252.

فهذا السند أقوى سند في القصة.

وأما أمية بن خالد الذي هو في سلسلة البزار، فهو القيسي بالقاف ثم تحتانية أخو هدية. يكنى أبا عبد الله البصري عن شعبة والشوري، وعنه محمد بن بشار ومحمد بن المثنى وثقه أبو حاتم. قال البخاري : مات سنة 201 (الخلاصة في أمية).

وأما يوسف بن حماد فهو المعني أبو يعقوب البصري، عن عبد الوارث وحماد ابن زيد وطائفة وعنه مسلم والترمذي والنسائي ووثقه مات سنة 245.

الخلاصـــة :

وهكذا تبين أن طرق صيغ هذه القصة كلها ضعيفة سوى طرق أبي العالية. وابن شهاب وسعيد بن جبير. فإن بها قوة من حيث سلسلة السند. وهو ماقاله الحافظ ابن حجر-رحمه الله-في رده على ابن العربي وأبي الفضل عياض. حيث قال : وقد ذكرت ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح. وهي مراسل يحتج بها من يحتج بالمرسل. وكذا من لا يحتج به لاعتضاد بعضها ببعض. وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر. وهو قوله : ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق...

هل يحتج بالمرسل ؟ :

قال ابن الصلاح : وأما الاحتجاج بالمرسل فذهب السلف الأول الى قوله والإحتجاج به وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وعامة أصحابهما وفقهاء الحجاز والعراق.

وذهب الشافعي واسماعيل القاضي في عامة أهل الحديث وكافة أصحاب الأصول وأصحاب النظر الى ترك الحجة به وحكاه الحاكم عن ابن المسيب ومالك وجماعة أهل الحديث وفقهاء الحجاز ومن بعدهم من فقهاء المدينة. وعن الأوزاعي والذهبي وابن حنبل. والمعروف من مذهب مالك وأهل المدينة خلاف ماذكر... ثم قال:إن حكم المرسل حكم الحديث الضعيف إلا أن يصح مخرجه بمجيئه من وجه آخر.اهـ

وسيأتي عن سيدي عبد العزيز الدباغ أن الاحتجاج بالمرسل لا يقبل إلا فيما يثبت بخبر الاحاد.

تأويلات القصة على فرض الإحتجاج بالمرسل :

اتفق المفسرون والمحدثون وكافة علماء الإسلام على أنه يجب تأويل القصة بما لا ينافى عصمته صلى الله عليه وسلم.

وذكروا لذلك تأويلات، أحسنها وهو الذي ارتضاه الحافظ ابن حجر والقرطبي وابن العربي وأبو الفضل عياض وغيرهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ويفصل آياته تفصيلا. وأن الشيطان ترصد تلك السكنات ودس فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمته صلى الله عليه وسلم، فيكون ماروى من حزنه عليه السلام راجعا لهذه الإشاعة ولهذه الشبهة التي نشأت عنها هذه الفتنة. وعلى هذا فيكون تمنى في الآية بمعنى قرأ. كقول حسان بن ثابت في سيدنا عثمان رضي الله عنهما :

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسول

والأمنية القراءة وفي بمعنى عندكما نقل عن سليمان بن حرب حيث قال : ان في بمعنى عندكما في قوله تعالى : (ولبثت فينا من عمرك) الشعراء : 18 فيكون تقدير الآية : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء إلا إذا قرأ الشيطان عند قراءته، وهذا من طبيعة شياطين الإنس والجن المفسدين. وقد حكى الله تعالى ذلك بقوله:(لا تسمعوا لهذا القرآن والغوافيه) حم السجدة 26.

وسجود المشركين معه صلى الله عليه وسلم عندما سجد في سورة (النجم) كان لما اعتراهم من الخوف والدهشة عند سماعها. وقد قال العلامة الألوسي : وليس لأحد أن يقول : إن سجود المشركين يدل على أنه كان في السورة ما ظاهره مدح آلهتهم، وإلا لما سجدوا. لأنا نقول : يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشة وخوف اعتراهم عند سماعهم السورة لما فيها من قوله تعالى : (وانه أهلك عاد الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى. والموتفكة أهوى فغشاها ماغشى...) فاستشعروا نزول هذا بهم. ولعلهم لم يسمعوا قبل مثل هذا منه عليه السلام..

وأيضا عودة المهاجرين الأولين من الحبشة إلى مكة لم يكن بسبب قصة الغرانيق المختلقة وإنما كانت بسبب إسلام عمر الذي كسب المسلمين قوة وبسبب إسلام رجال من مختلف قبائل قريش وبيوتاتها وبسبب الفتنة التي شبت في

الحبشة بين النجاشي وشعبه لما أبداه من العطف على المسلمين المهاجرين لبلاده. وقد نص على ذلك محمد هيكل في كتابه: (حياة محمد).

دفوعات أخرى تدل على اختلاق القصة :

مما يدل على اختلاق القصة وعدم وجود أي ثبوت لها سياق سورة (النجم) الذي يدل دلالة واضحة على ذم عبادة غير الله. فلو أقحم فيها مدح الغرانيق لم تقبله ذوقا وعقلا. إذ يكون هذا المدح متبوعا بأربع آيات متتاليات في ذمها (ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزي. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) فيكون فيها اختلاط المدح بالذم. وذلك مالا يوافقه منطق ولا يسلمه أي عقل.

وثانيا : من عرف بصدقه بين الناس حتى سموه الأمين قبل النبوءة كيف يكذب على الله تعالى ؟

وثالثا : من قال : والله ياعم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته. أيمكن أن يمدح آلهتهم ؟.

ورابعا : من عرضت عليه قريش الملك والجاه والمال وكل المغريات ليرجع عن دينه ويترك القدح في آلهتهم فلم يفعل. أيمكن أن يصدر منه هذا ؟

وكم يعجبني ماقاله العلامة الألوسي : ولعمري إن القول بأن هذا الخبر مما ألقاه الشيطان على ألسنة بعض الرواة ثم وفق الله جمعا من خاصته لإبطاله. أهون من القول بأن حديث الغرانيق مما ألقاه الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نسخه سبحانه.

وقد سأل سيدي أحمد بن مبارك الولي الكامل صاحب الإشارات المحدث الأمي الشريف سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه : هل الصواب مع عياض ومن تبعه في نفيها. أو مع الحافظ ابن حجر فإنه أثبتها ؟

فقال رضي الله عنه : الصواب في القصة مع ابن العربي وعياض لا مع ابن حجر وقط ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم شيء من مسألة الغرانيق. فإنه لو وقع شيء من ذلك لارتفعت الثقة بالشريعة (كتاب الأبريز ص 241).

رد سيدي عبد العزيز الدباغ على ابن حجر
- في الاحتجاج بالمرسل مطلقا -

قال رضي الله عنه : وأما قول الحافظ ابن حجر رحمه الله : والحديث حجة عند من يحتج بالمرسل وكذا عند من لا يحتج به لاعتماده بوروده من ثلاثة طرق صحاح. فجوابه إن ذلك فيما يكفي فيه الظن من الأمور العلمية الراجعة إلى الحلال والحرام وأما الأمور العلمية الاعتقادية فلا يفيد خبر الواحد ثبوتها. فكيف يفيد في نفيها وهدمها ! فبان من هذا أن ما ذكر عياض غير مخالف للقواعد. بل ما ذكره الحافظ-رحمه الله-هو المخالف لها. لأنه أراد أن يعمل بخبر الواحد في هدم العقائد. وذلك مخالف للقواعد.

عدم موافقة سيدي عبد العزيز الدباغ على تأويل الآية
- السابق الذي اختاره العلماء -

ثم سأل سيدي أحمد بن المبارك سيدي عبد العزيز الدباغ : ما الصحيح عندكم في تفسير قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيء إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنتيه...) ؟ وما هو نور الآية الذي تشير إليه ؟

فقال رضي الله عنه : نورها الذي تشير إليه هو أن الله ما أرسل من رسول ولا بعث نبيا من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته ويحبه ويرغب لهم فيه. ومن جملتهم نبينا صلى الله عليه وسلم الذي قال له الرب سبحانه وتعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يومنوا بهذا الحديث أسفا) كه 6 (وما أكثر الناس ولو حرصت بمومنين) يوسف 103.

(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مومنين) يونس 99. ثم الأمة تختلف كما قال تعالى: (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) البقرة 153. وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المومنين فينسخ ذلك من قلوبهم، ويحكم الله فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة. اهـ.

وهكذا نكون - بحول الله وقوته - قد بينا أن موقف القاضي عياض من قصة الغرانيق يساير ويواكب المنطق الإيماني والعقلي والسلام.

سبتة.. مدينة القاضي عياض

للأستاذ : اسماعيل الخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

سبتة.. مدينة القاضي عياض

ولد القاضي أبو الفضل عياض بمدينة سبتة في منتصف شعبان عام 476 هـ (1).

وبها نشأ وتربى وأخذ عن أعلامها من أهلها ومن الواردين عليها. مثل :

- أحمد بن محمد بن بقي
- أحمد بن محمد الشارقي
- أحمد بن عمران الأنصاري
- ابراهيم بن أحمد البصري
- الحسن بن علي بن طريف
- محمد بن عبد الله الأموي(2).

وبسبتة تكونت حصيلته العلمية. ولم يطلب العلم بغيرها. وخروجه للأندلس (يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة) إنما كان للقاء مجموعة من أعلامها. خاصة الحافظ أبا علي الصدفي. لتصحيح متنه ودواوينه عليه. وإلى

1) المعجم 294 ـ الصلة 447 ـ بغية الملتمس 425.

2) راجع : تراجم المذكورين وغيرهم في : التعريف بالقاضي عياض والغنية.

ذلك أشار أمير المسلمين علي بن تاشفين في رسالته إلى ابن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة. يوصيه فيها بقضاء وطر أبي الفضل ومساعدته(3).

فلما لقي الحافظ الصدفي بعد مدة من اختفائه(4) أخذ عنه وعاد إلى بلده.

وهكذا فقد شهدت مدينة سبتة مولد عياض، ودراسته وتدريسه، ومجالس قضائه، وزعامته، وربما تطلعه للاستبداد بمدينته.

فلنلق نظرة على هذه المدينة :

سبتة :

تعتبر سبتة من أقدم المدن المغربية. ويذهب البعض إلى أن تاريخها يرتفع إلى سبت بن سام بن نوح. فهو الذي اختطها. (5) وإلى ذلك ذهب أهل سبتة في رسالتهم التي وجهوها إلى السلطان عبد الحق المريني سنة 818 هـ (6).

وتقع سبتة على أهم مفرق من مفارق الطرق العالمية. فهي تطل على بوغاز جبل طارق، وجميع السفن التي تمر بالمضيق تكون على مرأى من نقطة سبتة. وهذا الموقع ساعد على تأسيس ميناء تجاري هادئ ومركز عسكري حصين.

لذا كانت على امتداد تاريخها ممرا للفتح وللنجدات خاصة عندما كان الغزو الصليبي يهدد بلاد الأندلس. لذا سميت «باب الجهاد» (7).

وقد توفرت خلال تاريخها على أسطول جهادي استعان به الخلفاء في جهادهم ضد الأطماع النصرانية.

• • •

---

3) راجع : نص الرسالة في القلائد 111، وفي التعريف بالقاضي عياض ص : 6 بالهامش.

4) راجع التعريف بالقاضي عياض ص : 7 ـ 8.

5) درة الحجال 3 : 19 طبع مصر.

6) اختصار الأخبار 76 عن مخطوط الخزانة الملكية رقم 4485.

7) نفح الطيب 4 : 391 (تحقيق عباس).

استضاءت سبتة بنور الإسلام سنة 92 هـ وهي السنة التي استقر فيها الإسلام بالمغرب(8). وقد تم الاستيلاء عليها صلحا بعدما هلك يليان(9).

وخلال الربع الأول من القرن الثاني شهد المغرب موجة من الاضطرابات، خرجت سبتة منها بإمارة بربرية مستقلة هي إمارة بني عصام التي تأسست سنة 123 هـ.

ولما كان بنو عصام قد عملوا على نشر الدعوة الفاطمية التي تشكل تهديدا للدولة الأموية بالأندلس، فقد سارع عبد الرحمن الناصر إلى القضاء على إمارتهم(10) واحتلال سبتة.

وقد وليها طائفة من الولاة، وقبيل انقراض الدولة الأموية كان أمرها إلى عالم من أعلامها. تولى أمورها وقضاءها هو القاضي أبو بكر محمد بن عيسى بن زوبع(11).

ثم وقع انقلاب في تاريخ سبتة عندما عين سليمان بن الحكم علي بن حمود عليها، وهذا التعيين جر إلى سقوط الخلافة المستعينية بالنسبة للأندلس، وإعلان ابن حمود استقلاله بسبتة.

ولما آل الأمر ليحيى عين أخاه إدريس على سبتة.

وخلال هذه الحقبة مرت بسبتة حوادث واضطرابات أسفرت (12) أخيرا عن استقلال «سكوت البرغواطي» الذي تطلع إلى مرتبة الخلافة.

غير أنه من جهة أخرى شجع الحركة العلمية، فشهدت سبتة في عهده قدوم العديد من الأعلام الذين طاب لهم الاستقرار في جوها العلمي.

---

8) ابن عذاري 1 : 43.

9) ابن خلدون 6 : 437.

10) ابن خلدون 6 : 438.

11) المدارك 3 ـ 4 : 628 طبع بيروت.

12) راجع : المعجب 63 ـ البيان المغرب 3 : 119.

لكن رياحا هبت من الجنوب متمثلة في دولة المرابطين التي عملت على إخضاع المغرب ورغم تمنع سبتة فإنها أخيرا خضعت للحكم المرابطي، لتصبح مركزا لانطلاق جيوشهم نحو الأندلس إنجادا لها.

وقد اعتنى ابن تاشفين اعتناء كبيرا بسبتة فبنى بها مصانع للسفن، واعتنى بمساجدها، وبمينائها(13).

أما في العهد الموحدي فقد عمل عبد المومن على احتلالها، لكنه صد عنها بزعامة القاضي عياض، غير أن أهلها بادروا للمبايعة بعدما فتح عبد المومن تلمسان، وزار عبد المومن المدينة، واستقبل بها زعماء الأندلس(14).

وظلت سبتة بحكم موقعها ـ عاصمة جهادية ـ وعملت الدولة الموحدية على تثبيت هذه الصفة.

وفي الفترة التي شهدت تقلص ظل الدولة الموحدية، شهدت سبتة موجة من الاضطرابات أسفرت عن ظهور جماعة من المستقلين بها، عملوا على انتشالها من تلك الفتن.

فاستبد بها أولا : أبو العباس اليانشتي، الذي أحيا ذكرى سكوت وأنعش الحركة العلمية، وضبط أمر المدينة.

ثم جاء بعده أبو علي بن خلاص، فسار على نهج سابقيه من استدعاء العلماء والأدباء، فشجع بذلك الحركة العلمية. ثم جاء دور بني العزفي، الذين حكموا سبتة قرابة قرن وانقسم حكمهم إلى مرحلتين : الأولى : من سنة 647 هـ إلى سنة 705 هـ والثانية : من سنة 710 هـ إلى سنة 720 هـ.

وتعتبر المرحلة الأولى من أزهى المراحل العلمية والاجتماعية بسبتة، حيث ساد الاطمئنان وازدهرت الحركة العلمية أيما ازدهار، وذلك راجع بالأساس إلى تشجيع أفراد هذه الأسرة للعلم وأهله.

---

13) البيان المغرب 4 : 58.

14) الكامل : 11 : 158.

ثم عادت سبتة للحكم المريني المباشر، لتنتقل إلى تقلبات وحوادث انتهت بسقوطها تحت الاحتلال البرتغالي سنة 818 هـ.

تلكم نظرة عجلى على تاريخ مدينة القاضي عياض؛ ولنا أن نتساءل عن مركزها العلمي.

سبتة.. دار علم :

يعتبر موقع سبتة مساعدا على إقامة مدينة مزدهرة، وقد كان ازدهارها شاملا، من الناحية الاقتصادية، والصناعية، ورغم أن الناحية الزراعية ضعيفة، فإن أهلها استطاعوا بتدبيرهم أن ينظموا حياتهم المعيشية، وأن يخرجوا من كل المحن والشدائد التي ألمت بهم، سالمين.

وازدهرت الحياة العلمية فيها على امتداد تاريخها. وخلال النصف الأول من القرن السادس - وهي الفترة العلمية التي عاش فيها القاضي عياض - كان بسبتة طائفة من الأعلام من الذين أخذ عنهم عياض. كما زارها - لفترات مختلفة - أعلام الأندلس، ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى زيارة الإمام المحدث حسين بن محمد بن سكرة الصدفي الذي أقام بها مدة أسمع خلالها جامع الترمذي، وغيره من المصنفات.

وكانت زيارة العلماء أمرا مألوفا، فلا تخلو فترة من زيارة طائفة منهم، فتكون من هؤلاء الوافدين والمقيمين مجتمع علمي فريد ظهر أثره على الثقافة والعلوم بالعدوتين، ومن ثم صرنا نقرأ في غير ما مصدر، وصف سبتة بأنها دار علم.

فهذا القزويني يقول : «وفيها خلق كثير من أهل العلم»(15).

أما البكري فيقول : «ولم تزل دار علم»(16).

---

15) آثار البلاد وأخبار العباد 533.

16) المسالك والممالك.

أسـر عـلـمـيـة :

عرفت سبتة ـ على امتداد تاريخها ـ أسرا علمية، كان لها مكان مرموق في العلم كما كان لها الدور في تسيير أمور هذه المدينة، منها : أسرة الصقليين، وآل العزفي، وبني عبد المهين الحضرميين وعلى رأس هذه الأسر تأتي أسرة عياض.

ويحدثنا أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض عن أسرتهم فيقول : «استقر أجدادنا في القديم بالأندلس جهة بسطة ثم انتقلوا إلى مدينة فاس(17).

كما يحدثنا عن نزوحهم إلى سبتة، فيقوله : «وكان عمرون، والد جد أبى -رحمة الله عليهم جميعا- رجلا خيرا صالحا من أهل القرآن، حج إحدى عشرة حجة، وغزا مع ابن أبي عامر، غزوات كثيرة، وانتقل من مدينة فاس إلى مدينة سبتة، بعد دخول بني عبيد المغرب (17م).

وكان هذا الجد موسرا، فاشترى أرضا بضاحية المنارة، بنى في جزء منها مسجدا، وحبس عليه ديارا، وظل منقطعا فيه إلى العبادة حتى الوفاة سنة 397 هـ. كما ظل المسجد موضعا للإقراء والتدريس إلى آخر العهد المريني.

ولا نعلم عن المستوى العلمي لأبناء هذا الجد، غير أن العلم توارثه أبناء عياض، نذكر منهم أربعة :

● محمد بن عياض بن موسى بن عياض، ولد الإمام أبي الفضل، ولعله الوحيد يكنى أبا عبد اللهّ، أخذ عن والده، ودخل الأندلس، فأخذ عن ابن بشكوال، وابن العربي المعافري، وأبي بكر بن رزق، وابن سهل الخشني.

تولى قضاء دانية ثم غرناطة، له «التعريف بالقاضي عياض»(18).

---

17 ـ 17م) التعريف بالقاضي عياض 2 ـ 3.

18) الذيل والتكملة ـ الورقة 121 (مخطوط ـ القسم الأخير).
التكملة 2 : 277 ـ 278 نشر العطار.
الديباج 289.
الإحاطة 2 : 229.

● عياض بن محمد بن عياض بن موسى بن عياض ـ حفيد الإمام ـ روى بسبتة عن أبيه، وأبي بكر بن بيين، وأبي عبد الله بن حميد، وأبي القاسم بن حبيش، وغيرهم..

كان محدثا راويا ثقة، شديد العناية بشأن الرواية، ولقاء حملة العلم، فقيها حافظا (19).

● محمد بن عياض بن محمد بن عياض بن موسى ـ حفيد الإمام ـ يكنى أبا عبد الله، كان من عدول القضاء، محبا في أهل العلم مقربا لأصاغر الطلبة، معتنيا بهم.

أخذ بسبتة عن أبي الصبر أيوب، وأسند بها (20).

● محمد بن أحمد بن محمد بن عياض ـ من ذرية القاضي عياض ـ كان آية في الحفظ، واستظهر كتبا كثيرة (21).

أبو الفضل وسبتة :

ـ نشأ القاضي عياض في سبتة، وعاش حياته بها، وطلب العلم على مشيختها (22)، ولم تستمر رحلته إلى الأندلس ـ لتصحيح المتون والبحث عن أصولها، ووصل أسانيدها بأصحابها ـ إلا سنة أو تزيد.

---

19) الذيل والتكملة ـ القسم الأخير ـ الورقة 70 (مخطوط).
التكملة 694.
صلة الصلة 166.
أخبار فقهاء وأدباء مالقة 178 (مخطوط).
الإحاطة 4 : 221.

20) الذيل والتكملة : الورقة 120 القسم الأخير (مخطوط).
الديباج 289 ـ الإحاطة 2 : 226.

21) الدرر الكامنة 3 : 449 طبع مصر.

22) راجع : المقدمة القيمة التي كتبها المرحوم العالم محمد بن تاويت الطنجي لكتاب (ترتيب المدارك) طبع وزارة الأوقاف ـ الرباط.

وعاد لمدينته ليتولى قضاءها وزعامتها (23). والتف مواطنوه حوله. يرجعون إليه في أمورهم. فعياض لم يكن من النوع الذي انشغل بالدرس. وتغافل عما يدور حوله. بل نجده يتفاعل مع مجتمعه. تقديرا منه للمسؤولية التي تحملها. لمكانته؛ وهكذا يروون «أن القاضي عياضا لما ولي قضاء بلده كانت الخاصة والعامة على غاية من محبته. وإجلاله وإكباره. وكان له من الهيبة والجلالة عند الأمراء والولاة ما جعلهم يقبلون قوله حين يطالبهم بأداء حق من حقوق الرعية. ويتنافسون في قضاء حقه والقيام بواجبه (24).

وظهر اعتناؤه بسائر الطبقات بسبتة :

- حب كبير لطلبة العلم.

- إقبال على المساكين والفقراء؛ وقد كان كثير الإنفاق عليهم. فوزع بينهم أكثر ما ورثه عن أبيه. واضطر لبيع أملاكه ورباعه. ومات مدينا بخمسمائة دينار (25).

ومن هنا صار أبا روحيا لطلبة سبتة - وما أكثرهم - وأبا عطوفا على المعوزين والمحتاجين إلى جانب الاحترام الذي يحظى به من الجميع.

وهكذا - وفي تلك الظروف المضطربة - جاءت الأحداث التي أرغمته أن يخوض غمارها (26).

فكان لعياض ذلك الموقف من (عصمة الإمام).

وكانت ثورة سبتة بزعامة عياض.

وهي ثورة لو كتب لها النصر. لما تأخر عياض عن الاستبداد والاستقلال بمدينته. كما فعل - قبله وبعده - كثير من المستقلين الذين كان من منهم

23) كان توليه القضاء آخر عام 539 هـ قدمه ابراهيم بن تاشفين بن علي.

24) راجع : التعريف بالقاضي عياض.

25) التعريف : 128.

26) راجع : مقدمة ابن تاويت «ترتيب المدارك».

القاضي أبو بكر بن زويع. فهل كان في نية عياض إحياء ذكرى بن زويع (27) ؟

وقد رأينا أن استقلال أولئك المستبدين بسبتة كان يجنب المدينة كثيرا من الفتن والاضطرابات. ويبعث فيها نهضة علمية وانتعاشا عاما.

لقد أحب عياض مدينته. وخدمها بإخلاص. وساهم في عمرانها ومن أعماله : بناؤه الزيادة الغربية في الجامع الأعظم. وللمسجد المنسوب إليه.

وهكذا نجده يبكي عند مفارقته لها. ويقول لمودعيه : «جعلني الله فداءكم» (28) ولسان حاله يقول :

ولو نعطى الخيار لما افترقنا....

وإذا ما قدر الله للباحثين أن يسعدوا باكتشاف كتابه «الفنون الستة» فإنهم بلا شك سيطلعون على ما يمليه الحب من دراسة وخدمة (29) كما سيكشف الكتاب عن أشياء لا زالت غامضة من تاريخ هذا البلد السليب.

وإذا كان القدر قد أجبر عياضا على مفارقة بلده. فإن أبناءه وأحفاده. أحيوا ذكره بها. وساهموا بقسط وافر في الحركة العلمية بهاته المدينة المغربية الأصيلة. مدينة عياض. وابن رشيد. وابن المرحل... وغيرهم من أعلام العلم والأدب.

وبـــعـــد :

فالأمل كبير في عودة هذا البلد السليب إلى باقي المغرب.

وســـلام عـــلـــى عـــيـــاض.

---

27) محمد بن عيسى آخر قضاة بني أمية بسبتة وجهاتها، كان من أهل العلم والأدب. له رحلة المشرق - راجع : المدارك 3 - 4 : 628 طبع بيروت.

28) التعريف : 131.

29) يذكر ولد عياض وكذا ابن الخطيب أن عياضا ترك كتابه في المبيضة بينما ينقل ابن مرزوق في المسند مباشرة من الكتاب في الفصل الثاني الباب 38، وهذا مما يزيد في الأمل في العثور على هاته الذخيرة القيمة.

القاضي أبو الفضل عياض

للأستاذ : الزيتوني أحمد شاعري

بسم الله الرحمن الرحيم

القاضي أبو الفضل عياض

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى ابن عياض اليحصبي بتثليث الصاد نسبة إلى يحصب حي باليمن كما في القاموسي أو لقرية أندلسية سمى باسم يحصب بن مالك بن زيد أخي ذي أصبح الحارث بن مالك بن زيد الذي ينتهي إليه نسل إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي الحميري. وذكر محمد بن عياض أن سلفه قد استقروا بالقيروان، ولم يدر أبوه عياض أكان ذلك قبل استقراره في الأندلس بمدينة بسطة أم بعد ذلك ؟ وكما لم يحفظ تاريخ أي الاستقرارين فإنه لم يذكر أيضا تاريخ إنتقاله إلى مدينة سبتة. غير أن التاريخ التقريبي لانتقال الجد الثاني للقاضي عياض إلى سبتة : يؤخذ من كلام محمد بن عياض نفسه، إذ يقول : ... وكان سبب ذلك أنه لآبائه - عمرون الجد - بمدينة فاس نباهة. فأخذ أبي عامر - وهو محمد بن أبي عامر الملك الملقب بالمنصور - أخذ رهنا من أعيان مدينة فاس. فأخذ فيهم أخوى عمرون : عيسى والقاسم. فخرج عمرون إلى مدينة سبتة ليقرب من أخبارهما. فاستحسن سكنى مدينة سبتة.

ومعلوم أن المنصور ابن أبي عامر قد استغرق ملكه بالأندلس مدة ما بين 366 سنة إلى سنة 393. فيكون عمرون الجد الثاني للقاضي عياض قد انتقل من فاس إلى سبتة في بحر القرن الرابع الهجري، أي بين 366 - و 393 هـ وذلك بعد

دخول بني عبيد المغرب وأن عمرون هذا قد غزا مع المنصور ابن أبي عامر كثيرا من الغزوات.

مولد عياض

مولد أبي الفضل عياض وعوامل تكوينه

ولد رحمه الله في منتصف شعبان سنة 476 ست وسبعين وأربعمائة هجرية بسبتة وتربى في عائلته التي توارثت المجد والنباهة والشهرة والفضل في فاس وفي سبتة. ثم لا يبعد أن يكون الأمر كذلك مدة استقرار تلك العائلة في القيروان أيضا. أما من الناحية العلمية فإن التاريخ لم يحدثنا عما إذا كانت عائلة القاضي عياض توارثت أيضا الشرف العلمي، ولم يعرف أن أحدا من أجداده له ذكر ونباهة في الميدان العلمي، غير أن عائلته المحترمة المعروفة بالفضل والنبل والدين قد ساعدت على تربية عياض المثلى وتكوينه العصامي وتفرغه لتحصيل العلوم والمعارف كما ساعد على ذلك ما وهبه الله من استعدادات فطرية من حذق وفهم وتيقظ وفطنة وحرص على طلب العلوم والمعارف وذكاء وذاكرة واعية. ثم الموقع الجغرافي لوطنه الذي هو مدينة سبتة لكونها ملتقى العلماء ، المقيمين بها والمتواردين إلى الأندلس والصادرين عنها.

وبعد أن حفظ القرآن الكريم برواياته السبع على مقرئي عصره كعبد الله بن إدريس بن سهل وعبد الله بن محمد النفزي، وبعد ذلك توجهت همته الوثابة إلى الكرع من مناهل العرفان والعلوم المتداولة في عصره كاللغة والأدب والفقه المالكي وأصولي الفقه والدين وعلم الكلام على مذهب الإمام الأشعري إمام أهل السنة وعلم الحديث رواية ودراية إلى غير ذلك من أنواع المعرفة وضروب الثقافة المعروفة في عصر عياض.

وقد أخذ على أكابر علماء بلده كقاضي سبتة عبد الله بن أحمد إبراهيم بن القاسم اللخمي وعلي بن محمد بن عيسى التميمي وعبد الغالب بن يوسف

السالمي وأبو بكر ابن العربي المعافري لما مر بسبتة ومحمد بن داود القلعي الأصولي ويوسف ابن موسى الكلبي وغيرهم.

حتى إذا امتلأت وطابه بالعلوم والمعارف، وأجلسته على أريكتها وألقت إليه بأرا منها، تاقت نفسه إلى الرحلة والتنقل ابتداء من سنة سبع وخمسمائة وهو يومئذ شاب ابن احدى وثلاثين سنة مسافرا إلى الأندلس وقد كانت سنة سبع وخمسمائة من الأعصر التي تزخر فيها بلاد الأندلس بالعلماء الكبار والأيمة الذين انتشرت شهرتهم في جميع الأقطار، سافر عياض للتأكد من معلوماته النقلية وتصحيح مناهجه الفكرية ليكون مطمئنا على ما سيحبره من مؤلفات، ويتأكد من الصلاحية والانتفاع بما يخلفه من التركات، وكان له ما أراد فقد أخذ عن الإمام عبد الرحمن بن عتاب الذي قيل فيه أنه كان آخر الشيوخ الأكابر، وعن القاضي الجماعة بقرطبة أبي محمد محمد بن علي بن حمدين ومحمد بن أحمد بن خلف التجيبي وغيرهم من أعلام قرطبة المشهورين، ثم توجه إلى مرسية، وفيها اجتمع بأمثال ابن علي الصدفي الذي كان يكثر عنه الرواية في كتاب الشفاء.

أما تآلف القاضي عياض في مختلف ميادين المعارف والعلوم - رغم قيامه بمهمة التدريس وشؤون القضاء - فإنها قد كانت محل إعجاب العلماء في المشرق والمغرب، وقد كان من الأيمة البارزين والمشهود لهم بالتبحر في العلوم سيما الحديث وفنونه كالإمام النووي، وكانوا يستفيدون من مؤلفات القاضي عياض منذ عصره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد ذكر المرحوم سيدي محمد بن تاويت الطنجي من تلك المؤلفات اثنين وثلاثين مؤلفا حسبما بلغه منها ورتبها على حروف المعجم وذلك في مجلة «المناهل» عدد 19 السنة السابعة، وقد كانت - كما قلنا - محل إعجاب العلماء أجمعين (1) إلا ما قيل عن شيخ الإسلام ابن تيمية الذي يذكر عنه تعليق على كتاب الشفاء بقوله «غلا هذا المغيربي» لكن ما على مثله تعد تلك الاستنقاصات، وعلى رغم تبحر ابن تيمية في العلم فقل من سلم -

---

1) وكانت محل الاستفادة من الأئمة الكبار للإمام النوري وغيره.

على ما نقل عنه ـ من أئمة العلم وأقطاب التصرف من لسانه. حتى قال له الحافظ الذهبي في رسالة وجهها إليه معاتبا : «كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما وقد قال الشعراني : الورع في المنطق في كل زمان أعز من الكبريت الأحمر فالتحامل والتحيز من شيخ حر انصد القاضي أبي الفضل عياض ظاهر كل الظهور في تعبيره ـ إن صح عنه ـ ب «غلا» وب «هذا» وب «المغيربي» بالتصغير. ففي الكلمات الثلاث ما فيها من سوء الأدب وقلة اللياقة مع الحافظ القاضي أبى الفضل عياض رحم الله الجميع ونرى أن ذلك من شيخ الإسلام من باب طغيان الغنى.فقد قال الله تعالى : (كلا أن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) فقد استغنى ابن تيمية رحمه الله بغنى العلم. على أن الله تعالى وهو الحكم العدل قد تولى الانتقام للقاضي عياض فقد قوبلت العبارة : «غلا هذا المغيربي» بالاحتقار فصارت خطيئة لا يقال لقائلها منها العثار. أما كتاب الشفاء فقد شق طريقه وتسير قافلته وحظى من جماهير المسلمين شرقا وغربا بالاحترام والقبول. وله من كبار العلماء العناية والثناء العطر و«ألسنة الخلق أقلام الحق» والدليل على ذلك كثرة شراحه والمعلقين عليه والمختصرين وقد ذكر الدكتور بدري محمد فهد في مجلة «المناهل» على ما أطلع عليه ـ أربعة وثلاثين شرحا. على أنه قد قيل أن ابن تيمية قد مدح عياض واثنى عليه فلا يصح عنه ذمه. ونحن نرجو أن تكون هذه الرواية عن شيخ الإسلام هي صحيحة. أما ان صحت الروايتان كلتاهما فلا يسعنا إلا أن نقول له ما قال أبو عمرو البصري لمن هجاه ثم جاءه متنصلا من هجوه : هجوت زبان ثم جئت معتذرا من هجو زبان لم تهجو ولم تدع.

انتقال القاضي عياض من سبتة إلى مراكش

من المعروف أن القاضي عياض يحب وطنه سبتة. إن سبتة وأهلها يحبون عياضا. ولكن الظروف ووقائعها كان لها دخل في مغادرته لبلده مكرها وذلك أنه قد عاصر آخر دولة المرابطين وأول دولة الموحدين. ومن الطبيعي أن تكون الظروف والوضعية السياسية في أمر مريح وهزات في فترة انتقال السلطة من يد

الى أخرى، وبحكم ذلك المركز الممتاز للقاضي عياض في المجتمع، فلا بد أن يناله شيء من شرر تلك الهزات قل أو كثر، لا سيما وقد تكرر من القاضي وأهل بلده نقض بيعتهم لعبد المومن الموحدي رئيس الدولة الجديدة، ومن ثم لم ير عبد المومن بدا من عقاب القاضي عياض بنفيه من سبتة إلى العاصمة مراكش ليراقب عن كثب وذلك أدنى عقاب، فعبد المومن - كما يحدثنا عنه التاريخ - كان في عصره من الطراز الأول في الحزم والدهاء والسياسة والاحتياط والحذر، فلا يبعد أن يوجس من عياض خيفة، لما لشخصيته من الامتياز المرموق ، الشيء الذي يسمح له بالولوج في أبواب سياسية خطيرة، ومن يدري ؟ فلعله يقوم بمثل دور مهدي الموحدين في إسقاط دولة المرابطين، ولا يبعد ذلك عن مخيلة عبد المومن بعد أن ضبط على القاضي تكرار نقض البيعة، ولكن عبد المومن السياسي المحنك لم يكن ليحاول تصفية والقضاء على شخص عياض ولا حتى القاؤه في غيابات السجن ولكنه اكتفى بنقله إلى العاصمة مراكش ليراقب عن كثب، وبانتقال عياض من سبتة إلى مراكش تنغصت عليه أيامه الأخيرة هي حياته على الرغم مما ذكر ابنه محمد في كتابه «التعريف» من قوله : «وعفا عنه - (أمير المومنين) على أبر وجه وأجمله وأمره بلزوم مجلسه وأظهر تقريبه ومحبته وكان يسأله فيستحسن جوابه، فأقام على ذلك الحال، ومنزلته تزداد عنده كل يوم سموا ورفعة إلى أن خرج - أدام الله تأييده - إلى غزوة دكالة وخرج صحبته» أما تاريخ موت القاضي عياض وسببها فنكتفي في ذلك بما ذكر ابنه محمد بعد قوله : «وخرج صحبته» فمرض بعد مسير مرحلة فأذن له في الرجوع فرجع إلى الحضرة (مراكش) فأقام بها مريضا نحوا من ثمانية أيام ثم مات عفا الله عنه ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الأخيرة من عام أربعة وأربعين وخمسمائة وعلى كل حال فقد فرض عبد المومن - الداهية السياسي - إقامة إجبارية على عياض وصفد لا بسلاسل من ذهب حتى مماته رحم الله الجميع.

والقاضي أبو الفضل عياض يعتبر من الأساطين الكبار في المذهب المالكي وعلما من أعلامه المرموقين المشاركين في تركيزه وإيضاح معالمه والذود عنه في

المغرب العربي والأندلس علاوة على أنه من الحفاظ وأكابر المحدثين حتى قيل لولا عياض لما ذكر المغرب فهذه الجملة ـ وإن لم تنسب لقائل ـ فإن الواقع قد صدقها، وقد قيل ، ألسنة الخلق أقلام الحق. فإن للقاضي عياض رحمه الله دورا ممتازا في حمل راية الحديث النبوي وعقيدة أهل السنة على مذهب الإمام الأشعري علاوة على كونه من أكابر الفقهاء على مذهب الإمام مالك الذي هو أحد المذاهب الأربعة التي اتفق جمهور المسلمين على وجوب تقليد أحدها في حق من لم يبلغ درجة الاجتهاد فيما يرجع إلى المسائل الاجتهادية أعني يكتفي في التعبد بها بغلبة الظن وأما القضايا المعلومة من الدين بالضرورة فلا مجال فيها للاجتهاد. كعدد الصلوات المفروضة وعدد ركعاتها وصيام رمضان والزكاة وحج بيت الله الحرام وأصول المعاملات كحلية البيع وتحريم الربا وحلية النكاح وتحريم السفاح إلى غير ذلك من كل ما يعبر عنه بأنه معلوم من الدين بالضرورة. ويعد من جحد شيئا من ذلك مرتدا وخارجا عن الإسلام وأن ذمة المكلفين عامرة بذلك فلا تبرأ إلا بأدائه بيقين أما بعض الإجراءات المتعلقة بتطبيق تلك العبادات الأصلية حال ممارستها، فقد رويت السنة النبوية في شأنها بكيفيات ربما اختلف الناس في مفهومها توسعة من الله ورحمة منه تعالى على عباده من غير نسيان. ومن ثم اكتفى الشارع الحكيم من المكلف في تطبيقها بقوة التطير بعد الاجتهاد وليس كل الناس في القدرة على الاجتهاد سواء. فإذا كان القاضي عياض على ما عليه من التبحر في معنى الكتاب والسنة قد تقيد باتباع مذهب مالك مثل الإمام المازري الذي بلغ ـ على ما قيل ـ درجة الاجتهاد المطلق لا يفتى إلا بما تقررت به الفتوى على مقتضى مذهب مالك. وإذا كان أمثال هؤلاء الأعلام لا يستجيرون الخروج عن مقتضى مذهب إمام دار الهجرة الذي هو أحد الأئمة الأربعة. والذين منحتهم الأمة الإسلامية ثقتها في إحكام الفهم لكتاب الله وتطبيق الأحاديث النبوية على وجه يرضى الله تعالى وتبرأ به ذمة المكلف. فعلى غيرهم الاتباع واجتناب الابتداع. ومن ثم اتفق جمهور المسلمين منذ قرون خلت على وجوب تقليد أحد الأيمة الأربعة في حق

العاجز عن الاجتهاد في الفروع، وهم مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل رحمهم الله. فهم الذين رشحتهم عناية الله وأظهرت قدرتهم على القيام باستفراغ الجهد في تطبيق الأدلة الواردة من الكتاب والسنة تطبيقا تطمئن إليه النفوس ويمكن أن يطابق مراد الشارع ولو على سبيل الظن. ولأن مع كل واحد من أولئك الأيمة الأربعة العظام أصحاب في حياتهم وبعد مماتهم وفي كل عصر قد تكونوا في مدارس أئمتهم واحكموا فهم قواعدهم وبرعوا براعة تامة في استخدامها وتبحروا في فهم كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه. منهم من ساوى إمامه في درجة الاجتهاد أو قاربها، وهم يفحصون أدلتهم ويؤيدون قويها، وينبهون عن ضعيفها، ولو كانت حتى من إمامهم الأكبر. عملا بحرية الفكر والبحث اللذين جاء بهما الإسلام. حتى صار اسم إمام المذهب الأكبر عبارة عن منهج فقهي في الدين تضافرت عليه جهود أولئكم العلماء الأصحاب قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل. لا يستجيزون الفتوى في دين الله إلا بمشهور الأقوال أو أرجحها أو ما به العمل. ويدعون الأقوال الضعيفة في بطون كتبهم حتى تلجىء الضرورة إلى العمل بها من غير إهمال لها لأن إماما من أئمة المسلمين قد اقتبسها من أنوار الشريعة المحمدية. فأنى لعموم الناس تلكم المقدرة الفائقة على البحوث والاجتهادات التي يبذلها العلماء الراسخون في الوصول إلى الحقيقة واليقين أو غلبة الظن. فأين ذلك ممن ينظر نظرة سطحية في بعض دواوين الحديث من بعض المكاتب التجارية أو على وجه الانصياع إلى مشوش مخذول مفتون وفتان الذي يطلع على أحاديث في ديوان أو على آثار أو تفسيرات أو منازعات بين العلماء ويطلع الآخر في ديوان على أحاديث أو آثار أو منازعات بين العلماء ويظن الفريقان تناقضهما لبعد الفريقين عن مدارك وأفهام الأيمة والعلماء الراسخين فيقع الفريقان ويوقعان غيرهما في عداوة وخصام ومعارك وتشكيكات داخل بيوت الله وخارجها وينبشون أسباب الخلافات من أجداثها والتي دفنها السلف الصالح بإعلانهم وجوب تقليد مذهب واحد في حق غير المتأهل للاجتهاد سدا لباب التلاعب بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه. الشيء الذي يرضي به الشيطان وأعداء الإسـلام

وقد يروج البعض دعوى الرجوع إلى أخذ الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة فإن قصد بتلك الدعوة تجديد النشاط للاعتناء بالكتاب والسنة واستنباط أحكام إسلامية لما يتجدد من قضايا ومستحدثات لم تكن - فيما سبق - معروفة - لتكون شؤون المسلمين كلها سابقها ولاحقها - على ما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه. فنعمت الدعوة ونعم الداعون. وإن قصد بتلك الدعوة إلى التنكر والهدم لما بناه وحققه أولئك الأسلاف الكرام على ضوء الكتاب والسنة والرجوع إلى الابتداء من الصفر. فهي في الحقيقة دعوة إلى نقض وإفساد لما شيده أعلام الأمة المحمدية وسلفها الصالح. إنها دعوة إلى نزع الثقة في كل ما يقولون وينقلـــون وأنها بالتالي دعوة إلى هدم الإسلام من أصله. وذلك عين ما يحاوله الاستعمار والشياطين فإذا ألزم الأقدمون من ليست له أهلية الاجتهاد بوجوب اتباع مذهب واحد وحرموا التلاعب وتتبع الرخص لغير ضرورة لا يعني ذلك أنهم رفعوا بين أيدينا الكتاب والسنة أو منعونا من التبحُر في علومهما أو العمل بما صح عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ولا يعني أيضا أن الأيمة الأربعة الكرام قد ادعوا أنهم استنفدوا كل معاني الكتاب والسنة إذهما بحر لا نهاية لعمقه ولا نهاية لعرضه ولا نهاية لطوله. وكل ما حاوله وقصده أولئكم الأيمة العظام ومن جاء بعدهم من العلماء الكرام إنما هو سد أبواب الشقاق والتنازع الشيء الذي يضر كل الضرر بالمجتمع الإسلامي فليس من اللائق تشجيع الأميين والدهماء وتلقينهم الفجور كقولهم أن مالك خالف السنة في مسألة كذا الشيء الذي يثير المشاجرة والخصام ويوقد نار الفتن في بيوت الله. والحال أن مالكا رحمه الله قد يعمل بدليل شرعي آخر وقد يخفى على غيره. لما تبين له أنه أولى من غيره. وذلك هو معنى الاجتهاد وقد قال عياض وغيره إن نصوص الإمام بالنسبة إلى المقلد كنصوص الشارع بالنسبة إلى المجتهد. فلم يكن الإمام - وحاشاه - يقتات على أحاديث الرسول صلوات الله عليه. فمالك وأصحابه ما بنوا المذهب إلا على ما صح عندهم. فهم من هم أدري وأكثر معرفة من غيرهم بسنن رسول الله صلى الله وأشـد إدراكـــا لمقاصدهـــا وناسخهـــا ومنسوخهـــا ومطلقهـــا ومقيدهـــــا

وخاصها وصحيحها وضعيفها وعللها الخ فمن تشويشات العوام وشبه العوام وفتنهم في المساجد قضية القبض والسدل في الصلاة والحال أن كليهما لا تأثير له على صحة الصلاة ولا على فسادها. فبعضهم يحتج بما رواه مالك في موطإه من أحاديث القبض قائلا وهم لم يزل يقبض حتى قبض. وبعضهم يقول بل كان يسدل لعدم تمكنه من القبض لضرر في يديه الناتج عن جلد أمير المدينة له. وبعضهم يقول أن رواية السدل عنه غير صحيحة... الخ. كأنهم لم يعلموا أن مالكا بصفته إمام الحديث - يروي الأحاديث قد يراها البعض ويفهم منها التضارب وأما مالك الواعي الثاقب الفهم والذهن المجتهد المطلق فإنه يصرفها إلى مدلولها. ولذا كان مشهور مذهبه السدل في الفريضة وجواز القبض في النافلة رغم روايته لأحاديث القبض وليس السدل خاصا بمالك رحمه الله فإن بعض الصحابة والتابعين يرون ما يرى مالك كعبد الله بن الزبير والحسن البصري وابن سرين والليث بن سعد. ومن المقرر أنه لا تجوز الفتوى في مذهب مالك إلا بالقول المشهور أو الراجح أو ما به العمل. وقد افتى الإمام سحنون بأنه لا يفتى في المغرب بغير مذهب مالك. وربما تخفى بعض أدلة إمام المذهب على من لم يبلغ درجة الاجتهاد. فله السؤال عنها للإسترشاد لا للعناد. وقد يقول القائل : ماذا على المرء إذا ثبت عنده حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بمقتضاه. ويقول : «أن قول مالك لسنا له بمماليك».

وهل ترك الإنسان في الدين غاية إذا قال قلدت النبي محمدا نقول له نعم. ذلك أمر يخصك في حد ذاتك. وليس لك أن تجرىء العوام والأميين وأشباههم على أخذ الأحكام مباشرة من الكتاب والسنة لكل من هب ودب وليست له أهلية. لما في ذلك من فتح أبواب الفوضى والتلاعب بالشريعة المطهرة كما هو مشاهد داخل المساجد وخارجها. على أن تقليدك إمامك وأصحابه حيث لم تكن مجتهدا. هو نفس التقليد للنبي محمد صلوات الله وسلامه عليه. لاستنادهم إلى القرآن الكريم والسنة النبوية واجتهادات الصحابة والتابعين. وكل ما في الأمر أنهم كفونا مؤونة مهامه يتعذر على غير الخريت سلوكها سالما. لذا نكرر أن أئمة المسلمين لم

يحتكروا ولم يرفعوا كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه بين أيدي المسلمين ولا أوصدوا أبواب الاجتهاد في وجه من له استعداد. ولكن الذي لا ينبغي ويعد من قبيل العبث واثارة الفتنة. هو محاولة إعادة النظر واجترار مسائل سيما التي تتعلق بالعبادات. قد وقع البت فيها منذ قرون وتبين فيها الرشد من الغي. ومن هنا نتقدم بخالص شكرنا لأمير المومنين الحسن الثاني الذي من الله به على المغرب الأقصى خصوصا والمغرب العربي عموما وعلى الأمة الإسلامية بصفة أعم. وذلك لرعايته التامة وعنايته الفائقة بجميع شؤون الأمة الدينية والدنيوية والسياسية والاقتصادية واستعداده نصره الله لدفع كل ما يضر بالمجتمع المغربي. وجلب جميع ما ينفعه. فمن ذلك عنايته بدرء كل ما يشوش عمار المساجد وإعلانه - مكررا - أن المغرب ليس في حاجة إلى استيراد المذاهب دينية كانت أم سياسية. وإعلانه - في مناسبات عدة - أن مذهب إمام المدينة المنورة مالك بن أنس هو المذهب المفضل الوحيد للمغاربة منذ قرون. وأن محاولة إحلال غيره محله من المذاهب الأخرى أو إلغائه. معناه إشاعة الفتن وتحطيم....

فهرس القسم الثاني من دورة القاضي عياض